قُدّوَةُ العالمينَ مُحَمَّد ﷺ

❊ الكتاب: قُدْوَةُ العالمينَ محمد ﷺ

❊ الكاتب: مدحت رضا ماهر

❊ مراجعة لغوية: عزيز عثمان

❊ تصميم الغلاف: شيماء أبو طالب

❊ إخراج داخلي: سليل الفراعنـة

❊ رقم الإيداع: 3679 / 2022

❊ الترقيم الدولي: 978-977-6968-17-2

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: 01005186476

صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

صدر عن دار المنتدى

بالتعاون مع دار المثقف

المثقف للنشر والتوزيع

دار المنتدى للنشر و التوزيع

9 789776 968172

قُدوة العالمين

محمد ﷺ

الجزء الثاني

النضج الإيماني

(من مولده إلى الهجرة)

مدحت رضا ماهر

صدر عن دار المثقف للنشر والتوزيع
بالتعاون مع دار المنتدى للنشر والتوزيع

فهرس المحتويات

مقدمة الجزء الثاني

ترددت كثيرا قبل أن أخط السطر الأول في هذه المقدمة للجزء الثاني -ولعلي لازلت مترددا- ليس لأنني في حالة عجز، وإنما ربما لأنني أتهم نفسي بالتقصير في تهيئة النفس بفترة من التفكير لكيفية الوصول لما أريد التعبير عنه للقارئ، إذ أنني في أثناء وعقب كتابة الجزء الأول فشلت فشلا ذريعا في عرض ما أكتب علىٰ من يشاركونني بيئتي، فالقراءة المعدومة بينهم تضطرني إلىٰ استجداء تقييمهم لما كتبت وانمحىٰ عندي مقياس استيعاب القارئ، فأغلب من عجزت عن استخراج الرأي منهم استخراجا، كانوا دون المستوىٰ الثقافي الذىٰ يمكنهم من استيعاب مقالة لكاتب جاد في جريدة يومية تتحدث عن أمورهم الحياتية كالسياسة أو الاقتصاد أو الفكر، ولكنهم يجيدون تماما فهم قضايا تختص بما تخصصوا فيه من أعمال، أو مشكلات كرة القدم أو الأسعار وأخبار الجريمة أوالفن والغناء، فما بالنا بكتاب يستعرض فلسفة الإيمان منذ بدء رسالة التوحيد، كتمهيد لخاتم تلك الرسالة.

إن كنت كما أسلفت قد واجهت الأمية الثقافية في بيئتي فليس ذلك لانحطاط تلك البيئة، بل لغلبة حركة الحياة عليهم، وكذلك لغلبة الاستسهال علىٰ عقولهم هروبا من الهموم الحياتية عليهم وعلىٰ رأس تلك الهموم هو التفكير، فلم أحاول عْرض ما كتبت علىٰ أمي واحد، بل علىٰ نخبة من حملة الشهادات العليا أعرض أغلبهم، ولم أحظ بتفاعل إلا من القلة، ولم يكن تفاعل واحد منهم بالعمق المطلوب فقد كان انفعالا وليس تفاعلا، فليس الإعجاب هو الهدف والمرام بل التفاعل الذي نشدته هو تفاعل للكمال والاكتمال لكي أحظىٰ بالمقياس الذي أنشده في سبيل إيضاح الفكرة، وللإجابة علىٰ تساؤل يساورني أأستمر في الأسلوب اللغوي ذاته؟ أم أخفف من التقعر اللغوي إن كان موجودا؟ والغريب، كل الغرابة هو في نظرة الريبة أو الاندهاش وأحيانا النظرة الدونية لي ممن أعرض عليهم ما أكتب، ففريق يتعجب مستنكرا من تناولي لموضوع خارج نطاق تخصصي فيما يزعم، وفريق ينظر بريبة فيما قد يظن ان كتاباتي تحوي تجديفا مؤثرا السلامة، وكلاهما يقرأ متربصـًا، وإن كنت ألتمس للفريق الثاني العذر قبل أن يقرأ، فقد انتشرت الجرأة علىٰ الثوابت الإيمانية بلا دليل، فلا أجد العذر في الفريق الأول، فالمشاعر والوجدان لا

تخصص فيها، فمن قال يوما أن حبا لرسول الله ﷺ قد أنشأت له كلية تختص فيما هو متاح بالضرورة لكل المؤمنين الذين يتفكرون في كتاب الله، الذي يكتب قصيدة في محبوبته، أو قصة غرام، أينبغي عليه أن يكون خريجا لكلية الحب والعلوم الغرامية؟ ولقد ازدحمت المكتبات بمشاعرهم وكم تغنىٰ بها الناس.

الوطنية كذلك ليست ميادينها مقصورة علىٰ من درس في الكليات الحربية أو كليات السياسة، فالجنود ورئيس البلاد والبرلمانيون والمفترض فيهم هذه الصفة ليسوا بالضرورة مختصين في دراساتهم بما يشعرون به ويجيدون، وإنما هي مشاعر الحب تجاه قوميتهم وبلادهم واهتماماتهم بالشأن العام في البلاد، وقراآتهم المخلصة لما كرسوا أنفسهم له قد أهلتهم لمراكزهم، فالمشاعر لا مهنة فيها ولا تخصص،

عشقت الإيمان، ولا أرىٰ أن يجيز لي شخص أيا من كان الكتابة فيما أعشق، ولقد عشقته عشق المحب الواعي، بعد تدقيق اتسم بالحياد المطلق والمرهق، ولا يد لي فيما عشقت، عشقته بعد أن استقر وجداني علىٰ اختياره، ليس كأسلوب حياة فحسب وإنما كاعتراف يقيني بصدق كل ما حوىٰ ذلك الطريق،

العشق الواعي إنما يولد بالمعرفة والتبصر والتجريب بالإضافة إلىٰ التراكم المعرفي وأحيانا عديدة -في حداثتي- بالشك قبل اليقين، ففي سورة البقرة (الآية ١٧١) يقول العلي القدير «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً صم بكم عمىٰ فهم لا يعقلون» ويفسر الشيخ الإمام محمد عبده هذه الآية فيقول:

(إن هذه الآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتىٰ اقتنع به فمن رُبَي علىٰ التسليم بغير عقل، والعمل ولو صالحا بغير فقه فهو غير مؤمن فليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقي عقله وترتقي نفسه بالعلم فيعمل للخير لأنه يفقه أنه الخير النافع والمرضي لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته)

ذلك لأن الله يفرق ما بين الإسلام قبل الإيمان وبعده، إذ يقول جل جلاله في سورة الحجرات الآية ١٤(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)

اطمأنت نفسي -بعد عنت طويل- من التساؤلات طوال عمري عن كل صغيرة وكبيرة فيما درست إبان دراستي في الطفولة والصبا، حتىٰ تحول إيماني مع الزمن من إيمان الترديد إلىٰ إيمان التأييد واليقين في نضجي وازداد بعد ذلك في شيخوختي، وقد كنت فقير الحظ في استنباط الإجابات ممن ألقي عليهم تساؤلاتي بجواب شاف إلا من اليسير أو النادر، ومن ثم آثرت الاعتماد علىٰ الذات في جمع الحجج، من المكتبات والكتب والكتاب، ومن الندوات، أو البرامج ووسائل الإعلام، وفوق كل هذا بإعمال العقل لا الهوىٰ، فالإيمان يخاطب الروح والوجدان عبر العقل والضمير، أما الفسق فيجتذب الإنسان بالاحتياجات من الرغبات عبر الغرائز.

إننا وعلىٰ الرغم من أننا نذكر ضرورة العقل للإيمان، إلا أننا بهذه المقولة نصيب الحس والوجدان مع العقل والبديهة في مسألة الإيمان الرشيد، يفهمه المؤمن ويدين به المفكر ويتطلبه الطبع السليم.

ولكل مخلوقات الله الأرضية غرائزها وعقلها، والبشر من ضمن هذه المخلوقات والتي لا يسعها تحكيم عقلها وضميرها، إلا بعد إشباع غرائزها من خلال التأثير علىٰ العقل والإيمان يقوم بهذا الدور، والعقل البشرىٰ ليعجز عن فهم العديد من متطلبات الروح والوجدان- إلا بالتربية والتراكم المعرفي - ولهذا كان الطريق طويلا وشاقا علىٰ البشرية، كما كان عليّ أنا أيضا كفرد من المنظومة البشرية.

لجميع مخلوقات الله حواسها التي تشكل حركتها الانفعالية، وقد تتباين منظومتها الحسية فترغب في إشباع غرائزها من خلال الإتيان بالنقيض ونقيضه، وبدرجات إما متساوية أو متباعدة، فالذبابة مثلا تقودها منظومتها الحسية لإشباع غريزتها من خلال حاسة الشم، فتنجذب للسكريات، وللفضلات، والإنسان أيضا قد يرغب في الحلال من الطعام والشراب أو إتيان زوجه، بنفس قدر رغبته في الحرام من الطعام والشراب والإقدام علىٰ الزنا أيضا، كتناقض سلوكي، لكن للإنسان سبيل في تعديل تناقضه السلوكي من خلال العقل الذي هذبه الإيمان، أما الذبابة فلا سبيل إلىٰ تعديل تناقضها الحسي والسلوكي، فالفرق إذن بين الذبابة والإنسان، هو نفس الفرق بين الكافر والمؤمن.

تساوىٰ الكافر مع الذبابة باتباع الغرائز، في حين انفرد المؤمن باتباع العقل والضمير، والعمل بما يأمره الله به، فهل يغضب النحل لو أنتج الذباب عسلا؟! كلا، ولكن الذباب لن ولن ينتج العسل، إن النحل والذباب يجمعهما تصنيف علمي واحد هو صتف الحشرات، لكن الفرق بينهما أن النحل قد تلقىٰ وحيا وتعاليم من السماء. «وأوحىٰ ربك إلىٰ النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون» * ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) النحل ٦٨. ٦٩

وعندما التزم النحل بهذه التعاليم الربانية، نفذها فأكرمه الله وأصبح النحل يأكل أفضل ما في الطبيعة (رحيق الازهار) ثم يعطي أفضل الأطعمة (العسل) ضمن نظام مترابط ومتماسك ومنظم، فمن الملكة. إلىٰ الحضانات. إلىٰ الجند الذين يحرسون الخلية. إلىٰ العاملات اللاتي تصنعن محاضن العسل. إلىٰ النحل الذي يجمع العسل، كما أنه يعيش في مجتمعات متعاونة يؤدي كل دوره فيها بصمت وتفان في العمل ضمن بيئة نظيفة، اما الذباب فلم يتلق تعاليم سماوية، فبقي يأكل أقذر ما في الطبيعة، ويعيش في البيئة القذرة، ولا يعط إلا الأمراض وإزعاج الناس. ويعيش الذباب في مجتمع مفكك ليس بينه أي رابطة، تتصرف فيه كل ذبابة لوحدها.

والنحل (يعطي) العسل الذي فيه الشفاء لناس بينما الذباب يقوم بالنهب والسلب (يسلب) بشكل مزعج (يا أيها الناس ضرب مثلا فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنفذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) الحج ٧٣

وفي ذلك عبرة للناس . فالإنسان الذي يلتزم بتعاليم الله، هو إنسان أشبه ما يكون بالنحلة، التي تعطي دوما بلا كلل ولا ملل . أما المتمرد الفوضوي المزعج المستغل فتنطبق عليه حياة الذبابة.

ولقد قامت الدعوة الإيمانية لدين الله الخاتم للمنظومة الإيمانية الربانية علىٰ أساس النضج البشري، ومن ثم علىٰ هدىٰ العقل، من حيث هو دين التفكير الذاتي وإلىٰ المنطق

التجريدي (الميتافيزيقي) المؤهلة له البشرية بعد نضوجها، ولهذا صح أن ترتبط الحضارة وأسسها بهذا الدين.

إن دين الله الخاتم للمنظومة الإيمانية الربانية، هو اللبنة الأولىٰ لعهد جديد من الإيمان الواعي بالله، وهي كذلك لبنة بدونها لا تتفتح الأبواب نحو العدالة الإلهية المرتجاه، ومن ثم السعادة للبشرية، ولقد أتم الله تلك اللبنة بوضع رسالته سبحانه بين أيدي قدوة العالمين، ومن خلفه خير أمة اخرجت للناس، تلك الرسالة التي طرقت جميع أبواب الحياة المعيشية لبني البشر وللمجتمع الإنساني، ولم تترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها كتابه سبحانه، يحمل الأمانة رسول يتحلىٰ بالبشرية التي ألفوها، بلا خوارق إلا فيما يختص بالتبليغ وضمان إكمال الرسالة، ذلك حتىٰ تصير المهمة الإنسانية الملقاة علىٰ عاتق من يخلف قدوتهم ممكنة في الاستمرار وممكنة في التطبيق والانتشار بين العالمين ـوإن لم تكن ميسورةـ بل مليئة بالعنت والمعاناة التي لاقاها رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فلئن كان محمدُ أسوتهم – كما أخبرهم الله – فلا شطط، ولا تشويه للميراث الروحي العظيم الذي كلفوا بنقله.

ولعل في منظور التاريخ المقارن يتبادر إلىٰ المتأمل عدة ملاحظات، فكما تسبب طول الزمان في نسيان دين الله بعد عصر آدم إلىٰ إبراهيم عليهما السلام، ومرورا بأنبياء الله نوح وإدريس، وهود وصالح عليهم السلام، ومن بعدهم إسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف، فظهر الشرك والجاهلية، فقد تسبب طول الزمان أيضا _بعد نبي الله موسىٰ عليه السلام_ تسببت في الجرأة علىٰ الدين، وإعمال التصرف بالتزوير تارة والتحريف والإضافات تارات أخرىٰ في كتاب الله، والاختلاف والرياء والجمود والجدل والمظهرية والتكسب من الدين، وقبل كل ذلك وفوقه العنصرية، وقتل الأنبياء فضلا عن إنكارهم، بالإضافة إلىٰ الكفر والعصيان، فاحتلوا منصب المغضوب عليهم بجدارة.

وبعد نبي الله عيسىٰ عليه السلام تسببت الخرافات والادعاءات والتحريف بالتأثر بالأديان الوضعية والغلو في الدين بتأليه الأنبياء، والمبالغات والاختلافات، بالإضافة إلىٰ ما ورثوه من اليهودية مما سبق ذكره كاملا وزيادة، في احتلال أتباعه عليه السلام منصب الضالين بلا منازع.

أما نحن -أتباع قدوة العالمين- فعلينا الحذر، كل الحذر من عيوبنا البشرية، فنرىٰ الجرأة علىٰ الحديث بالتحريف تارة والإضافات تارات، والادعاء بإلصاق المعجزات المفتراة علىٰ رسول الله وعلىٰ الأولياء وتأليه واحد من الصحابة ونسله، والرياء والجدل والمظهرية والتكسب من الدين من أجل المال أو السلطة أوكلاهما معا، والتأثر بثقافات الغرب المنتصر، بالإضافة إلىٰ الغلو في الدين والعنف بالقتل باسم الدين والجمود الفكري والروحي، وفوق كل ما سبق القسوة والجهل والكسل الوجداني والفكري والإيماني، واستسهال النص عن روح الإيمان وجوهره، في تأصيل الهزيمة من الداخل فينا، وانصراف المؤهلين بالإيمان عنا، ومنا. فهل نستحق نحن صفة من أنعم الله عليهم وهداهم إلىٰ الصراط المستقيم، وهل لا نزال خير أمة؟، إذ قتلنا بعضنا البعض بوضع المتفجرات بالمساجد بدعوىٰ الاستشهاد!

إن سيرة رسول الله ﷺ مجردة، ودون الحشوات والإضافات لجديرة بتحريك القلوب المغلقة والمتحجرة وإقناع العقول الغائبة والمغيبة، تحفز الضمائر وتخلق الهداية، عند أولئك الغائبة عنهم، أو تجدد الهداية المنهكة عند أولئك الموجودة فيهم. ولقد حرصت في الجزء الأول من هذا الكتاب علىٰ استعراض الرحلة الإيمانية وفق المتاح لنا كبشر من حقائق تاريخية ونصوص توراتية وإنجيلية، محتكما إلىٰ القرآن كمصدر إلهي ضمن لنا الله حفظة، كما حرصت علىٰ التذكير بأنني أكتب في التاريخ وليس في الدين، والدين هو الجزء الأكبر من التاريخ وهو حاكمه، ولئن كنت أحتكم للقرآن في تصحيح التاريخ فليس هذا للانحياز له، وإنما هو للجوء إليه واللوذ بمصداقيته، فكما يقول لنا العالم الجليل والمفكر الإسلامي عبد الوهاب المسيري من أن القرآن يصحح التاريخ، والتاريخ لا يصحح القرآن.

إن لنا أن نتساءل؛ لماذا كتب عن رسول الله ﷺ هذا الكم الهائل من السير، والكم الهائل من الأبحاث، فضلا عن المقالات والدراسات، والحرص غير المسبوق في جمع سنته وأحاديثه صلىٰ الله عليه وسلم، من المؤمنين به أو من خصومه سواء بسواء، منهم من يكذب عليه فيخرج عن المنطق والأدب، وأبسط الأصول المرعية في مصداقيات البحث المعترف بها، ومنهم من ينافح عنه ﷺ منذ خمسة عشر قرنا من الزمان، فيخرج أيضا البعض منهم عن المنطق، والحقيقة حبا ودفاعا أحيانا أو لغرض ما في أحيان أخرىٰ، وحتىٰ

يومنا هذا؟، ذلك على الرغم من أن المعروف أن أتباع المسيحية يبلغون أكثر من ضعف أتباع النبي الخاتم، وقد سبقه عليه السلام بأكثر من ستة قرون، وتربع أتباعه على عرش الممالك ما شاء الله لهم أن يتربعوا، كما يمتاز أتباعه عليه السلام بوفرة القراءة وانتشار الكتابة، إلا لو كانت الإجابة هنا واضحة وضوح الشمس وهي عظم الأثر الذي احتاجت له البشرية من خاتم الأنبياء، وتفاعلا مع التأثير الذي أحدثه، فنبي الإسلام صلوات الله عليه وسلامه، شبيه بالوجود، والوجود فسيح قبل بدء الخليقة، ومنتهاه بعدها، أما رسول الله فهناك مجال فسيح للإعجاب بعظمته قبل النبوة ومجال لا متناه للعشق بعدها، فالإنسانية التي حلمت بالمدينة الفاضلة قبل رسول الله ولا تزال، قد حققها ﷺ بكل بساطة في يثرب، وعجزت الإنسانية عن تحقيقها قبلة أو تكرارها بعده.

ونبي الله ﷺ ، وهو الذي اصطفاه الله من بين عباده، كما اصطفى قبله سائر الأنبياء والرسل، منهم أولو العزم ومنهم من هم دون ذلك، والنبوة تكليف شاق من الله جل وعلا، أما الهبة التي يمنحها الله للأنبياء، فتأتي بالكسب، وهي منوطة بحكمة الله وعلمه، فيقضي بان تمنح للقادر عليها، فيعده الله لها، والله أعلم حيث يجعل رسالته ولئن كانت للأنبياء عصمة، فهي عصمة في التبليغ، وهي ليست كعصمة الله، فالوحي لا يلازم الأنبياء في كل عمل يصدر عنهم، أوكل قول يبدر منهم، فهم وإن كانوا أنبياء أو رسل، فهم أيضا من البشر ومعرضون للخطأ، وقد يخطئ البشر، وقد لا يجدون من يراجعهم، أما الأنبياء فيمتازون عن باقي البشر بأن الله جلت حكمته يجعل من أخطائهم وسيلة لهداية البشر الذين يتخذون الأنبياء قدوة، فلا يقر الله الأنبياء على أي هفوة تصدر منهم، فلو كان الأنبياء معصومين أو ملائكة لما كانوا من البشر ولما كانوا قدوة للبشر أو أسوة، وقد قال الله للبشر عن سيد الخلق «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»

فالبشر لا يتأسون إلا بالبشر، فيتأسون بهم فيما هو مطلوب من البشر القيام به، فليس لهم أن يلقوا في النار فتكون بردا وسلاما عليهم، أو يرون رؤية بقتل أحد ابناء هم فيصدعون للرؤية تأسيا بنبي الله إبراهيم، بل ويحرم عليهم ذلك، كما يعجزون عن الإتيان بما آتى به الله موسى وعيسى (عليهما السلام) من آيات، وحرم عليهم ادعاء أن يُنزل عليهم من الله كتابا، أو يكلمهم الله وحيا.

أمر الله سبحانه محمدا أن يبلغ عن ربه، ولم يبين له الطرق التي عليه اتباعها في التبليغ أو في حماية الدعوة فهي موكوله لحسن الاختيار الإلهي له، فترك له أن يتصرف بفطنته كأفضل ما يقوم به بشر، فألف بين القلوب، وكان حكما عادلا بين أتباعه ومناوئيه، وظهرت الحكمة والرصانة والذكاء والطهر وبعد النظر، وسرعة الخاطر والإخلاص والإيثار والعفة، والحزم والصدق في كل ما صدر عنه، فكان قدوة للعالمين، في أسمىٰ ما وصلت إليه الإنسانية.

حباه الله جلت حكمته بأوفىٰ معجزة حباها لأي نبي أو رسول، فلم تكن معجزة الله فيه إلا أخلاقه، ولم تكن معجزة الله له القاهرة إلا في القرآن، فهي المعجزة الباقية الوحيدة علىٰ ظهر الأرض حتىٰ يوم الدين، وقد نزل القرآن عليه والبشرية مهيأة للهداية بالإعجاز العقلي في مرحلة بشرية تتسم بالنضج الإيماني، فإن كان الله تعالىٰ علىٰ سبيل المثال- وكما ذكرنا في مقدمة الجزء الأول- قد أمد نبيه موسىٰ (عليه السلام) بتسع آيات من آيات الله الكبرىٰ، دفعت بنىٰ إسرائيل دفعا للإيمان بالله وصارت بعد مئات السنين تتهم من المرجفين بأنها (أساطير الأولين) فقد أمد الله سبحانه وتعالىٰ محمدا (صلىٰ الله عليه وسلم) بستة آلاف ومائتين وست وثلاثين آية عقلية وغيبية، مستمر إعجازها وباقية إلىٰ يوم الدين تدفع معاصري الدعوة إلىٰ الإيمان حين النزول، وتؤكد إيمان المؤمنين بعد مئات السنين، بل وتدفع غير المؤمنين للإيمان إذا ما تدبروا آيات القرآن خاصة إن كانوا علىٰ درجة عقلية تسمح لهم بالتأمل والتدبر في القرآن الكريم إذ يقول الله عز وجل «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه علىٰ كل شيء شهيد»

وكانت معجزته الأخلاقية هي ما سمت برسول الله لمكانة قدوة العالمين والقرآن يمن علىٰ البشرية، وعلومها بالحقائق، تهديه الأسانيد الصحيحة، فعلم القانون الوضعي يختلف من مجتمع لمجتمع ومن زمان لزمان، فبعض الولايات الأمريكية علىٰ سبيل المثال يختلف نص القانون من ولاية لأخرىٰ، ولم يبق علىٰ حاله، لقصور في العقل البشري الذىٰ قام بوضعه، أما أحكام القرآن فلا تتبدل، والعلوم الإنسانية كالفلسفة مثلا، تبدل ثيابها علىٰ تعاقب الأجيال والعصور، والفلسفات المستنبطة من كتاب الله تبقىٰ ثابتة، والقرآن يصحح التاريخ لنا، أما الأدب مهما بلغ، فلا يضاهي كل ما أنتجته العقول البشرية آية من آيات القرآن.

حكم الله في القضايا الاقتصادية (وأوضحها الآن ما يتعلق بالفوائد الربوية) أصبح بابا الفاتيكان بنديكت الثالث عشر يطالب باتباعها، رغم عدائه لرسول الله وما أتىٰ به، كما افتتحت دولُ عظمىٰ مؤخرا بنوكا تعمل بالتعاملات الإسلامية، فقد تبين لهم -بعد أزمة الرهن العقاري في بداية هذا القرن- أنه الحق.

إن نظريات النشوء والارتقاء بعد أن شككت الناس في نشأة الحياة ونظريات التفسير الجدلي للتاريخ، وما تبعها من رفض لله أصبح من يتحدث عنها اليوم يتهم بالتخلف، فقد جادلوا في الله بغير علم.

ما كان مبهما علىٰ العقل الإنساني وقت نزول الآيات، وفهمه المؤمنون وقتها بما يناسب تطورهم العقلي، قد بلغ اليقين بعدما أميط اللثام العلمي عن بعض حقائق ومسلمات العلم بعدها بقرون، ولم يكفهم بعد، أن الله علىٰ كل شيء شهيد،

ولئن كان التنافس الاقتصادي والمادي هو أساس حضارة الغرب، فهم لا يزالون يلتمسون مبادئ روحية تنقذهم من وثنية ورطهم فيها بولس -كانت ولا تزال سبب شقائهم- أما حضارتهم المادية وموروثهم الروحي، فقد خلف نزاعا بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية -استوردناها بلا ضرورة- كما خلف واقعا أخلاقيا يقوم علىٰ أسس النفعية، غير الروحية، ومن ثم كانت الإباحة في الأخلاق أقدس ما قدسته تلك الحضارة وعلىٰ الرغم من أعجابي بحكم مهنتي بإنجازات الغرب والشرق أيضا المادية والعلمية، إلا أنني أرىٰ أن حضارة تقوم علىٰ أسس اقتصادية لابد أن تقّصّر في أن تمهد سبيلا للسعادة الإنسانية، فتظل كل الأطراف تتحين الفرصة للاستيلاء علىٰ رغيف الطرف المنافس، مغلفة أفعالها بمبادئ تكتيكية ظاهرة تنادي بالإخاء والديمقراطية وحقوق الإنسان في الظاهر، فتجعل كل تفكير في منع الحروب غير مجد.

****

قرأت كثيرا في كل ما أتيح لي أن أقرأ طوال عمري، كانت الحقائق العلمية سواء ما تخصصت فيه أو ما هو بعيد عنه واستمر الحال هكذا لعقود طويلة، عشت حياتي خلالها كما يعيشها كل الناس، تشغلني الحياة ولقمة العيش، وتؤرقني التساؤلات في كل ما قرأت وأقرأ، خاصة فيما يتعلق بالسيرة النبوية الشريفة، وكنت أنظر لأمر قراءاتي الدينية كمجال لا

يحق لي النقاش فيه إلا فيما بيني وبين نفسي، إلىٰ أن طفح بي الكيل عند قراءة بعض ما كتب عن أمور الدين وبخاصة السيرة النبوية، وكان صمتي خوفا من هذا المجال، إلا أن جهل العالمين برسول الله، قد جرأهم عليه، وعلىٰ الإسلام، وعلينا، ونحن أهون الألم، فظلموا أنفسهم وظلموا رسول الله بجهلهم الذي نحن سببه، فهالني الجهل والسطحية والكذب والتضليل، وكانت الرسوم المسيئة وآراء بنديكت الثالث عشر كالرصاصة التي كسرت الصمت، ووجب علينا إذن أن نُعلِمُهم من هو محمد فقد قصرنا في حقهم بعدما قصرنا في حق رسول الله، ولا أحسب إلا أننا نتحمل ذنبهم بما كتبنا، دون تمحيص في بعض ما كتب عن رسول الله وكذلك نتحمل ذنبهم فيما فعلنا أمامهم فيما بين أنفسنا، وما فعلنا معهم ولهم وتنشأ فينا ومنا أجيال تبغض رسول الله بجهل، أو تحبه بجهل أشد.

أردت أن أدلي بدلوي الذي أحسبه مفيدا، وأطمح أن يصبح فريدا، وفي محاولة في إيفاء رسول الله حقا أعلم مسبقا باستحالة أن أفيه، فأغترف من دلو الآخرين، إذ ليس في إمكان شخص واحد أن يصل لهذه الغاية إلا إذا استغل مجهود غيره، ونفح نفسه بأدلاء الآخرين يقتبس ما يراه جديرا بالاقتباس، ويوازن بين المعروض أمامه، وأمهل نفسه الوقت، ينقل ويباعد، يختار ويفاضل، فمن يدري، ربما أراد لي الله جل وعلا أن يمسي كتابي هذا إضافة لما قد قراه الأفاضل ممن اغترفوا من معين ما قدمه الآخرون، وربما لا يكون ما أكتب من تحليل للأحداث مألوفا، فليس كل مألوف صحيح، وليس كل جديد خطأ، وفي هذا يقول ابن النفيس أنه إذا تساوت العقول والهمم، فمتأخر ما هو مكتوب خير من متقدمها، فالكاتب المتأخر كما أرىٰ، قد يفوته قطار السبق، لكنه يلحق بقطار الدقة والتأمل، وعلىٰ الله التوكل، وإليه المصير.

مدحت رضا ماهر

الفصل الأول

(بيئة رسول الله ﷺ)

الفصــل الأول
(بيئة رسول الله ﷺ) مكة والكعبة

ولد محمد[1] في مدينة مكة التي شرفت بالكعبة بين جنباتها، وقد كانت الكعبة –في ذلك الزمان ولا تزال_ هي أقدس ما قدسه المكّيون وباقي البطون العربية في شبه الجزيرة العربية، والتي ذاعت شهرتها فيها وخارجها علىٰ السواء، في العام الذي تعرضت فيه هذه الكعبة إلىٰ عظيم الخطر بالهدم ولد محمدُ، تماما كما ولد غيره من الغلمان في مكة.

١- مكة المكرمة:

يكنيها المسلمون اليوم بالمكرمة، وهي بالفعل مدينة مكرمة، كرمها الله بأن جعل بها أول بيت وضع للناس ثم أمر إبراهيم برفع قواعد الكعبة بها في بداية القرن السابع عشر قبل الميلاد (١٦٠٠ ق م) ففي اليوم الذي ترك بواديها غير ذي الزرع ابنه إسماعيل البكر الذي يجمع بين فضائل العبريين والمصريين وأمه هاجر، بدأت إرادة الله – جل وعلا – في وضع أولىٰ لبنات ذلك المجتمع بإرادة إلهية وتقع مكة وسط جبال فاران [2]، وقد كانت من قبل محلة قوافل للتجار من اليمن للشام والعكس، فهي تقع وسط طريق القوافل المحاذي للبحر الأحمر ما بين اليمن والشام وترتفع فوق سطح البحر بثلاثمائة وخمسون مترا، ولقد ذكرنا القصة من قبل في الجزء الأول من هذا الكتاب وكيف فجرت إرادة الله القدير ماء زمزم، التي استهوىٰ ماؤها القبائل للمقام علىٰ مقربة منه ولم تصر تلك المياه قوتا لسد الرمق فحسب، بل بلاغا لها بما آمنت هاجر به، والأكثر من ذلك، فقد كانت علامة لقبيلة يمنيه مارة بالمصادفة – ولم تكن تمر من هذا الوادي– وهىٰ قبيلة جرهم الثانية، وكانت تلك القبيلة تسكن أطراف هذا الوادي، فلما عرفوا بقصة هاجر وابنها إسماعيل، انتقلوا للعيش معهما تبركا وإيمانا بقوىٰ خارقة وراء ما يؤمنان به من إله ونبي، فكانت قبيلة جرهم الثانية هي أولىٰ القبائل العربية ثم جاء العماليق بعدهم، وفى زيارة إبراهيم الثانية لمكه –

(١)ربما أتعمد تجنب تسمية رسول الله إلا بما سمي به حين مولده حفاظا علىٰ الحيادية حتىٰ إذا ما تبين للقارئ كونه الرسول فلا يحق لي بعدها إلا تسميته بما استحق من توقير..

(٢)نسبة إلىٰ فران بن بليّ بن عمرو (صفة جزيرة العرب للهمداني طبعة ليدن لسنة ١٨٨٣ ص ١٧٠، كتاب الإعلام ببيت الله الحرام طبعة ليبسيك لسنة ١٨٥٧ ص ٨.

والتي تمت بعد أن شب إسماعيل عن الطوق وتزوج من امرأة من العماليق (ابنة صبدي) - جاء إبراهيم إلىٰ دار إسماعيل، ولـم يجد ابنه فسأل امرأته عن إسماعيل وعن أحوالهما فضجرت بالشكوىٰ من العوز، فأوصاها أن تخبر إسماعيل بأن يغير عتبة الدار، ولما عاد إسماعيل أخبرته امرأته بما حدث، ففهم إسماعيل وصدع لأمر أبيه مسلماً كما هو مفترض، فتزوج من ابنة مضاض بن عمرو كبير جرهم وسيدهم وهي التي رزقه الله منها اثني عشر ذكرا وكان خيارالله لهذا التلاقح بين إسماعيل العبري المصري وبين امرأة من أفضل نساء العرب ومن أفضل قبيلة، ما جعل لذرية إبراهيم من العزم وقوة البأس والجمع ما بين أفضل فضائل العرب والعبريين والمصريين وتكونت من هذا النسل لبنة العرب المستعربة المشار إليهم في الجزء الأول من هذا الكتاب، فكان اختيار الله لهاجر، ووحيه لإبراهيم بتعديل اختيار إسماعيل، فيصبح نسله خيار من خيار.

٢-الكعبة المشرفة:

في أثناء كل ذلك كانت زيارة إبراهيم الرابعة (في القرن السابع عشر قبل الميلاد) و الأخيرة لإسماعيل في مكة التي أنشأها وقد أصبح جليا بأنه قد آن الأوان لما بعد كل هذا الترتيب إذ كان إسماعيل مستعدا لبناء الكعبة مع نبي الله إبراهيم ورفعا القواعد لأول بيت وضع للناس فالكعبة قد بناها ملائكة السماء، ثم آدم عليه السلام ثم أعاد البناء ابنه شيت ثم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأذن بعدها إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله، فهو مبنىٰ صخري والحجر الأسود هو حجر من الجنة الذىٰ لا يوجد مثيل له علىٰ وجه الكرة الأرضية وجاء في الزابور الثامن عشر بعد المائة عن الحجر الأسود في الآيتين ٢٢&٢٣ (الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية) وكما ذكرنا سلفا فالجزيرة العربية تتوسط تقريبا قارات العالم القديم، ولكن بالأخص الكعبة المشرفة تتوسط جغرافية العالم كله بعد الدراسات الأخيرة، وهىٰ إنما تدل علىٰ ما ذكرناه في مقدمة الجزء الثاني من الكتاب من أن كل آية من آيات القرآن الكريم، إنما هي معجزة في حد ذاتها يدرك المؤمنون به إعجازة في كل عصر، كمعجزة في الدقة ما كان لبشر أن يفتريه ذلك لتوافق النص القرآني من سورة الأنعام الآية رقم ٩٢» ولتنذر أم القرىٰ وما حولها» ولقد أمكن الله العلماء من كشف تلك الحقيقة مؤخرا بعد قرون من أخذ الآية فيما سبق علىٰ سبيل المجاز، ففي عام ١٩٧٧

ميلادية كشف الدكتور حسين كمال الدين عن حقيقة علمية مفادها أن مكة المكرمة هي مركز اليابسة في الكرة الأرضية وجاء هذا الكشف نتيجة جهد قد استغرق سنوات من البحث العلمي حيث تتوزع اليابسة حول مكة بانتظام وبما أن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية وتضيءها بالنور فكذلك الكعبة ومكة تضيئ الأرض بالرسالة ولقد ادرك المقيمون حول الكعبة أهميتها الربانية فدارت حولها سلسلة من الصراعات العربية الشهيرة علىٰ المكانة والصراعات العربية لاتزال حتىٰ اليوم وليس شرطا قيامها علىٰ الكعبة بل علىٰ أقل الأشياء أهمية.

٣-الصراع الأول بين العرب حول الكعبة والسيادة على مكة (٦٤٠ ق . م):

الصراع حول الكعبة المشرفة والسيادة علىٰ مكة هو صراع قديم، قبل الإسلام أو بعده والصراع سياسي بالدرجة الأولىٰ علىٰ الرغم من عدم وجود دولة فقد كان صراعا سياسيا علىٰ المكانة والشرف والكعبة أسرت القلوب من قديم الأزل، ورفعت مكانة مكة بهذا التكريم الإلهي، جعلت العرب مؤمنين أو غير مؤمنين يبذلون الجهد كله للاستحواذ علىٰ مكة كما أغرت الأعاجم ممن أسلموا أيضا بنيل شرف السيطرة والحديث تفاخرا بخدمتها وفي هذا الجزء سوف نستعرض الصراع الذي دار منذ القرن السابع ق م. وحتىٰ قبل الفتح فحسب فلما بنىٰ إبراهيم وابنه إسماعيل الكعبة كان قد قصد مكة قبائل من العماليق وقبيلة جرهم الثانية وقد آمن من قطنها بنبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل ومن جاء من نسل إسماعيل عليه السلام حتىٰ تسبب طول الزمان، في تفشي الوثنية بالتدريج فيهم فمن احترام الكعبة إلىٰ تقديس حجرها الأسود إلىٰ عبادته إلىٰ عبادة تماثيل نحتوها لهم أو رسومات لإبراهيم وإسماعيل، إلىٰ أنصاب وأزلام وخلال تلك المراحل صارت للكعبة قدسية مرتبطة بما عرف عمن أنشأها ونسوا معنىٰ الألوهية السامي

(١) ولي إسماعيل عليه السلام زعامة مكة بداية من منتصف القرن السابع عشر قبل الميلاد وولاية البيت طوال حياته [٣] وبعد وفاته تولىٰ ابناه نابت ثم قيدار حتىٰ ١٦٤٠ ق م

(٣)قلب جزيرة العرب ص٢٣٠ – ٢٣٧- (عاش ١٣٧ سنة).

(٢) ثم ولي أمر مكة بعدهما جدهما لأمهما مضاض بن عمروبن يعرب بن قحطان الجرهمي وإن بقي أولاد إسماعيل في مركز محترم، لما لأبيهم الفضل في بناء البيت، ولم يكن لهم من الحكم شيء [٤] وراجت تجارة مكة خلال هذه الأحقاب ونسىٰ قاطنو مكة أنهم بواد غير ذي زرع وبدأت تتكون طبقة أرستقراطية عربية ومضت الدهور حتىٰ ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر وكان نجم عدنان -وهومن نسل قيدار بن إسماعيل- يتألق في سماء مكة إذ في غزوة بختنصر الثانية عام ٥٨٧ق م توجه دانيال لمكة وذهب بابن عدنان (معد) إلىٰ الشام حماية له ولنسل إسماعيل فمنهم سيأتي النبي فلما انكشف ضغط بختنصر (٥٨٠ ق م) عاد معد وقد قال دانيال (إن الله يقول لي: إن بني إسرائيل أغضبوني، وتمردوا علي، وعبدوا آلهة من دوني وصاروا من العلم إلىٰ الجهل، ومن بعد الصدق إلىٰ الكذب، فسلطت عليهم بختنصر، فقتل رجالهم وسبىٰ ذرياتهم، وهدم بيت مقدسهم وحرق كتبهم وكذلك فعل من جاء بعده بهم، وأنا غير راض عنهم، ولا مقيلهم من عثراتهم، فلا يزالون مغلوبين وعليهم الذلة والمسكنة حتىٰ أبعث فيهم نبيا من بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، وأوحي إليه وأعلمه الأسماء وأزينه بالتقوىٰ، أجعل البر شعاره، والتقوىٰ ضميره، والصدق قوله والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه، وناسخ لبعض ما فيه، أسري به إلي من سماء إلىٰ سماء حتىٰ يعلق فأدنيه، وأسلم عليه وأوحي إليه، ثم أرده إلىٰ عبادي بالسرور والغبطة، حافظا لما استودع، صادعا بما أمر، يدعو إلىٰ توحيدي باللين من القول، والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن علىٰ من عاداه فيدعوا قومه إلىٰ توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأىٰ من آياتي فيكذبونه ويؤذونه) [٥]

لما رجع معد إلىٰ مكة ولم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمة فتزوج معانة ابنته وولدت له نزارا [٦] وساء أمر جرهم بمكة وظلموا الوافدين واستحلوا مال الكعبة في عهد مضاض بن عمرو بن الحارث (وهو غير مضاض بن عمروبن يعرب بن قحطان الجرهمي)

---

(٤)المصدر السابق وابن هشام.

(٥)نسبة إلىٰ فران بن بليّ بن عمرو (صفة جزيرة العرب للهمداني طبعة ليدن لسنة ١٨٨٣ ص ١٧٠، كتاب الإعلام ببيت الله الحرام طبعة ليبسيك لسنة ١٨٥٧ ص ٨.

(٦)رحمة العالمين ٢\٤٨.

الأمر الذي أثار حفيظة العدنانيين ولما نزلت خزاعة بمر الظهران تحالف العدنانيون وخزاعة وأجلوا جرهم عن مكة إلا أن مضاض بن عمرو بن الحارث (آخر الجراهمة الذين تولوا مكة والكعبة) كان قد قام بتعميق حفر زمزم وأخفىٰ في بئر زمزم غزالتين من ذهب مع طائفة كبيرة من الذهب داخل الكعبة فخرج ومعه بنو إسماعيل من مكة.

(٣) واستولت خزاعة علىٰ حكم مكة في أواسط القرن الأول للميلاد (٧) واستمرت ولاية خزاعة علىٰ مكة اربعمائة سنة (٨) من ٤٠ م حتىٰ ٤٤٠ م

فلما طال بهم الزمن نسوا حظا مما ذكروا به علىٰ الرغم من بقاء الموحدين فيهم، وقد كان عمرو بن لحىٰ، كبير خزاعة، كثير الأسفار والتجارة بالشام، فاستحسن منهم التقرب إلىٰ الله بعبادة الأوثان، فالأمر إنما بدأ علىٰ هذا النسق إذ لما عاد وأتىٰ بهبل معه من الشام، قام بوضعه في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلىٰ التقرب إلىٰ الله به، فأجابوه، ولم يلبث باقي أهل الحجاز أن أجابوه واتبعوه لأنهم ولاة أهل البيت الحرام، ولما أتت القبائل للحج، طمعت في أصنام مثلها وكان عمرو بن لحىٰ قد رأىٰ رئيا من الجن الذىٰ أخبره بأصنام قوم نوح (ود وسواع ويغوث ونسر ويعوق) مدفونة بجدة، فاستثارها وأوردها تهامه ودفعها إلىٰ القبائل وذهبت بها، فأصبحوا ولكل قبيلة صنم سرعان ما عبدوها وتطورت الفوضىٰ فأصبح لكل بيت صنم، حتىٰ بلغت حين فتح مكة ثلاثمائة وستين صنما، هكذا صار الشرك وعبادة الأصنام دين أهل الجاهلية وهم لا يزالون يزعمون أنهم علىٰ دين إبراهيم فيقولون _كما ذكر عنهم_ القرآن الكريم قوله تعالىٰ «ما نعبدهم إلا ليقربونا لله زلفىٰ» وفىٰ قوله تعالىٰ من سورة يونس (الآيه١٨) «ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض، سبحانه وتعالىٰ عما يشركون» وهم في ذلك الوقت يعتقدون في بادئ الأمر أن عمرو بن لحىٰ قد ابتدع بدعة حسنة، كان آخر من ولي أمر مكة من خزاعة هو حليل بن حبشة الخزاعي ففي عام ٤٠٠ ميلادية ولد لكلاب بن مرة (وهو الجد الخامس لرسول الله) ولد له ممن اختارها الله له فاطمة بنت سعد بن سيل بن عوف بن عامر (ولقبه الجادر فقد كان أول من بنىٰ جدارا للكعبة) – ولدان الأول هو زهرة والثاني– بعد مدة طويلة –ولد له ولداً أسماه زيداً وهو

(٧)قلب جزيرة العرب ص ٢٣١.

(٨)معجم البلدان لياقوت – مادة مكة.

لايزال رضيعـاً، توفي كلاب بن مرة بعدها، فتزوجت فاطمة أرملته من ربيعة بن حرام فرحل بفاطمة إلىٰ الشام وأطلق المكيون علىٰ زيد لقب قصي الذي عرف به (لأنه أصبح قصيا أي بعيدا في الشام) وحينما كبر آثر أن يعود لمكة وكانت سدانة البيت لحليل بن حبشة الخزاعي ولما تزوج قصي من ابنته حبَىٰ بنت حليل بن حبشة، استمر في التجارة وزادت أمواله وأولاده وشرف بين قومه (٩)

لما مات حليل أوصىٰ بمفتاح الكعبة لابنته حبىٰ فأعطته لأخيها أبي غبشان الذىٰ باع حقه في مفتاح البيت الحرام من أجل زق خمر لقصي (١٠) ولما عرفت خزاعة ذلك، نازعوا قصيا علىٰ مفتاح البيت الحرام فكتب قصيا إلىٰ أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام يدعوه لنصرته، جاء رزاح بن ربيعة بن حرام ومن معه من قضاعة إلىٰ مكة، وأتىٰ قصىٰ بمن معه من قومه كنانة ومن قضاعة واقتتلوا مع خزاعة وبنو بكر ثم تداعوا إلىٰ الصلح وحكموا بينهم يعمر بن عوف بن كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة الذي حكم بأحقية قصىٰ بالبيت مع دفع فدية للقتلىٰ وكل دم أصابه قصي منهم موضوع بشدخه تحت قدميه وسمي يعمر بعدها الشداخ ونفي خزاعة وبنو بكر من مكة (١١)

(٤) وبذلك تولىٰ قصي أمرالكعبة ومكة بلا منازع عام ٤٤٠ ميلادية (١٢) وعاد أمرها لابناء إسماعيل وتركزت في قريش بعدها (بعد غياب استمر واحد وعشرون قرنا) من مآثر قصي أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة، وجعل بابها الىٰ المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل علىٰ قريش، لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنىٰ، وكان لقصي حكم مكة كلها فبدل أمور عدة كما سيلي.

لم تكن جرهم ولا خزاعة تجيزان أن يبنىٰ بناء إلىٰ جوار الكعبة تعظيما لها، وكان القاطنون في هذه المنطقة يسكنون خارجها، ولما فرغ قصي من نفي خزاعة وبني بكر من

(٩)مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٢.
(١٠)رحمة العلمين ٢م٥٥.
(١١)بن هشام ١\١٢٣-١٢٤.
(١٢)المصدر السابق ١\١٢٤-١٢٥.

مكة تجمع (تقرش) [(١٣)] إليه أهله من بني إسماعيل فكان ما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم الىٰ مكة وسمي مجمعاً، وقطعهما أرباعاً بين قومه وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي اصبحوا عليها وأدخل بطون قريش كلها الأبطح فسموا قريش البطحاء وكان خزيمة بن مدركة هو أول من نزل مكة من قبيلة مضر، وكان أول ما فعله خزيمة بن مدركة هو وضع صنما لهبل في موضعه، فكان يقال له (صنم خزيمة) [(١٤)] وأقر قصي النسأة وآل صفوان، وعدوان ومرة بن عوف علىٰ ما كانوا علية من المناصب لأنه كان يراه دَيناً في نفسه لا ينبغي تغييره[(١٥)]

من مآثر قصي أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة، وجعل بابها الىٰ المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل علىٰ قريش، لأنها ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنىٰ.

وكان لقصي حكم مكة كلها ومن مظاهر الرياسة والتشريف:

١. رياسة (دار الندوة) التي بناها قصي ففيها كانوا يتشاورون تحت إمرته فيما نزل بهم من جسام الأمور، ويزوجون فيها بناتهم، ولا تخرج العير للتجارة إلا منها، ولا يعودون إلا إليها، ولا يتخذ قرار يخص تلك المدينة الأرستقراطية إلا فيها، بما يضمن اجتماع الكلمة فكانت أشبه بالبرلمان في عصرنا الحالي.
٢. اللواء فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيد قصي وكانت أشبه بوزارة الدفاع
٣. الحجابة وهي حجابة الكعبة، لا يفتح بابها إلا قصي، وهو الذي يلي أمر خدمتها وسدانتها، وهي تمثل السلطة الدينية
٤. سقاية الحاج وهي أنهم كانوا يملؤون للحجاج حياضاً من الماء، يحلونها بالتمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة.
٥. رفادة الحاج وهي طعام كان يصنع للحاج علىٰ طريقة الضيافة وكان قصي قد فرض علىٰ قريش خرجاً تخرجه في الموسم من أموالها الىٰ قصي، فيضع به

(١٣)الطبقات الكبير لمحمد بن سعد بن منيح الزهري (طبعة مكتبة الأسرة) ص ٥١.
(١٤)الطبقات الكبير لمحمد بن سعد بن منيح الزهري (طبعة مكتبة الأسرة) ص ٥١.
(١٥) بن هشام ١\١٢٤-١٢٥.

طعاماً للحاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وهكذا أصبح لقصي وحده السلطة العليا كشبه ملك في شبه دويلة، شبه ديمقراطية، لها سمات المجتمع الأرستقراطي، مصدر رزقها السياحة الدينية والتجارة.

وقد ولد لقصي بن كلاب من حبىٰ بنت حليل الخزاعية وهي اختيار الله كل ابناؤه وهم: عبد الدار، وكان بكره، وعبد مناف (واسمه المغيرة) وعبد العزىٰ، وعبد بن قصي (والذي أسماه الناس عبد قصي) وتخمر، وبرة [١٦]

٤-الصراع الثاني ودار بين (ابناء قصًي) حول الكعبة والسيادة على مكة

كان عبد مناف (المغيرة) بن قصي (٤٧٢ ميلادية) قد شرف وساد في حياة قصي، ولكن عبد الدار كان بكر قصي فقال له قصي: لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك فأوصىٰ له بما كان يليه من مصالح قريش فأعطىٰ عبد الدار دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شئ صنعة.

كان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبع، ولما هلك عبد الدار أقام بنوه الأمر فلا نزاع بينهم أما ابناء عبد مناف فبعد أن هلك أبوهم، نافس ابناؤه بني عمهم عبد الدار في المناصب التي استبقاها عبد الدار لأبنائه.

افترقت قريش فرقتين إذ أن هاشما وعبد شمس والمطلب ونوفل ابناء عبد مناف بن قصي أجمعوا علىٰ أن يأخذوا ما بأيدي ابناء بني عمهم عبد الدار بن قصي ورأوا أنهم أحق به منهم لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم وقام بهذا هاشم، فأبىٰ بنو عبد الدار فتزعم بنو عبد مناف: عمرو (هاشم) بن عبد مناف بن قصي وكان عبد مناف بن قصي قد أنجب ستة نفر، وست نسوة فمن زوجته:

عاتكة الكبرىٰ بنت مرة بن هلال المضري وهي اختيار الله فولدت له:

- المطلب وكان أكبرهم وهو الذي عقد الحلف مع النجاشي لتجارة قريش.

(١٦) كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد بن منيح الزهري (طبعة مكتبة الأسرة) ص ٥١ - عن كتاب جمهرة النسب ج ١ ص ٢٦.

- عمرو (هاشم) وهو الذي عقد حلفا لقريش مع إمبراطور الروم للتجارة وهو أول من سن الرحلتين (الشتاء والصيف) لقريش.
- عبد شمس وآباؤه هم من نازعوا هاشماً فيما تلىٰ.
- تماضر، وحية وقلابة وبرة وهالة بنات عبد مناف.

ومن واقدة بنت أبي عدي:

- نوفل، وهو الذي عقد الحلف بين قريش وكسرىٰ وأبو عمرو وأبو عبيد درج

ومن الثقيفة:

- ريطة التي تزوجت هلال بن معيط من بني كنانة بن خزيمة.

لما ثار النزاع ٥٧٣م دعا الزبير بن عبد المطلب قومه كان مع بني عبد مناف بن قصي بني هاشم، وبني أسد بن عبد العزىٰ بن قصي وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة وبني الحارث بن فهر، الذين أخرجوا جفنة مملوءة طيبا وتحالفوا حول الكعبة بعد أن غمسوا أيديهم في الجفنة وسُموا المطيبون [١٧] وصار مع بني عبد الدار بني مخزوم وسهم وجُمح وبني عدي بن كعب فأخرجوا جفنة مملوءة بالدماء وغمسوا أيديهم فيها فسُموا الأحلاف ولعقة الدم. وكاد يكون بينهم قتال، إلا أنهم تداعوا الىٰ الصلح، واقتسموا هذه المناصب فصارت [١٨] :السقاية والرفادة إلىٰ بني عبد مناف، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بني عبد الدار. وبذلك اقتسم ابناء قصي مناصب التشريف للكعبة بين ابناء عبد مناف وعبد الدار.

٥- الصراع الثالث بين ابناء عبد مناف بن قصي حول مناصب الكعبة والسيادة على مكة (٤٨٤ م)

بعد هذا الاتفاق في جعل السقاية والرفادة في بني عبد مناف، تولاها هاشم كبيرهم إذ كان ذا يسار ودعا قومه إلىٰ مثل ما دعاهم إليه جده قصّي في أن يخرج كل منهم من ماله ما ينفقه هو علىٰ الرفادة والسقاية لإكرام ضيوف البيت لأنه لما أصابت قريشا سنوات الجدب

---

(١٧)النويري نقلا عن بن سعد.

(١٨) بن هشام – والنويري – منقول عن بن سعد من كتاب الطبقات الكبرىٰ (لمحمد بن سعد بن منيع الزهري).

ذهبت بالأموال فخرج عمرو (هاشم) إلىٰ الشام فأمر هناك بخبز كثير وحمله علىٰ الإبل حتىٰ وصل به إلىٰ مكة وهشم الخبز (ولقب هاشما منذ ذاك) وثرده ونحر الإبل فأشبع أهل مكة، فزادت مكانته عند اهلها فحسده بن ابن عمه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، ظل هاشم تتقدم به السن وهو في مكانته منذ (سنة ٤٨٤ م) أما أمية بن أخيه عبد شمس فقد كان ثريا وحاول أن يكسب قلوب المكيين بمثل ما فعله هاشم وعجز عنه، وخيل إليه أنه قد بلغ مكانا يسوغ له المنافسة فدعا هاشما إلىٰ المنافرة (المصارعة) وكان أكثر شبابا من عمه هاشم فكره هاشم ذلك لسنه وقدره فاحتكما إلىٰ راهب خزاعي الذىٰ حكم بأن ينحر هاشما خمسين ناقة إضافية ببطن مكة علىٰ أن يخرج أمية من مكة لعشر سنين إلىٰ الشام ويقيم بها فقل مال هاشم اكثر وأكثر نتيجة هذا الحكم ولتوليه مناصبه رغم تسيده علىٰ مكة فكان هو الذي يلي السقاية والرفادة طول حياته وزاد مال أمية أكثر وأكثر لهجرته لبلاد الشام وكانت أول العداوة بين هاشم وأمية(١٩)

كان هاشم يعمل بالتجارة، وعقب إحدىٰ رحلاته التجارية بالشام مر علىٰ يثرب ورأىٰ امرأة ذات جمال وشرف وحسب ونسب تطل علىٰ قوم يتجرون لها وهي: (سلمىٰ بنت عمرو الخزرجية) ولما عرف أنها مطلقة ولا ترضىٰ زوجا إلا أن تكون عصمتها بيدها خطبها ورضيت لعلمها بمكانته بين قومه وكانت بدورها من اختيار الله، فأقامت في مكة، ولما حملت ذهبت ليثرب لتضع مولودها وقد ولد وفي رأسه شيبة فأسمته شيبة الحمد (الذي عرف بعبد المطلب عام ٤٩٥ م) وبعد ذلك أنجبت له بنتا أسمتها رقية وماتت وهي جارية.

كان هاشم قد أنجب من (قيلة بنت عامر الخزاعية) مولودا اسمه أسد كان يكنىٰ به، ومن (هند بنت عمرو الخزرجية- وهي أخت سلمىٰ) أبا صيفي واسمه (عمرو) وهو أكبر أولاده، وصيفي ومن (أميمة بنت عدي القضاعية) ثلاث بنات وهن نضلة والشفاء ورقية، ومن (واقدة بنت أبي عدي) بنتين وهن الضعيفة وخالدة ومن (عُدىٰ بنت حبيب بن الحارث) بنت واحدة وهي حية. وهكذا كان له من ابنائه اربعة ذكور ولما مات هاشم أثناء

(١٩)سوف نرىٰ كيف تطورت الأمور بين بني هاشم وبني أمية إلىٰ حد إنكار رسالة التوحيد علىٰ خلفية هذا الصراع، ثم الصراع المرير علىٰ الخلافة فمثلت الخلافة الأموية عبد شمس، ومثلت الخلافة العباسية هاشم، كما لم تغب هذه الخلفية في الصراع بخلافتي عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

إحدىٰ رحلاته التجارية بالشام، دفن في غزة بفلسطين فخلفه أخوه المطلب في مناصبه وكانت قريش تسميه (الفيض) الذي كان أصغر من عبد شمس، وكان ذلك لشرفه بين قومه ولانعدام أطماعه باستبقاء المناصب في ولده مثلما فكر ابناء عبد شمس ونوفل نفسه فيما بعد.

٦- الصراع الرابع - وهو الثاني - بين ابناء عبد مناف حول الكعبة

لما مات هاشم خلفه أخوه الأكبر المطلب بن عبد المناف) الفيض (إذ كان الفيض شديد الإخلاص لما تولاه ولهاشم بعد مماته، وبالطبع كان عليه أن يأت بابنه شيبة الحمد من يثرب فذهب وطلب إلىٰ سلمىٰ أرملة هاشم أن تدفع إليه الفتىٰ شيبة وقد بلغ أشده وقد تعلم الرماية والفروسية وفنون القتال إذ كان شابا قويا، وقد رأت في ذلك شرفا لا يدانيه شرف إذ أنه قد يتبوأ مناصب أبيه يوما ما، فوافقته بعد تردد، وهكذا أردفه المطلب إلىٰ بعيره ودخل به مكة، فظنته قريش عبدا له أتىٰ به من يثرب فتصايحت قريش: هذا عبد المطلب، فقال المطلب: ويحكم، هو بن أخي هاشم قدمت به من يثرب إلا أن هذا اللقب غلب علىٰ الفتىٰ فصار يعرف به ونسي الناس اسم شيبة الحمد وُدعي (عبد المطلب) [٢٠]

لما أحس المطلب بدنو أجله بعد سنوات، أراد أن يرد مناصب هاشم التي تولاها إلىٰ ابن أخيه، ولما هلك، تولىٰ عبد المطلب (٥٣٥م) فأقام لقومها كما كان آباؤه يقيمون لقومهم، ولقد شرف عبد المطلب في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم[٢١] لكن نوفل بن عبد مناف (شقيق هاشم، عم عبد المطلب) أبىٰ ووضع يده عليها، فسأل عبد المطلب قريش النصرة فرفضوا أن يدخلوا بينه وبين عمه فارسل إلىٰ أخواله من بني النجار في يثرب لنصرته، وعلىٰ الفور أقبل خاله أبو سعد بن عدي في ثمانين فارسا من الخزرج لنصرته، فاضطر نوفل إلىٰ رد ماله إليه فلما جرىٰ ذلك حالف نوفل بني عبد شمس الموتورين من الهاشميين ولما رأت خزاعة ذلك قالت لبني النجار «نحن ولدناه

(٢٠)من كتاب حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل (الطبعة الخامسة) ص١١٦.

(٢١)ابن هشام ١\١٣٧، ١٣٨.

كما ولدتموه فنحن أحق بنصره» ودخلوا دار الندوة وحالفوا بني[٢٢] هاشم، وهكذا ولي عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي جد رسول الله ﷺ السقاية والرفادة من بعد عمه المطلب إلا أن الحق الذي استرده يحتاج إلىٰ قدرات، والقدرات تستدعي الوسائل، والوسائل لم تكن في حوزته مهما أخلص العمل وبذل الجهد فلا مال يكفي ولا بنون سوىٰ ابنه الحارث، وما ورثه عن أبيه لم يكن ليكفي سد احتياجات السقاية والرفادة، فإن كانت الرفادة وهي طعام يصنع للحجاج علىٰ طريقة الضيافة عمل شبه مقضي إذ كان قصي قد فرض علىٰ قريش خرجاً تخرجه في المواسم من أموالها الىٰ قصي (وبالتالي إلىٰ كل من يقوم بمسؤولية الرفادة) فيضع به طعاماً للحاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، فإن كان أمر الرفادة شبه مقضىٰ، فالسقاية احتاجت إلىٰ المال، فقد كانوا يملؤون للحجاج حياضاً من الماء، يحلونها بالتمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة، وأنىٰ له المال لذلك والجهد في بناء أحواض الماء واستجلابه من الآبار وأنىٰ له بالتحلية بالتمر والزبيب؟ كان يعوزه المال لكل ذلك فليس ثريا بعدما ورث القليل من تركه هاشم له، وقد كان عبد المطلب يعلم علم اليقين بإمكانية في الحصول علىٰ الماء من بئر زمزم، لأن العرب ما تفتأ تذكر زمزم التي طمرها مضاض بن عمرو منذ قرون خلت ذلك بعد انتهاء ولاية الجراهمة علىٰ الكعبة، كان عبد المطلب يعلم يقينا ان البئر جد قريبة من الكعبة وألح الرجاء به كثيرا حتىٰ أتاه هاتف في منامه يحضه علىٰ البحث عنها واهتدىٰ إليها بين الوثنين إساف ونائلة (وهي تبعد١٤.٥ مترا من الكعبة) وجعل يحفر مستعينا بابنه الوحيد الحارث، حتىٰ إذا ما بدأ الماء ينبع من جديد، ظهر ما كان يجهله هو وتجهله قريش، إذ وجد غزالتا الذهب وأسياف مضاض الذهبية، وتجمع القرشيون حوله وتكاثروا عليه ليشاركوه في الكنز الذي وجد وهم الذين لم يشاركوه الحفر فلم تكن له ولاية عليهم كولاية جده قُصَيٍ، ولما غُلب علىٰ أمره لجأ إلىٰ عادات العرب التي تحتكم إلىٰ ضرب القداح عليها فاستعانوا بصاحب القداح الذي ضربها في جوف الكعبة عند صنم هُبل فتخلف قدحا قريش، وخرجت الأسياف لعبد المطلب والغزالتان للكعبة، فضرب عبد المطلب الأسياف علىٰ باب الكعبة، وضرب في الباب غزالتي الذهب حلية للبيت الحرام، وتمكن عبد المطلب بعدها من القيام بواجباته في سقاية الحجيج بعد أن يسرتها له زمزم، لكن عبد المطلب أيقن بعد هذه الحادثة

(٢٢)مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص٤١-٤٢ (الحلف صار سببا لفتح مكة كما سيأتي).

من قلة حيلته في قومه لقله أولاده، وإن كانت زمزم قد أمكنته من الإبقاء علىٰ بعض ماله الخاص من تجارته، فقد رأىٰ والحال علىٰ ماهي عليه أن يتزوج نساء أخريات غير صفية بنت جُنيدب بن حُجير التي لم تنجب له سوي الحارث ونذر نذراً غريبا لئن رزقه الله عشرة بنين ثم بلغوا معه أن يمنعوه مثل ما لاقىٰ حين حفر زمزم لينحرن أحدهم عند الكعبة، فتزوج: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي (وهي جدة رسول الله ومن إختيار الله) فأنجبت له تسعا، خمس بنات وأربع ذكور وهم الزبير وكان شاعرا شريفا وإليه أوصىٰ عبد المطلب، وعبد مناف (وهو أبو طالب) وعبد الكعبة وقد مات ولم يعقب، وعبد الله أبا رسول الله وتزوج لُبنىٰ (أوآمنة) بنت هاجر بن عبد مناف بن ضاطر الخزاعية فأنجبت له عبد العزىٰ وكناه عبد المطلب (أبا لهب) لحسنه وجماله وشدة بياضه وكأن لهباً يشع منه، وتزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب وامها العَيِلة بنت عبد المطلب فأنجبت له صفية، والمقوم، والمغيرة (ولقبه حجلا) وأصغرهم حمزة (وكنيته أسد الله) وشهد بدرا واستشهد في أحد. وتزوج نُتيلة بنت جناب بن كليب وأنجبت له ضرارا ومات أيام الوحي الأولىٰ لرسول الله ﷺ وقثم ولا عقب له، والعباس وكان شريفا عاقلا ومهيبا. وتزوج ممنعة بنت عمرو بن مالك الخزاعية وأنجبت له مصعب ولقبه الغيداق. وبعد أن رزقه الله بهذا العدد من الابناء ، بقي علىٰ عبد المطلب أن يفي بنذره.

عهود تولي أمر الكعبة

* آل اسماعيل من ١٧٣٥ -١٦٠٠ ق . م * جرهم من١٥٨٠ق.م – ١٣٩ م * خزاعة من ١٤٠م – ٤٤٠ م * قصي من ٤٤٠ – ٤٧٢م *هاشم ٤٨٥ –٥٣٥م * عبد الطلب ٥٣٥ – ٥٧٨م *– أبو طالب ٥٧٨ – ٦١٣م

٧- (ثاني الذبيحين) عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن قصي:

نرىٰ جميعنا في حياتنا تجربة كتلك التي عايشها عبد المطلب، وأغلبنا تكون ردة فعله برجائه إلىٰ الله مشابهة (بدرجات أقل كثيرا) لما نذر به عبد المطلب، فمن يأسه واستعجاله العزوة من البنين، قام بما يشبه المقايضة مع الله في صورة نذر بذبح أحد أبنائه للكعبة وربما

لا يخطر ببال أحد منا أن يذهب إلىٰ هذا المدىٰ فقد تجاوز عبد المطلب المعهود من النذور، وهذا التجاوز إنما يعكس مدىٰ إحباطه من قلة الحيلة فكما قلنا من أن الحق الذي استرده يحتاج إلىٰ قدرات، والقدرات تستدعي الوسائل، والوسائل لم تكن في حوزته، فطمع في وفرة الوسيلة للحصول علىٰ القدرة مهما كلفه ذلك من الأمر والفداء، ربما لم يكن يدرك من أنه علىٰ الله هين وهي بالتأكيد صورة من صور النقص في الإيمان بالله، وأنىٰ له الإيمان من الأصل وقد أفسد أجداده علىٰ تعاقب الأزمان بعيدا عن دين إبراهيم وكان عليه أن يفي بالنذر لئن رزقه الله عشرة بنين ثم بلغوا معه أن يمنعوه مثلما لاقىٰ حين حفر زمزم لينحرن أحدهم عند الكعبة.

لما أتم الله لعبد المطلب ما سأل (٥٤٥م) أحصىٰ أولاده الذكور ففاقوا العدد المطلوب ولكن من بلغ منهم أن يمنعوه ما لاقىٰ حين حفر زمزم قد بلغوا عشرة، فلا مناص إذن من إيفاء النذر، فكتب أسماءهم في القداح، وأعطىٰ القداح قيم هبل، فضرب القداح وخرج القداح علىٰ عبد الله أعفهم، وأحبهم إليه، وهو الذبيح المنتظر، وامتثل عبد المطلب بقلب منفطر علىٰ فلذة كبده لِما نذر، وأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة ثم أقبل به إلىٰ الكعبة ليذبحه بين إساف ونائلة قرب زمزم، والفتىٰ مذهول، وإن لم يكن راضياً بالموت ذبحا علىٰ يد أبيه وهاجت قريش من أنديتها تُهيب به ألا يفعل، وهاج أخوال الفتىٰ من بني مخزوم، وتوسل إليه ابنه (أبوطالب) وتردد عبد المطلب فهو مثلهم نادما علىٰ النذر الذي حبس نفسه فيه وقال لهم: فكيف أصنع بنذري؟ قال له المغيرة بن عبد الله المخزومي: إن كان فداؤه بأموالنا فديناه، وقالت قريش: والله لا ندعك تذبحه أبدا حتىٰ تعذر فيه، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتي بابنه حتىٰ يذبحه وقال بنوه: لا تفعل، وانطلق إلىٰ كاهنة بالحجر في يثرب فسلها، فإن امرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بمالك وله فيه فرج قبلته، جاءوا إلىٰ العرافة فاستمهلتهم للغد وفي اليوم التالي سألتهم: كم الدية فيكم، فقالوا عشر من الإبل، قالت: فارجعوا إلىٰ بلادكم وقربوا عشرا من الإبل ثم اضربوا عليها القداح فإن خرجت علىٰ صاحبكم فزيدوا حتىٰ يرضىٰ ربكم، فعادوا إلىٰ مكة وفعلوا ما أشارت عشر مرات حتىٰ بلغت مائة فافتدوه بها، [٢٣] وأجل قدر عبد الله للوفاء بالمطلوب منه.

(٢٣)الأحداث المذكورة قد جمعت بتصرف من طبقات بن سعد – إحياء علوم الدين للغزالي – الرحيق المختوم للمباركفوري –بن هشام –حياة محمد لهيكل – (محمد) لمحمد رضا –مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب النجدي والطبري

٨- زواج عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن قصي ووفاته:

يسبب الله الأسباب فيخلقنا لغرض، ويبقي علىٰ حياتنا حتىٰ ننجز ما اختارنا الله له فهو القادر والقاهر فوق عباده ومِن البشر مَن يسائل نفسه عن سبب وجوده، لكنه لا يهتدي ولا يعلم لكن الله يعلم، فكل الكائنات قد خلقت لغرض ما حتىٰ لو كان هذا الغرض أهون من أن يُذكر فربما لا يُذكر، لكن الغرض موجود عند الله العليم إن الحياة منظومة إلهية محكومة ليس علينا أولنا أن نعلم إلا إن أراد لنا الله أن نعلم إلا أننا ندرك إن بعدت الصورة عنا عبر الاستنتاجات والدلائل التاريخية لماذا ولد فلانٌ ومن تزوج أو أنجب، ومتىٰ انتهىٰ دوره فيوفي ما هو مكتوب عليه إنجازه في الحياة فيغادرها ويتوفاه الله وينسحب هذا الأمر الإلهي علىٰ البشر والمخلوقات كلها بلا استثناء وعبد الله الذي نتحدث الآن عنه مثل واضح لتلك الإرادة الإلهية وبعد نجاة عبد الله بن عبد المطلب، من الذبح إيفاءًا للنذر، فرح عبد المطلب فرحا غامراً، إذ كان عبد الله أصغر العشرة وأعفهم، وأحبهم إليه وكان وسيما جميل الطلعة لفت بها النظر منذ صباه وكان حديث الفداء قد زاد من شهرته وإعجاب الناس به، فاختار عبد المطلب (٥٦٩م) لولده آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة (وكان زهرة يومئذ سيد بني زهرة) بن كلاب وتلتقي مع عبد الله في الجد الثالث كلاب، وكانت في حجر عمها وهيب، ولم يجد وهيب ولا زهرة أشرف من هذا النسب القرشي العريق واستبشروا بثاني الذبيحين خيراً، فكان الخيار الإلهي الأخير لنسب رسول الله فتزوج عبد الله الذي أعده الله لهذه المهمة من آمنه التي أعدها الله كذلك لنفس المهمة وبعد الزواج بقليل وخرج عبد الله بعد أشهر من زواجه في تجارته من مكة قاصدا الشام في عير قريش تاركا آمنة بنت وهب حبلىٰ، وفي طريق عودته من الشام آتاه الله مرضاً قرب يثرب (المدينة) وبها أخواله من بني النجار فأقام عندهم شهرًا قبل أن تنتهي مهمته في الحياة، ومات بيثرب وكان عبد المطلب قد أرسل أكبر أولاده الحارث وقت علمه بمرض عبد الله ولما وصل الحارث يثرب وجد عبد الله قد فارق الحياة فدفنه في دار النابغة وهو بن خمس وعشرون سنة عام ٥٧٠ ميلادية وقبل واقعة الفيل بأشهر معدودة ولم يكن عبد الله قد تزوج قبل هذه الزيجة، ولا كانت آمنه متزوجة قبل عبد الله ولا تزوجت بعده وكتب علىٰ المولود أن يكون

وحيدا فقد كانت له مهمه عليه أن يؤديها ولما وافاها توفاه الله وترك عبد الله تركة صغيرة فلم يكن قد بدأ حياته العملية إلا منذ زمن جد قصير ولم تكن تلك التركة إلا جارية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن وكانت حبشية وخمسة جمال، وقطعة واحدة من الغنم.

٩-أصحاب الفيل:

قلنا من قبل أن الله يسبب الأسباب فيخلقنا لغرض ويبقي علىٰ حياتنا حتىٰ ننجز ما اختارنا الله له، فهو القادر والقاهر فوق عباده، ولاستكمال هذه الرؤية علينا أن نذكر أيضا أن الله سبحانه وتعالىٰ يجعلنا نأتي بأفعال تدلنا عليها عقولنا حميدة أو غير حميدة علينا القيام بها لخدمة المنظومة الإيمانية التي أوجبها الله لتكون هذه الأعمال والأفعال مثلاً وتصبح للعالمين عبرة يعتبرون بها أو لإثبات حقيقة إما نعلمها فنبلغ بها اليقين، أو غائبة عنا فنتعلمها ففي سنة٥٢٣م قاد ذو نواس الحميري -الذي اعتنق اليهودية- حملة منكرة علىٰ المسيحيين من أهل نجران بما تعلمه من توراة بني إسرائيل من إبادة لمن ليسوا علىٰ دينه، إذ حاول صرفهم عن المسيحية قسراً ولما أبوا خدَ لهم الأخدود وألقاهم في النيران وتقول بعض المصادر أن عدد القتلىٰ تراوح بين عشرين إلي أربعين ألفا من المسيحيين(٢٤) وهذا الذي أشار إلية القرآن الكريم في سورة البروج بقوله تعالىٰ (قتل أصحاب الأخدود)

وكان من جراء تلك المذبحة البشعة نقمة النصرانية الناشطة الىٰ الفتح والتوسع ونشر المسيحية بحد السيف تحت قيادة جستنيان إمبراطور الرومان علىٰ بلاد العرب، فقد حرضوا الأحباش، وهيأوا لهم الأسطول البحري، فنزل سبعون ألف جندي من الحبشة، واحتلوا اليمن مرة ثانيه دفاعا عن المسيحية ولضمان عدم تكرار مذبحة الأخدود بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م، وظل أرياط حاكماً من قبل النجاشي ملك الحبشة حتىٰ اغتاله أبرهة أحد قواد جيشة الطموحين للحكم والمجد وحكم بدلا عنه بعد أن استرضىٰ ملك الحبشة، وكان أثناء صراعه مع أرياط قد جرح جرحا غائرا في وجهه ظلت آثاره عليه طوال حياته فسمي إبرهة بن صباح الأشرم ونجح ابرهة في تثبيت المسيحية في اليمن نجاحا جعل

(٢٤)تفهيم القرآن ٦\٢٩٧، ٢٩٨ _ بن هشام ١\ ٢٠ -٢٣، ٢٧، ٣١، ٣٥، ٣٧

النجاشي[٢٥] ملك الحبشة يرضىٰ عنه ثم طمح أن يحمل العرب علىٰ اعتناق المسيحية، فقد زحف كسرىٰ الأول علىٰ سوريا وأنطاكية التي هدمها ما عدا كنيستها وفي عام ٥٤٣ أدىٰ له إمبراطور الروم (جستنيان) الجزية علىٰ أن تقف الحرب خمسين عاما ونزل عن حقه في بلاد القوقاز والبحر الأسود لصالح كسرىٰ الذي ولد في زمانه رسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وفي عهده كان عام الفيل عام ٥٧٠ م وكان علىٰ أبرهة المسيحي بسط النفوذ الروماني كتكملة للصراع بين الدول العظمىٰ في ذلك الزمان وتطويق الفرس بالنفوذ الروماني وعلم أن الغساسنة أقاموا كنيسة بالحيرة زينوها وشجعوا العرب علىٰ الصلاة فيها، تحمس أبرهة حتىٰ ينسب نشر المسيحية لنفسه فيؤكد مكانته فبنىٰ كنيسة عظيمة بصنعاء بجوار غمدان أسماها القُلّيس وقد عنىٰ أبرهة بزخرفة القليس بالرخام وجيد الخشب المذهب وجلب له من فاخر الأثاث ودعا العرب إلىٰ ترك الكعبة والصلاة بكنيسته، وكان بها تمثالا لرجل مصلوب قيل أنه هو الله وامرأة قيل أنها أم الله وهي تماثيل لإلهين يجب عبادتهما، ولما تحدث العرب بأمرها غضب رجل من بني كنانة من سكان مكة وكان اسمه حذيفة [٢٦] فخرج حتىٰ وصل القليس وتغوط فيها ليلا وعاد لموطنه بمكة

ولما علم أبرهة ذلك أقسم لينتقمن لكنيسته من أولئك العرب عبدة الأوثان وسيَر جيشا عرمرماً من ستين ألف جندي مسلحين بأعتىٰ ما وصلت إليه الحبشة من سلاح واستقدم منها ثلاثة عشر فيلا إفريقيا ضخما وكان واحد منهم الأشد في القوة والضخامة، وسمعت العرب بذلك فخافت العاقبة وعظم عليها أن يهدم البيت، وسواء كان هدف أبرهة خدمة دين الله أم بسط سيادته، فقد تم له إعداد الجيش، فهب رجل عربي وكان من أشراف اليمن وملوك أحد مقاطعاتها يقال له ذو نَفَر، ويبدو أن هذا العربي الأبي كان اسمه علىٰ مسمىٰ، فاستنفر قومه وكل من أجابه من القبائل العربية لمقاتلة أبرهة دفاعا عن البيت، ولكن أبرهة أباد جيش ذا النفر الذي أعد علىٰ عجالة، وأسر الملك اليمني ذا نفر لديه، ولما فشلت تلك المحاولة في المقاومة، قام بطل آخر وهو نفيل بن حبيب الخثعمي وجمع قومه

(٢٥)النجاشي هو لقب كان يطلق علىٰ ملوك الحبشة وليس هو النجاشي الذي سنتحدث عنه فيما تلي الأحداث
(٢٦)هو: حذيفة بن عبد الله بن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر- وهو من آل إسماعيل باني البيت مع إبراهيم عليهما السلام - فخرج حتىٰ وصل القليس وتغوط فيها ليلا وعاد لمكة.

من قبيلتي شهران وناهس فكان المصير هو نفس المصير السابق، إلا أن نفيلا الخثعمي، آثر أن يصرف أبرهة بالحيلة والدهاء، فعرض أن يصبح دليل أبرهة إلىٰ مكة لهدم الكعبة، فضلله إلىٰ الطائف، ولما وصل أبرهة بجيشه للطائف كلمه أهل الطائف وأبلغوه أن ليس هذا هو البيت المقصود وإنما هو بيت اللات، ودلوه علىٰ مكة حيث توجد الكعبة المشرفة، فغادرهم إلىٰ اتجاه مكة (وهنا تظهر حقيقة أن أبرهة لم يكن يهدف إلىٰ القضاء علىٰ الأوثان، وإلا لهدم بيت اللات طالما قد وصلها، بل قد عادىٰ الكعبة لتعلق العرب بها) وواصل أبرهة المسير حتىٰ وصل للمغمس وهنالك عبأ جيشه، وهيأ أفياله -وهي أسلحته الضاربة- أرسل أبرهة أحد قواد جيشه فساق له أموال تِهامة من قريش وبينها مائة بعير لعبد المطلب بن هاشم، همت قريش ومن معهم من أهل مكة في المقاومة فبعث أبرهة رجلا عربيا من رجاله من حمير وهو حناطة الحميري برسالة فسأل عن سيد مكة، فذهبوا به إلىٰ عبد المطلب فأبلغه رسالة من أبرهة مفادها أنه لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم البيت فإن لم تحاربه مكة فلا حاجة له إلىٰ دماء أهلها، فلما سمع عبد المطلب (وكان قد تجاوز الخامسة والسبعين) هذا أبلغ حناطة أن أهل مكة أيضا لا يريدون حربــًا وأراد أن يلتقىٰ بأبرهة، فاصطحبه حناطة ومعه بعض أبنائه وبعض كبراء مكة إلىٰ أبرهة فلما رآه أبرهة أجله وأكبره وأكرم وفادته حتىٰ أنه لم يرض له أن يجلسه تحته، فنزل عن سريره وأجلسه علىٰ بساط أحمر وجلس إلىٰ جانبه، وسأله (ما حاجتك؟) فقال عبد المطلب (رُدَ عليَ إبلي) وأسقط في يد أبرهة وقال له (والله لقد أكبرتك حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني، تكلمني علىٰ إبلك وقد ظننت أنك تكلمني في بيتكم الذي هو شرفكم) رد عبد المطلب (اردد علي إبلي فأنا رب الإبل أما البيت فله رب يحميه) ورد أبرهة إبل عبد المطلب، وذهب عبد المطلب عائداً إلىٰ مكة وأمر الناس أن يخرجوا منها إلي الشعاب، وتوجه عبد المطلب إلىٰ الكعبة ومعه مطعم بن عدي، وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وأبو السعود الثقفي وأخذ حلقة باب الكعبة وجعل يدعو الله ويدعون، فلما انصرفوا وخلت مكة من من أهلها آن لأبرهة أن يدخل مكة ليهدم الكعبة، وربما كان لنا أن نحترم ذانَفَر، ونفيل بن حبيب الخثعمي ونغضب من موقف عبد المطلب خاصة حينما نعلم أن أهل مكة قد استعدوا للمقاومة إلا أن الله قد ألهم عبد المطلب فمارس تحمل المسؤولية وعبر عما يشعر به من قدسية بيت الله ووجوب حماية الله له وكان أن أوحىٰ الله إليه بوحي الانصياع

الذي أتىٰ أم موسىٰ فأطاعه أهل مكة مرغمين ساخطين وهم يشعرون بالتقصير في حق البيت، فسيَر أبرهة جيشه العرمرم والمكون من ستين ألفـًا من الجنود المسلحين بأعتىٰ ما وصلت إليه الحبشة من سلاح واكتظت مكة بهم وبأفياله الثلاثة عشر وعلىٰ رأسهم فيله الأكبر والأشد خطورة، وأبرهة أيضـًا علىٰ رأسهم وأهل مكة ينظرون من فوق جبال مكة وشعابها يبتهلون وكلهم رهبة مما سيحدث، ورجاءً ألا يحدث، لم تكن العرب من قبل قد رأت مثل هذا الحشد وإن تكن قد سمعت به، ولما بلغ أبرهة بأسلحته وادي محسر بين المزدلفة ومنىٰ، حدثت أولىٰ البركات الإلهية، إذ برك فيله الأكبر ولم تكن لتُهدم الكعبة إلا به ويعظم الرجاء عند أهل مكة فتوجه قائد الفيل ومدربه من جديد كي يُقدِم علىٰ ما يأمره به، ولم يقم الفيل فاحتاروا بعد جهد في أمره، وأعادوا الكرة مرات ومرات والفيل لا يبدي أي حراك حتىٰ فكر قائد الفيل ومدربه في توجيهه وجهة أخرىٰ غير وجهة الكعبة شمالا أو جنوبا شرقا أو غربا، وهنا كان الفيل يهرول في أي اتجاه غير الكعبة، فيصرفونه إلىٰ الكعبة، فيبرك في وضع السجود ولا يبدي أي حراك كل هذا أمام أعين أهل مكة ويعظم الرجاء في رب الكعبة أن يحميها، وفي الفيل ألا يفعل تكررت محاولات الجنود ولكن بضربه بالسياط ضربا مبرحا وبالسهام أيضا، والفيل لا يتحرك إلا كما أسلفنا، وأهل مكة ينظرون في عرفان ورجاء، فحمدوا رب الكعبة، وحمدوا للفيل صنيعه، وأطلقوا عليه اسما. فعرف بينهم به وكان منذ تلك الحادثة الفيل محمود، أما ما حسم الأمر فكانت المعجزة الإلهية الأشد دلالة علىٰ قدسية البيت العتيق، ففي أثناء ما كان يجري من محاولات لهدم البيت العتيق، أقبلت من السماء من ناحية البحر طيرُ، لم تر لها العرب من قبل مثيلاً، تحمل في منقارها حجرا وحجرين في رجليها وتكبر الحجارة عن دقة العدسة وتصغر عن الحمصة، تأخذ طريقها -وكأنها ذاهبة في مهمة قد كُلفت بها- صوب الجنود وقائدهم والأفيال فأصابت بالحجارة التي تحملها القوة الضاربة من الجنود وقائدهم وكل الأفيال فيما عدا الفيل محمود فتقذف الأحجار علىٰ أغلب الجيش وكل قذيفة لابد وأن تصيب ولا تصيب شيئا إلا قتلته أو أعطبته، فأهدمت تلك الحجارة الجيش العرمرم وولىٰ أبرهة معطوبا وفاراً علىٰ ظهر الفيل محمود الذي لم يصب بأذىٰ، وفر معه ما تبقىٰ من جنوده يموج بعضهم في بعض وتساقط أغلبهم وهم في طريقهم عائدين لليمن وجعل جسد أبرهة يسقط عضواً عضواً ووصل صنعاء مثل الفرخ ثم هلك هناك وتولىٰ ابنه يكسوم سنة ٥٧١ م بعده وأقبل أهل

مكة فرحين علىٰ عبد المطلب وقالوا له: (قد كنت تعلم) [٢٧] وهو في الحقيقة لم يكن يعلم -وإنما كان يأمل- ولم يكن قراره إلا ترتيب من الله.

١٠- أثر أصحاب الفيل على العالمين (التمهيد الإلهي للدين الجديد):

لم يكن تدبير الله لحادثة الفيل إلا للتمهيد، تمهيد العقول قبل القلوب كانت تلك الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي بخمسين يومـًا أو تزيد قليلا وأرَخ أهل مكة كل الأحداث بذكرىٰ هذا اليوم وذاك العام فصار يقال قبل الفيل أو بعد الفيل بعد أن كانت مكة تؤرَخ بموت قصي بن كلاب وحادث الفيل قد انتشرت أصداؤه في الجزيرة العربية شرقها وغربها، شمالها وجنوبها حتىٰ في اليمن فاستطاع سيف بن ذي يزن طرد الأحباش بمساعدة الفرس وزاد هذا الحدث الفذ من مكانة مكة الروحية والدينية في آن واحد وشعر المكيون بالاعتزاز والالتصاق بالبيت ونالت آلهة البيت نصيبا لا بأس به - من عدم الاكتراث والتوقير والاعتزاز فهي لم تنافح عن البيت دون أن ينتقص من هذه المكانة السامية التي وصلت إليها مكة وراجت التجارة وراجت السياحة الدينية وراجت مكة بفضل الكعبة وقدسيتها لدىٰ العرب الوثنيين وزاد الرخاء في مكة علىٰ أوسع صورة مما أدىٰ إلىٰ ظهور طبقات مترفة وزاد غرامهم بالخمر والنبيذ وكان من النتائج ازدياد أعداد الجواري والعبيد وخاصة من الأحباش وصاروا من ضمن متع الحياة المترفة الجديدة التي نعموا بها، وبدأت أسمارهم ومعاقراتهم للخمر بجوار الكعبة ويطل ثلاثمئة صنم أو أكثر عليهم، وانمحىٰ من مخيلة أي متأمل منهم أن تكون الديانات اليهودية أو النصرانية علىٰ صواب طالما بقيت أصنامهم حول الكعبة خاصة بعدما علموا بعبادة النصارىٰ لتمثال السيد المسيح عليه السلام في كنائسهم وصمَوا آذانهم عن كل دين غير ما يعبدون ولم لا وقد سمعوا منذ زمن بعيد من اليهود والنصارىٰ عن قوم لوط وكيف أمطر الله عليهم من سجيل حجارة [٢٨]

---

(٢٧)الأحداث المذكورة قد جمعت بتصرف من طبقات بن سعد – إحياء علوم الدين للغزالي – الرحيق الختوم للمباركفرىٰ –بن هشام –حياة محمد لهيكل – (محمد) لمحمد رضا –مختصر السيرة لمحمد بن عبد الوهاب النجدي – الطبري.

(٢٨)سورة الحجر الآية ٧٤ «وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل».

وعن قوم هود كذلك [٢٩] وقد رأوا بأعينهم تلك الحجارة تمطرها الطير من عند الله ترميهم بالحجارة التي جعلتهم كعصف مأكول [٣٠] علىٰ من تجرأ وحاول المساس ببيتهم العتيق والذي زاد عمره عن خمس وعشرين قرنا فهم إذن علىٰ صواب في كل ما يفعلون فلم تصبهم الحجارة والحقيقة أن أهل مكة المشركين كانوا في جاهلية ولم يفطنوا ولم يكونوا ليفطنوا إلىٰ حقائق الأمور، وأنىٰ لهم هذا، فلقد ألهم الله عبد المطلب أن يأمر أهل مكة ألا يصدوا أبرهة وزين ذلك القرار في قلبه فلو كان أهل مكة قد واجهوا الجيش ثم أتت الطير الأبابيل المأمورة بالذود عنه وانتقت من تصيب فقضت علىٰ جيش أبرهة لظنهم أنهم علىٰ حق في وثنيتهم ذلك أن طير الأبابيل هي تعضيد إلهي لهم في حين أن الله أرادها حماية للبيت العتيق وليس حماية للوثنية فكان ينبغي علىٰ أهل مكة الخروج من المعادلة حتىٰ تفهم المعجزة في نصابها لقد حمىٰ الله بيته، وكانت تلك الحادثة كشأن كل حوادث التاريخ العظمىٰ من تدبير الله جل وعلا من أولها لآخرها، فأبرهة قد يكون مسيحيا مخلصاً لله ولمسيحيته (والمسيحية هي دين الله وهي الدين الحق وآخر رسالة أنزلها الله حتىٰ ذلك الزمن) ومن واجبه نشر دين الله خاصة عند أولئك المشركين من عابدي الأوثان، أما لماذا أمطر أبرهة بحجارة من سجيل فذلك شأن الله، وأجره وحسابه عند الله، والمستفاد من هذه الواقعة يتجاوز الظاهر من الحدث فبيت المقدس سقط في أيدي المشركين وكان أهلها مسلمي ذلك العهد، وحدث هذا أكثر من مرة، فكما ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن بختنصر قد تسلط علىٰ القدس ودمرها سنة ٥٧١ (ق م) كما دمرها الرومان المشركين عام ٧٠ م وأهلها يهود وهم مسلمو ذلك الزمان أيضا ولكن الكعبة كان وضعها عكس ذلك تماما دافع عنها الله بمعجزة إذ حاول هدمها مسلمو ذاك الزمان وأهلها مشركون فكيف هذا؟ فإن كان التساؤل الأول عن حجارة السجيل التي رمتها طير الأبابيل علىٰ عبد من عباد الله المخلصين لنشر دين الحق بين المشركين والوثنيين هي حكمة من الله وشأنه سبحانه وتعالىٰ فيبعث أبرهة علىٰ نيته يوم القيامة فسقوط بيت المقدس وأهله مسلمون، مع حماية الكعبة وأهلها مشركون هي أيضا حكمة من الله القدير فإن من نتائج حادث الفيل أن

---

(٢٩)سورة هود ٨٢ «وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود».

(٣٠)ذكرت حادثة الفيل في القرآن بسورة الفيل «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول».

انتشرت أصداؤه في الجزيرة العربية كما ذكرنا سلفا، فالأهم هو انتشار الحدث في العالم فالحادثة وقعت في ظروف دولية دقيقة فالإمبراطورية الرومانية التي تمثل المسيحية في العالم، تتنافس مع الإمبراطورية الفارسية في اتساع مناطق النفوذ، وكانت للحبشة -وبالتالي لليمن- صلات وأهداف مشتركة في السيطرة، وكان توسع نفوذ أبرهة في الجزيرة العربية من مصلحة الدولة الرومانية، وبانحدار أبرهة ولفناء أغلب جيشه مصلحة للفرس الذين يترقبون ما نزل بحلفاء الرومان

ولن تتمكن المسيحية ونفوذ روما من التواجد في هذه المنطقة وبغض النظر عن تضاؤل تأثير هذه المنطقة اقتصاديا واستراتيجيا إلا أن الحدث قد فرض نفسه علىٰ الساحة الدولية وقتئذ، وسرعان ما جاء الفرس لليمن لتعضيد سيف بن ذي يزن وساعدوه علىٰ طرد الأحباش لبسط نفوذ الفرس، وكل هذه النتائج، هي بمثابة أهداف آنية، أما حكمة الله جل وعلا فقد كان لانحدار أبرهة الحبشي هدف أكبر يفوق عالم السياسة والسيطرة بكثير فقد دلت أولاً علىٰ شرف البيت العتيق وقدسيته حيث أن الله هو المدافع عنه، ومهدت ثانياً لبعثة رسول الله في جوار هذا البيت، حيث بشَّرت بإمكانية المعجزة الخارقة للمألوف في مكة وألمحت ثالثاً إلىٰ أهل الكتاب بقرب ظهور النبي المنتظر (الفراقليط) الذي بشروا به.(٣١)

ومن النتائج ذات المغزىٰ فقد كانت كما أسلفنا، في أثر تلك الحادثة علىٰ أهل مكة الذين كانوا ينظرون في عرفان ورجاء، فحمدوا رب الكعبة، وحمدوا للفيل صنيعه، وأطلقوا عليه اسما صار هو وما يعنيه هذا الاسم من أسماء العرب التي لم تكن معروفة وقتها، فكما يحدث عند كل شعوب الأرض - أن يتم حدثُ ما- فيستلهم منه الناس عبراً ويبلغ مداه أن يطلق الناس علىٰ فلذات اكبادهم أسماء تعبر عن الحدث، فكان اسم محمداً؛ واحداً من تلك الأسماء المشتقة من الحدث والعزيزة علىٰ قلوب العرب. وفيما أبلغه لنا الله علىٰ لسان نبيه ورسوله

(٣١)(سوف أقيم لهم نبيا مثلك) * (ذلك الآت من البرية من الديار التي سكنها قيدار**) (ذاعبدي الذي أعضضه، مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم لا يكل ولا ينكسر، حتىٰ يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته***) انظر الجزء الأول (تعاليم المسيح ص٩٥) —* التثنية —** التكوين —*** أشعيا.

عيسىٰ عليه أفضل السلام، فقد حدد لنا الله عن طريق عيسىٰ عليه السلام اسم المبعوث [٣٢] وكان الراسخون في العلم من اليهود والنصارىٰ يعلمون ذلك الاسم ويعلمون أن النبي لابد وأن يكون من ابناء إسماعيل ومن نسل ابنه قيدار بالتحديد وهم الذين استوطنوا مكة دونا عن غيرهم من ابناء إسماعيل أما آخر ما أعتقد في أهمية ذلك الحدث وتلك المعجزة، فهي مجرد حدوثها فكما ذكرت مرارا، وأكدت تكراراً في الجزء الأول من هذا الكتاب، من أن النضج البشري بعد استجابة بني البشر للحالة الإيمانية كانت- ومع مرور الأحقاب والتجارب البشرية- قد نضجت إلىٰ الحد الذىٰ جعل إدراك الغيب متوارثـًا لدرجة كافية تسمح باستقبال الرسول الخاتم بالدين الخاتم، وبآيات تختلف عن الآيات التي أيد الله بها الأنبياء من قبله والتي تمثلت في القرآن الكريم الأبلغ تأثيرا بأبدية البقاء والإعجاز اللفظي والعلمي، فالله سبحانه وتعالىٰ قد أمده بآيات تختلف عن تلك التي أمد الله بها إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام والتي صارت تلك الآيات بعد مئات السنين تتهم من المرجفين بأنها (أساطير الأولين) بل أمده بستة آلاف ومائتين وست وثلاثين آية عقلية وغيبية، مستمر إعجازها وباقية إلىٰ يوم الدين تدفع معاصري الدعوة إلىٰ الإيمان حين النزول، وتؤكد إيمان المؤمنين بعد مئات السنين، بل وتدفع غير المؤمنين للإيمان إذا ما تدبروا آيات القرآن خاصة إن كانوا

---

(٣٢) إني ذاهب إلىٰ الله، فإن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الله أن يعطيكم فراقليط آخر*.والكلام الذي تسمعون ليس كلامي بل كلام الله الذي يوحيه إلي وأما الفراقليط الآخر الذي سيرسله الله فهو سيعلمكم كل شيء وسيذكركم بكل ما قلت أقول لكم إني ذاهب إلىٰ الله وٍأعود إليكم) (ومتىٰ جاء (الفراقليط) الذي سيرسله الله روح الحق الذي هو عبده، فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي منذالإبتداءأما الآن فأنا ماض ولا يسألني أحد إلىٰ أين تمضي قلت لكم هذا والآن ملأ الحزن قلوبكم ولكنه خير لكم أن أمضي لأني إن لم أنطلق لا يأتيكم الفراقليط، وهو سيرشدكم إلىٰ جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمعه يتكلم به والواضح أن كلمة الفراقليط (الباراكليتوس) ليست اسما لنبي آت بعده فحسب بل صفة له أيضا وهذا النص هو من إنجيل يوحنا أما لفظة الفراقليط فهي لفظة يونانية كما نصت عليه وربما التبس عليهم لفظ باراكريتوس بدلا من باراكليتوس في النصوص المترجمة لليونانية وتعني (باراكريتوس) كما ترجمتها جمعية التوراة الأمريكية بالمعزي أما فراقليط (الباراكليتوس) فيترجمها الدارسون المعاصرون من المسيحيين بالمحمود أكثر من غيره وهي شرح لفظي لكلمة أحمد، والاسم عند الله وصف للشخص علما بأن ما جاء في الإصحاح السابع من سفر أشعيا عن مولد المسيح (يعطيكم الله آية، ها العذراء تحمل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانويل) وقد أسموه يسوع أما عمانوئيل فمعناه من مع الله.

علىٰ درجة عقلية تسمح لهم بالتأمل والتدبير، تلك كانت أهمية حدوث معجزة فارقة كمعجزة الفيل والطير الأبابيل وحجارة السجيل كآخر ما سيرون في المرحلة المقبلة، للاستعداد لدعوة الأيمان بالعقل وهي مرحلة النضوج.

الفصل الثاني

(من المولد إلى الزواج)

تمهيد

أشعر أنني قد ظلمت نفسي حينما تعهدت للقارئ بالحيادية كباحث عن الحقيقة فأنا مسلم ومؤمن، بل وموقن، وكنت قد ذكرت في مقدمة الجزء الأول أن الباحث يحتاج إلىٰ مجموعة من المبادئ البحثية والمصادر البحثية كذلك أما عن المبادئ البحثية وهىٰ الشق الأصعب لأنها موكوله للضمير فهي الحيادية والتجرد، والتقمص وهىٰ مبادئ شاقة ومضنية لصاحب البحث، خاصة إن كان مؤمنا صادق الإيمان، إيمانا مسبقا بالنتيجة النهائية التي يريدها لبحثه قبل أن يشرع فيه، وعليه فإنه ليشق علىٰ المرء أن يكون محايدا في وجهة نظرة عن شخصية أحبها أيما حب أو يكون متجردا من مشاعره الفياضة أثناء هذا البحث وألا يكون إلا متقمصا لذلك الذي يبحث عنه إن جاز له أو جرؤ علىٰ ذلك، التقمص هنا سيصير للشخصية التي يحبها وللشخصية التي يبغضها سواء بسواء، وربما كانت الحيادية مدخلا مناسبا للتجرد من الفكر المسبق، فإن كان لا يصح أن تبحث في سيرة رسول الله (صلىٰ الله عليه وسلم) وأنت منحاز ومحب له، فلا يصح أيضا أن تحمل معتقدات ومبادئ إيمانية بالرسالة التي كلفه الله بها عز وجل دون أن تجرد نفسك منها أثناء ومن أجل البحث، ولئن كان الأمر كذلك، فلسوف ترىٰ أثناء بحثك، أعداء لله ولرسوله وللدعوة أيضا، من خصوم قد لا يكونوا بالغي السوء أو هم كذلك، فإما كانت لديهم مصالح تتعارض مع الدعوة، أو معتقد مغاير يشعرون تجاهه بالحب والتقديس، أو قيم وعادات حاكمة لا تتناسب مع ما دعا إليه رسول الله وعليه فينبغي علىٰ الباحث تقمص تلك الأنماط البشرية ووضع ذاته محل ذات هذا الخصم ويفكر مثله كي يكون الحكم عليه حكما موضوعيا ومتجردا، وهي مهمة مضنية، شاقة مرهقة ومحفوفة بالمخاطر خاصة علىٰ مؤمن إلا أنها واجبة.

كنت علىٰ سبيل المثال محايدا أثناء الحديث عن الفرعون، وعمَن جادل موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام من اليهود والحواريين، وكنت أظن أن المهمة كانت شاقة، أما الآن وأنا مقدم علىٰ الحديث عن رسول الله، أشعر أن المهمة شاقة، فلكي أضع نفسي مكان المجادلين، أسهل من أن أضع نفسي مكان أسوة العالمين والذي أمرت أن أقتدي به وما أحسبني قادر – أنا أو غيري – علىٰ أن

أصل إلىٰ السواء ما حييت مهما اقتديت، ولقد لاحظت أنني أُرجئ البداية إشفاقًا علىٰ نفسي، فأنا مقدم علىٰ أزمة نفسية ينبغي عليّ تحملها وليعذرني القارئ إن أخفقت، وليساعدني الله علىٰ النجاح، الذي لا حول لي ولا قوة إلا به.

مدحت رضا ماهر

الفصــل الثــانــي

(من المولد إلى الزواج)

١- مولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب

في عام الفيل (زمن خسرو أو كسرىٰ أنوشروان الأول في بلاد الفرس - وزمن جستنيان في الإمبراطورية الرومانية الشرقية) وبعد عودة أهل مكة إلىٰ منازلهم بخمسين أو خمس وخمسين يوما، يعمهم الفرح والابتهاج، كانت آمنة بنت وهب قد تقدمت بها أشهر الحمل، ووضعت كما تضع كل أنثىٰ، في دار جده عبد المطلب، يوم الإثنين في الثاني عشر من ربيع الأول الموافق لشهر أغسطس من عام ٥٧٠ ميلادية (هذا التاريخ علىٰ أرجح الأقوال) ونزل علىٰ يد الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف فهي قابلته، رافعا بصره للسماء واضعا يديه وركبتيه علىٰ الأرض في وضع السجود [٣٣]، فأرسلت آمنة جارية إلىٰ جده الذي كان يطوف بالبيت فوجدته جالسا بالحجر مع ولده ورجال من قومه قائلة (يا أبا الحارث ولد لك مولود عجيب) فذعر عبد المطلب وقال (أليس سويا؟) قالت (بلىٰ ولكن سقط ساجدا ورافعا بصره للسماء) فعم السرور كل الحاضرين، حتىٰ أن أبا لهب قد أعتق جاريته ثويبة الأسلمية التي جاءته بالبشرىٰ حبا لأخيه الفقيد عبد الله، فقد كان الوليد عزاءا لكل من أحب عبد الله، فتوجه عبد المطلب من فوره لآمنة ونظر إليه وأخذه ودخل به للكعبة وعوذه وخرج فدفعه إلىٰ أمه وأسماه محمدا، فقيل له: لماذا أسميته بهذا الاسم وليس لأحد من آبائك؟ فقال (لأني أرجو أن يكون محمودا من الناس) وربما كان ذلك تأثرا وتيمنا بالفيل محمود، وقدر للطفل الوليد أن يكون له اسما فريدا ومطابقا لمعنىٰ ورد عن اسم نبي الله المذكور في الإنجيل، وختن الوليد في اليوم السابع لمولده وأمر عبد الطلب بجزور فنحرت للناس، لقد فاقت الإشارات علىٰ الترتيب الإلهي للوليد محمد كل تصور، فالوليد وإن كان بشرا ليس له أن ينعم بأبوين كسائر البشر فمولده جاء بعد وفاة والده بشهرين، ترتيب الله جلت حكمته له ألا يحظ بحماية الأب وتوجيهه، كما لا ينبغي له أن

(٣٣)لم أكن أرغب في ذكر الخوارق فيما رواه الرواة، فأنا أراها تهافت علىٰ إثبات نبوة لا تحتاج إثبات ومثبتة من الأصل دون الصاق المعجزات المفتراه، إلا أن سجود أي وليد ونظره للسماء قد يتكرر مصادفة مع الكثيرين فلا تدل علىٰ شيء، إلا أن حدوثها لمحمد تدل علىٰ الكثير ولا أراها مصطنعة.

ينعم بحنان الأم ورعايتها وكتب الله عليه أن يمضي وحيدا في حياته الاولىٰ، مختلفا عن الآخرين شأن الرسل أجمعين، لقد كانت لطفولة نبي الله يوسف عليه السلام ظروفا غريبة، وكانت لطفولة نبي الله موسىٰ عليه السلام أحداثاً فارقة، وكانت لطفولة نبي الله عيسىٰ ظروفا فذة.

إن حكمة الله لا تقف عند الساذج مما نعرفه أو نعتاد عليه، فرحمة الله أشمل وأعم، فهذا الوليد سوف يعطيه ربه فيرضىٰ، فالله يحميه ويوجهه تماما كما يغمره بالحنان ويرعاه، ومن منا لا يرضىٰ بهذه المقايضة إن يسرت له؟

٢- نسب النبي وأسرته:

لنسب النبي ﷺ ثلاثة أجزاء (من عام ٦٥٠ ق م حتىٰ ٥٧٠ ميلادية) كما جاء في كتاب الرحيق المختوم وغيره من المصادر ولكننا نقدمه كالتالي:

الجزء الأول:

هو الجزء المتفق علىٰ صحته وأجمع عليه أهل السير والأنساب، كما أن رسول الله ﷺ قد ذكر ذلك في أحد الأحاديث النبوية الشريفة وهو نسبه ﷺ إلىٰ عدنان وهو كالتالي:

محمد – بن عبد الله – بن عبد المطلب (واسمه الحقيقي شيبة) – بن هاشم (واسمه الحقيقي عمرو) – بن عبد مناف (واسمه الحقيقي المغيرة) – بن قصي (واسمه الحقيقي زيد) – بن كلاب – بن مرة – بن كعب – بن لؤي – بن غالب – بن فهر – بن مالك – بن النضر (واسمه الحقيقي قيس) – بن كنانة – بن خزيمة – بن مدركة (واسمه الحقيقي عامر) – بن إلياس – بن مضر – بن نزار – بن معد – بن عدنان.(٣٤)

الجزء الثاني:

وهو ما فوق عدنان إلىٰ إبراهيم عليه السلام، وهو جزء قد يكون فيه أمورا وأنسابا صحيحه واخرىٰ غير ذلك فقد قال رسول الله ﷺ عليه (وكذب النسابون) مشيرا إلىٰ ما فوق عدنان وفيه أن عدنان هو بن:

---

(٣٤)(ابن هشام) ١\١، ٢ – (تلقيح فهوم أهل الأثر) ٥، ٦ – (رحمة العالمين) ١١\٢، ١٢، ١٣، ١٤، ٥٢ – حديث رسول الله.

أد بن هميسع بن سلامان بن عوص بن بوز بن قموائيل بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخي بن عيض بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربي بن يحزن بن يلحن بن أرعوي بن عيض بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمي بن مزي بن عوضة بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام(٣٥)

الجزء الثالث:

وهو ما فوق إبراهيم إلىٰ آدم عليهما السلام ولا نرىٰ أن نذكره في هذا الكتاب.

٣- حليمة السعدية:

تقول المصادر كلها تقريبا أن آمنة انتظرت مجيئ المراضع من بني سعد لتدفع بوليدها إلىٰ إحداهن كعادة أشراف العرب من أهل مكة، وكان الوليد قد رضع منها ومن ثمان نساء أخريات هن أم أيمن جاريته التي ورثها عن أبيه، وامرأة من بني سعد غير حليمة وثلاث من العواتك (أي اللواتي يحملن اسم عاتكة) وثويبة الأسلمية جارية عمه أبي لهب، وخولة بنت المنذر.

كانت المراضع من بني سعد وكن عشرة، هن المفضلات علىٰ غيرهن من المراضع فهن من بني سعد يعشن في بيئة البادية ابتعادا للرضع عن أمراض الحواضر، لتقوىٰ أجساد الرضع وتشتد أعصابهم ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، وجاءت المراضع من بني سعد يلتمسن الأطفال لإرضاعهم، لكنهن كن دائما يعرضن عن اليتامىٰ لأنهن كن يرتجين البر من الآباء، وعليه فلم تقبل واحدة منهن علىٰ الرضيع محمد، وكانت حليمة بنت ذؤيب السعدية قد أعرضت بدورها عنه، كما أعرضت أمهات الأطفال عنها في نفس الوقت، فقد كانت علىٰ جانب كبير من الضعف والهزال مما صرف الأمهات عنها، وبانتهاء اليوم رأت هي وزوجها الحارث بن عبد العزىٰ ألا يرجعا صفر اليدين، ورأيا في محمد أملاً في أن يجعل الله لهم فيه بركة، فأخذاه إلىٰ باديتهم وكانت تقول (والله ما حملني علىٰ أخذه إلا أني لم أجد غيره) كان لها ابن يرضع منها دون أن يشبع لشدة ضعفها، وهو عبد الله بن

(٣٥)جمع العلامة الكبير محمد سليمان المنصورفوري هذا الجزء من النسب برواية الكلبي وكتاب الطبقات الكبير لابن سعد الزهري.

الحارث، فما أن بدأت في إرضاع محمد حتىٰ شرب محمد فروي، وشرب معه عبد الله حتىٰ روي، وبوركت تلك الأسرة الصغيرة أيما بركة.

ولسنا هنا أمام بركة في يوم من أيام الرضاعة، بل الرضاعة طوال الحولين، ولسنا هنا أمام بركة الرضاعة فحسب، فلقد أصابت هذه الأسرة البركة في كل ما كان ضامراً عندهم، فالناقة المسنة التي وصلوا بها إلىٰ مكة بشق الأنفس لضعفها وعجزها والتي لم تكن ترشح حليبا، فإذا بها في طريق العودة موفورة الصحة، يحفل ضرعها بالحليب ولما وصلت تلك الأسرة إلىٰ باديتها لفتت الناقة نظر الناس فيما ذهبت فيه من ضعف وما عادت به من صحة، وما أن قدمت الأسرة لمنازلها المجدبة دائمـًا، لاحظت حليمة وزوجها الحارث أن أغنامهم ترعىٰ في الوادي الذي كان مجدبـًا في بحبوحة ووفرة مما جعل الحاضرين من قومهم يسرحون أغنامهم حيث تسرح أغنام حليمة والحارث، وزاد لهم الله من الخير مما لم يألفوه، فاستبشرت تلك الأسرة بالوليد فأحبوه إلىٰ الحد الذي جعل حليمة تتمنىٰ بقاءه معها (وكانت رعاية الله له) سوف يعطيه فيرضىٰ، يحميه ويوجهه، تماما كما يغمره بالحنان ويرعاه بطرح البركة في كل ما يحيط به فيستمسك به الناس ويلوذون به علىٰ ضعفه، فكما القىٰ الله محبة منه علىٰ موسىٰ، منح من يخالطون محمداً بركته عليهم، ومن منا لا يرضىٰ بهذه المقايضة كما قلنا سلفـًا.

لمَّا مضىٰ الحولان وفصلته حليمة، فذهبت به -وهي أحرص علىٰ بقائه معها- إلىٰ مكة لآمنة أمه، فلم تزل بها ترجوها حتىٰ ردته آمنة معها، بإلهام إلهي وكانت لإرادة الله أن تتحقق، فلا أم كالأم، حتىٰ وإن كانت حليمة، تعلم ذلك كل أم علىٰ ظهر الأرض وكل يتيم أيضا يدرك ذلك طال الزمن أو قصر، أن لا أم كالأم البيولوجية التي حملت، مهما أرضعت ورعت وأحبت وأنفقت وسهرت، فهي حكمة الله جل وعلا،

ويبقىٰ تساؤل، إن كان الأمر كذلك، فكيف رضيت آمنة؟ وهي الأم! كيف ترضىٰ وتحتمل مبيت وليدها -يتيم الأب- يوما واحداً بعيدا عنها، بل ابتعاده عنها حولين للرضاعة ثم حولين لجلب البركة أو لرجاء حليمة، أو لوباء أصاب مكة كما ورد في بعض المراجع ولكننا لا ندري أي وباء وأنىٰ له البقاء سنين، أو لأي سبب آخر، بل هي إرادة الله.

الرد علىٰ التساؤل المحير، هو وحي الانصياع، وهو نفس ما حمل عبد المطلب جد رسول الله، أن يترك الكعبة لله يحميها، فعلىٰ الرغم من صعوبة هذا القرار الذي قد يحسبه الرجل العادي مثلنا تقاعس عن الذود عن المقدسات، فما خبأه الله في ذلك القرار من حكمة جهلها عبد المطلب، يفوق ما كان لعقل عبد المطلب أن يستوعبه ولعقولنا أيضاً اللهم إلا إن ادعينا الحكمة بأثر رجعي بعدما تبينت لنا تلك الحكمة استنتاجا وهي أيضا تماما كالحكمة التي أرادها الله لمحمد ألا ينعم بما نعمنا به من آباء، فذلك هو شأن الأنبياء فهو وليد مختار، ومصطفىٰ كما ستدلنا الأحداث، هو نبي مرسل بإعداد إلهي ولا ينبغي للبشر أن يلحظوا هذا الإعداد وإلا لكان للعلم بالاختيار الإلهي أخطار علىٰ الدعوة وعلىٰ المختار معًا، هي إرادة الله جلت حكمته، تماماً كإرادة الله لأم موسىٰ بأن ألهمها الله أن تهيئ لوليدها صندوقاً تقذفه فيه، وتقذف بالصندوق في اليم فحتىٰ اللفظ القرآني الدقيق كان القذف بما فيه من قسوة لأول انطباع عن الكلمة ولكن الأمر الإلهي لها كان لتدارك أمر اقتراب جنود الفرعون، فالله بالغ أمره مع نبيه موسىٰ، وبالغ أمره مع نبيه محمد فيتربىٰ موسىٰ بمكانيات الفرعون وعلم الفراعنة وترعاه أمه، فتلقنه أنه من بني إسرائيل كتمهيد إلهي لحمل الرسالة، أما محمد فيؤدبه الله ويرعاه، وللأم البيولوجية أثر يختلف عن أثر الأم بالرضاعة أو بالتبني، وللأب البيولوجي أثر يختلف عن أثر الجد الذي يرعىٰ والعم كذلك أو الأب بالتبني، ولا يريد الله لمحمد، إلا أن يكون فريداً ليس لأحد أثر عليه كأثر الأم والأب فهي إذن حكمة الله

وعاد الطفل مع حليمة، وهو في غير حاجة لها أن ترضعه، وسرع به مرحه في جو البادية الصحو الطلق إلىٰ النمو توحي له الصحراء فكرة اللانهاية مع إخوته في الرضاعة عبد الله وأنيسة وجذامة (وهي الشيماء) بعيداً عن قيود التكلف وقيود المادة وبعيداً عن آلهة قريش. كانت حياة الطفل، سوية، لا أحداث فيها تناقض معروف العقل ولا خوارق، فكانت حياة إنسانية سامية.

٤- عودة الطفل إلى أمه (آمنة بنت وهب):

لما انتهىٰ الحولان آن للطفل - حسب الاتفاق - العودة لمكة، وهو في الرابعة من عمره ولما عاد مع حليمة إلىٰ أحضان أمه، بدأ حياته الجديدة في بيئة لا يعرفها، ففرحت به

آمنة واستقبلته بشوق جارف وبحنان جديد عليه، لا يستطيع غير الطفل أن يميز بين حنان الأم التي حملت، والأم البديلة، مهما كان ذلك الحنان صادقـًا، فمارس مشاعر جديدة عليه واستمتع به، فقد كان الوليد لآمنة بمثابة العزاء الوحيد لها، إذ كان طفلاً جميلاً، موفور الصحة، سليم البنية، سويّ الخلقة والخلق مُستحقـًا للحب بجدارة ومُستحقّـًا للغبطة به، موصومـًا باليُتمِ مذ ولد.

في أي مجتمع كان، وإن كان قاسيـًا، يحظىٰ الأطفال أيا كانوا بالرعاية والشفقة والمحبة لمجرد كونهم أطفالاً، فتلك ملامح إنسانية لازمة حتىٰ لو كان أفراد المجتمع أو المجتمع كله موصوما بغلظة القلب، ومجتمع مكة وقريش بالتحديد وإن كان جاهليـًا، كانت به العديد من المحاسن التي كانت تحسب له سواء للضعيف، أو للغريب والمظلوم وصاحب الحق وفوق كل اعتبار، للطفل الذكر، والطفل قرشي، أي سليل قصي الذي كان له الفضل في أن يجمع القرشيين حول الكعبة، وسليل هاشم صاحب الأيادي البيضاء علىٰ مكة، مطعمها من ماله حينما هشم الخبز فثرده، والطفل حفيد عبد المطلب مُسقيها من بئر زمزم الذي تكبد مشقة البحث عنها وحفرها وحده والذي علىٰ يديه حمىٰ أهل مكة وقريش من القتل علىٰ يد أبرهة وحفظ حقوقهم، وأدىٰ بعد نظره إلىٰ اندحار أبرهة وجيشه، وابن ثاني الذبيحين عبد الله الذي توفي وهو في ريعان الشباب قبل ولادته، والذي لم يبق للوليد من المال ما يكفيه، وليس له مِن الأُخوةَ مَن يواسيه، ليس له سوىٰ أمه التي لا تدري أنها تودعه، ولا يدري هو أيضا أنه لقاء الوداع.

كانت الشفقة تغلب الحب في هذه المرحلة، وإن كان للحب نصيبـًا وافراً من إحساس الناس تجاهه فقد كان باسمـًا، وديعـًا، هادئـًا، راضيـًا، وقانعـًا.

لما بلغ محمد خمس سنين خرجت آمنة به إلىٰ أخواله من بني عدي بن النجار بيثرب تزورهم، ومعها أم أيمن تحضنه وهم علىٰ بعيرين فنزلت في دار رجل من بني النجار اسمه النابغة وكان قبر أبيه في هذه الدار، فأقامت عندهم شهرا، لعب محمد مع أنيسة وهي من بني النجار، ومع غلمان من ابناء أخواله يطِيرون طيراً، وتعلم العوم في بئر بني النجار، هذا ما يذكره محمد من طفولته، فظل يذكره طويلا حتىٰ بعد أن بلغ النبوة[٣٦] .

(٣٦)كتاب الطبقات الكبير لابن سعد (بتصرف في الأسلوب).

٥- يتيم الأبوين (وفاة آمنة):

قصت آمنة علىٰ ابنها الغلام -ابن السنوات الخمس- ما حدث لأبيه، وسمع منها بين أنَات آلامها كيف فقدت أباه وهو ما يزال جنيناً وأرته البيت الذي مات أبوه فيه، فأصبح الموت ماثلا أمامه أمراً واقعا، وأرته قبره فمات عنده -برؤيته للقبر- أي أمل له في اللقاء وصار الأمر علىٰ صعوبته للطفل جلياً وواضحاً علىٰ مرارته فمكان الوفاة قد أكّد وثبّت معنىٰ الوفاة، أما القبر فقد نمَ ودلَ علىٰ ألا أمل في النقاش فالأطفال الأيتام، مهما كانوا، يظل الأمل يراودهم علىٰ ألا تكون الأنباء صحيحة فينسحب الطفل هارباً إلىٰ داخله يعيش في عالمه الخاص به، عالم الأحلام التي تريحه مكذباً ما يقال له من فقدان الحماية والرعاية ورافضاً للحقيقة يتعلق كأي طفل ولو بالوهم كحماية نفسية له من عجم المجهول وقسوة الظرف فالطفل أي طفل يدرك كنهه الأب في الأمان والحماية ويظل يسائل نفسه أحقا قد ضاع الأمل في الأمان والحماية إلىٰ الأبد؟ فهو يدرك إمكانياته الضعيفة ويدرك مدىٰ استحالة مواجهة الحياة دون حماية، ألا يهرع الأطفال عادة لحماية الأب فيعزٌّ عليه المواجهة منفردا فيتعلق بالأمل ولو كان هذا الأمل كاذباً ولكن بما رأىٰ الغلام وأُخبر به فلا مجال للتعلق بالأوهام وهكذا لم يبق له أمامه من أمل وملجأ، إلا أمه بما تمثله له من ملاذ وتحنان ورعاية، فتأثر الطفل بالأمر الواقع، وزاد تعلقه بما تبقىٰ لديه من صحبة متمثلا في أمه، أمه فحسب، ولكن لفترة محدودة جداً.

****

لما طال مكثهم شهرا، والغلام لم يهضم بعد الحقائق الكاملة لوضعه فيكيف نفسه عليه، كيتيم الأب، اعتزمت آمنة العودة به إلىٰ مكة، فركبت، وركب من معها بعيريهما اللذين حملاهما من مكة، فما كانوا في أثناء الطريق بين البلدين وبقرية اسمها الأبواء بين يثرب والجحفة وعلىٰ بعد ثلاثة وعشرون ميلا، مرضت آمنة وزادت آلامها في الطريق، فماتت وها هو الغلام قد رأىٰ بعينيه أمه تتألم من المرض وتلفظ أنفاسها الأخيرة كما ذهب أبوه الذي لم يره، وفي الأبواء دفنت بها أمام أعين الغلام، وترك وحيدا بجسمه الصغير يحمل فوق أكتافه الصغيرة جدا، هم اليتم الكامل وبقي في الحياة، وحده وعادت أم أيمن (وكانت في الثالثة عشر من عمرها) جاريته به إلىٰ مكة، وظل محمد ينتحب بعيداً عن

أحضان أمه، وفي أحضان جاريته أم أيمن (بركة الحبشية) التي لا يمكنها أن تمنحه إلا الشفقة، طوال ما تبقىٰ من الطريق إلىٰ مكة، يشعر باليتم الكامل، ضاعفه عليه القدر فيزداد الغلام وحشةً والمـاً.

٦- طفولة الأنبياء:

طفولة الأنبياء ليست كطفولتنا بل هي طفولة يجب أن تُميز بالترتيب الإلهي، وتتفق طفولة الأنبياء في أمر واحد، ألا وهو التفرد، وقد يكون التفرد بالمعاناة، فقد تفرد يوسف عليه السلام، بأن يلق في الجب محروما من والديه، ثم يصل إلي قصور الحكام في أعتىٰ وأغنىٰ دولة في ذاك الزمان بعدما حرم من الرعاية والحب الحاني من أبويه، فيحن لهما حنين الابن البار ويأتي بأهله من بني إسرائيل ويمكنهم من الأرض تمهيدا لطفولة موسىٰ عليه السلام وما بها من مفارقات لا تحدث إلا بالترتيب الإلهي فيلقي في التابوت ويلقىٰ في اليم ويربىٰ في كنف عدوه ويهزمه، وقد يكون التفرد بالقدرات الفائقة، فداود وسليمان من بعده عليهما السلام تفردت طفولتهما بالقدرات الخاصة، وقد يكون التفرد في التكوين، فتفرد إسحق ويحيىٰ وعيسىٰ عليهم السلام علىٰ كل العالمين في كيفية تكوينهما، فإسحق ويحيىٰ يشتركان في أن يقول الله لهما كونا فيكونا ويولدا من أبوين لا يمكنهما بيولوجيا أن ينجبا وهو علىٰ الله هين، وعيسىٰ يتفرد عليهما وعلىٰ العالمين في الأمر الإلهي وهو أيضا هين عليه سبحانه، فيكون في بطن أمه العذراء بكلمة الله. أما محمد فقد تفرد في كل ما سبق وزيادة، تفرد في التوقيت والتكوين، والقدرات والمعاناة.

ففي أمر التوقيت: فأمر التوقيت جلي، ليس في مولده في عام الفيل فحسب، بل فيما ارتبط من تأثير حادثة الفيل بكل من علموا به ممن عاصر هذا الحدث الفذ ونتائجه، ولقد أسهبنا في شرح هذا الأمر من قبل، إلا أننا ربما فيما يتعلق بتوقع أهل الكتاب بقرب ظهور النبي أحمد المحمود والمحمد (البراكليتوس) فقد كان المجتمع الوثني زاخرا بالتساؤل عن أمر هذه الآلهة المنتشرة حول الكعبة ويبدو هذا جليا حينما عَزىٰ عبد المطلب أمر حماية الكعبة لله، ولم يغفل للحظة ولا غفل العرب عن عجز الآلهة المنصوبة حولها.

وفي أمر التكوين: هو سليل أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام. فإسماعيل الذي جمع الدم العبري والدم المصري من هاجر، فـ (قيدار) أفضل ابناء إسماعيل بن امرأة عربية

جرهمية منتقاه ويتوالىٰ المزيج من أفاضل النسل إلىٰ قريش (قصي) وأمه، فهاشم وأمه، ثم عبد المطلب وأمه، وأخيراً عبد الله وبزواجه من آمنة وهي أيضا منتقاه، ووظيفتهما إنجابه ثم الوفاة.

فكل من سبق ذكرهم قد خضعوا للانتقاء والاصطفاء الإلهي، يؤثرون في ابنائهم وبناتهن، ونصل إلىٰ نهاية المرام إلىٰ (محمد) فيرث منهم من الروحانيات ما أراد له الله أن يرث، طبعـًا كريمـًا ووفيراً ومنتقىً اشتهروا به، وثوابت أخلاقية سادوا علىٰ القوم بها، يرث منهم موروثاتهم الجينية الراقية، كما ورث إكباراً في نفوس القوم للأصل الذي انتمىٰ إليه والمكانة الملتصقة بهم، ولكنه لا يرث من ماديات الحياة شيئـًا فليس له من المال إلا النذر اليسير، كما لا يحظ برعاية وحماية أبوه أبداً لكونه يتيم الأب، وقليل من ذكريات حنان الأم، ويتم تكوين الشخصية الفريدة، بلا تأثر مِن مَثل يمتثله، ويصبح فريداً في التكوين الأخلاقي والإنساني، يتعلم ما أراد له الله أن يتعلم، من الظرف الفريد الذي وضعه الله له وفيه كما سنرىٰ.

أما فيما يتعلق بتفرد القدرات: فقد كانت للعرب طبائع في تربية الابناء ، تشكل لهم قدراتهم، يُعَلّمون الرماية وركوب الخيل والمبارزة، والقراءة والكتابة ناهينا عن التجارة والشعر، وعبادة الأوثان والموروثات الثقافية والقيم العربية سواء كانت قيما عليا كالكرم والنجدة والشجاعة أو كانت موروثات عقائدية جاهلية كالوثنية، بما فيها من تفضيل الابناء الذكور علىٰ الإناث ومعاملة النساء كل الطبائع كانت تُشَرب للابناء تَشَرُّبـًا، أما محمد، فلسوف نرىٰ كما سيأتي، تفرده في انتقاء ما أراد له الله أن ينتقي، لم يتعلم محمد أغلب ما تعلموه، إلا أن قدراته فاقت ما عَلِموه وما تعلموه، كان صادقا مع نفسه، فقد علمته ظروفه أن يسبر غورها، يتأمل وحيدا ثم يرضىٰ بما قُسم له وأفرخ صدقه مع نفسه، صدقه في كل ما يرىٰ ويشعر، فلم يكن لديه إلا الصدق مع الآخرين وعُرِف بتلك الصفة ممن أحاطوا به ولقد أجلب الصدق الكامل الأمانة التامة، كانت حياته تدفعه دفعـًا لصفات ميزته وفردته، فمن التواضع إلىٰ الرأفة والرفق وعفة اللسان واللين والعفو والجود وكرم الخلق ودماثته، والنظافة الشخصية والتطيب وحب التطهر والبساطة وبعد النظر، وكانت للفراسة نصيب وافر فتفرد في قدراته علىٰ من حوله بامتياز، وكانت صفاته وخلاله العديدة التي سنتناولها في موضعها، تتعلق بقدراته التي صقلها الله له، جعلت منه آية من آيات الله، فبتلك القدرات

حقق المدينة الفاضلة لمجتمع يطبق شرع الله فتتسع سلطته الروحية متميزا عن سائر الأنبياء والرسل دون خوارق، إلا في الأخلاق وتفرد القدرات.

التفرد في المعاناة: لم تكن معاناة الطفل محمد إلا بداية، استمرت في مرحلة الصبا ثم الشباب، فالرجولة واكتملت بعد نبوته وصار محمداً رسول الله ﷺ ولقد أعده الله تعالىٰ طوال حياته فيما أعده لتحَمُل تلك المعاناة ولقد رأينا مما سبق ولسوف نرىٰ في بحثنا سوياً اكتمال معاناة الطفل، والصبي، والشاب، والرجل في حياة محمد، وحتىٰ بعد النبوة، وقدرته علىٰ التكيف، والصبر والرضا.

٧- محمد في كنف جده عبد المطلب:

لا يفهم ألم اليتم إلا من اكتوىٰ بناره ولا يفهم حيرة الغربة إلا من عاش في لظاها، ولا يتألم من فقد الحماية إلا من احترقت طفولته بفقدها، وقد عايش وتفهم عبد المطلب كل ما رأىٰ حفيده، من الإكتواء والألم والحيرة.

الغريب أن قصيا قد واجه بعض ما سبق من اليتم والإقصاء، ثم واجهه عبد الطلب مخففا، أما محمد فقد واجهه كاملا، وكأن اليتم موروث من جد لحفيد لحفيد، وتولي عبد المطلب أمر محمد، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم وزميل المعاناة، ولم يدر عبد المطلب حقيقة مصدر اللوعة التي تجيش في صدره، أعاوده الحنين لابنه عبد الله الذي قضىٰ نحبه في ريعان الشباب، أم أن ذكريات طفولته -بفقد الأب دون أن يراه- قد جعلته يتذكر آلامه الشخصية في مرحلة الطفولة التي لا تذهب لحال سبيلها أبداً، فصار لا يدري أيبكي في داخله، نفسه، أم عبد الله ابنه، أم الحفيد محمد، فلقد نُكِأت الجراح من جديد.

كان عبد المطلب سيداً لمكة، ومهموما بمسؤولياته تجاه المجتمع الذي هو علىٰ رأسه وكان تاجراً، وكثير الأسفار للتجارة، فالتجارة وإن كانت مصدر رزقه الوحيد ومصدر رزق عياله وأزواجه لا يمكنها أن تتوقف بأي حال من الأحوال، خاصة في ظل هذا المجتمع الأرستقراطي بالمقارنة بالمجتمعات من حول مكة والثري نسبياً بسبب النشاط البورجوازي القائم علىٰ التجارة لم يكن المال مهماً، لأهله فحسب بل بل كان مستخدما لإكمال مهامه التي عليه القيام بها من سقاية الحجيج ورفادته، فكان كثير الأسفار تاركا

حفيده محمداً بمكة من آن لآخر، ولكنه منذ تولىٰ أمره لا يتركه أبداً لوحدته المفروضة عليه طالما تواجد بمكة، وكان يرق له كما لم يرق لأحد من قبل ولا حتىٰ لأولاده، فيؤثره عليهم وكأنه يودعه فيما تبقىٰ له من العمر، فعلىٰ سبيل المثال كان يوضع لعبد المطلب فراشـًا في ظل الكعبة ـ فقد تعدىٰ العقد الثامن من عمره ـ وكان بنوه كباراً أو صغاراً يجلسون حول الفراش ولا يعتلونه معه أبداً إجلالا واحترامـًا أما الطفل محمد فقد كان يأتي وهو غلام ويعتلي ببراءته فراش سيد مكة فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول لهم عبد المطلب: دعوا ابني فوالله إن له لشأنا، ثم يجلسه معه علىٰ الفراش ويربت علىٰ ظهره بيده ويسره كل ما يقوله ويفعله[٣٧]

ولعلي قد ذكرت سلفا أن لا أم مثل الأم، وأكرر أن لا أب مثل الأب، لكن لا ينكر أحد أن للأجداد وضع آخر دونا عن كل الآخرين، ويزيد الأمر مع فقدان الجد لابنه، فيجد في الحفيد عوضا، وهو بالتحديد ما تم لعبد المطلب، وأتمه الله له، كما أتمه للغلام محمد، معه، ونلحظ هذا مما عرفناه عن اعتزاز عبد المطلب بحفيدة وتسميته اسما يتفرد به عمن حوله، وكأنه يرجو له معنىٰ الاسم، أن يُحمد من الناس فيصبح بينهم محمودا، كما نلحظ مما ذكرناه للتو، من أن يقول لأبنائه أعمام الغلام (إن له، لشأنـًا) ففراسة الأب نراها في حياتنا اليومية ونمارسها وهو شعور ينتاب الكثير من الآباء ولا ينتاب غيرهم –وغالبـًا ما يصدق– فيصير ما رأوه في الابناء من علامات ودلالات، تنبئ عن شأن يروه ماثلاً إن طال بهم العمر ومقولته لا تصدر في أغلب الأحوال إلا من الآباء أو الأجداد، وربما كانت كلمة (دعوا ابني) دليل لفظي علىٰ ذلك الشعور فمحمد هو عِوَضَهُ عن عبد الله ابنه وما كان بقاء الجد عبد المطلب علىٰ قيد الحياة، من حسن فأل محمد لكنه كان من تدبير الله جلت حكمته حتىٰ يحظىٰ بجرعات من صدق الأبوة ومن الحنان سيحتاج إلىٰ ذكراها الطفل في مستقبل أيامه، شحيحة الحنان.

كان لعبد المطلب كما أسلفنا من الابناء الذكور الباقين علىٰ قيد الحياة عشرة فقد مات عنه اثنان (عبد الله وعبد الكعبة وهما أخوة أشقاء لعبد مناف الملقب بأبي طالب والزبير جميعـًا من أم واحدة) وكان أكبرهم الحارث الأخ الغير شقيق وكان يقارب الستين

(٣٧) ابن هشام ١\١٦٨

في ذلك الزمان ويصغرهم حمزة وكان يبلغ من العمر ثماني سنوات في ذلك الوقت (يكبر بن أخيه محمداً بسنتين وكان أخا لمحمد في الرضاعة) وكان الآخرون ما بين سن الصبا والشباب وهم عبد العزىٰ (أبو لهب) والمغيرة (حجلا) وقثم وضرار والعباس ومصعب (الغيداق) أما عبد المطلب فكان الجد عوضا لمحمد بدوره عن أبيه عبد الله (ثاني الذبيحين) كان عبد المطلب شديد الحب لحفيده محمد، كان يرىٰ فيه ما لا يراه في غيره من الغلمان حتىٰ غلمانه هو، وكانت قريش قد تتابع عليها الجدب في حياة عبد المطلب وكانت لهم طقوساً جاهلية في الاستسقاء فقاموا بها، ولم تفلح، فخرج عبد المطلب وهو يحتضن الغلام وخرج معه من حضره، وصعدوا جبل أبي قبيس (وهو جبل مشرف علىٰ مكة) رافعين أيديهم للسماء، ورفع عبد المطلب الغلام ثم دعا الله فما أن أشار الغلام بأصبعه للسماء كالمتضرع، أقبل السحاب من كل ناحية وأغدق المطر فهلل الجمع، وأكدت تلك الحادثة حبه للحفيد وإن لم تدل أحد علىٰ شيء بعد، فمثل تلك الحادثات لا تترك إلا أثر بالاعتزاز والتبرك والتفاؤل بالغلام حتىٰ في أيامنا الحالية، إلا أننا حينما نستعرض تلك الحادثة الآن، ندرك مكانته عند الله وكأن من ضمن مقاصد اليتم، لفت أنظار القوم للغلام، فهو يتم بقصد إلهي للمهمة التي ستلقىٰ علىٰ عاتقه في الوقت المناسب، ولما بلغ الغلام محمد ثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره[٣٨] مرض عبد المطلب مرضاً شديداً وأحس بدنو أجله، فعهد إلىٰ أبي طالب بكفالة بن أخيه الشقيق، كما عهد إليه بالسقاية[٣٩] وكان فقيرا كثير الأولاد، دون ابنه الأكبر الحارث (أقلهم مالا) أما الحكومة وأمر الكعبة فقد عهد بها إلىٰ ابنه الزبير، وعهد إلىٰ العباس (أكثرهم مالاً) إطعام الحج -في بعض المصادر- رغم حرصه علىٰ ماله.

مات عبد المطلب وهو في الثالثة والثمانين من عمره وقد حضر محمد الوفاة يقبع خلف سريره يبكي، فقد حزن عليه كحزنه علىٰ أمه كان دائم البكاء وهو يتبع نعشه للقبر في الحجون، كأنه يريد أن يتبعه.

---

(٣٨)كتاب (محمد) لمحمد رضا – ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧ – ابن هشام

(٣٩)المصدر السابق

٨- محمد في كفالة عمه أبي طالب:

كان موت عبد المطلب ضربة قاصمة لآل هاشم، فلم يكن من أبنائه من يحمل عنه ما كان يحمل، ولا كان فيهم من كان في حكمته ومكانته وعزمه وكرمه وأثره علىٰ العرب جميعا، ولم يصل أحد إليه منهم في المكانة، إذ كان فقيرهم عاجز عن إتيان بعزمه، وكان غنيهم حريصا علىٰ ماله، وسهل علىٰ منافسيهم -من بني أمية بن عبد شمس- أن تبوأوا تلك المكانة منهم، دون أن يخشوهم، أما عبد المطلب، فقد كانت له ثوابت أخلاقية ورثها من أصله الكريم، كان رغم فقره كريمـاً، وكثرة مسؤولياته بعياله أكثر قومه مروءة حريص علىٰ ابن شقيقه اليتيم، أحسنهم للجيرة، وأعظمهم حلما وأناة وأصدقهم حديثا وأبعدهم عن الفحش والأذىٰ [٤٠] لا يماري أحداً، وكان أبوه عبد المطلب يحفظه ويعضضه وينصره إلىٰ أن مات، وربما كان اختياره لكفالة محمد لكل ما سبق أن ذكرنا وإن زاد عليه شدة حبه لعبد الله ولكونه الأخ الشقيق له والمؤتمن أكثر من غيره لهذه المهمة.

كان لأبو طالب تسع من الابناء والبنات، ابنه الأكبر طالب، ثم يصغره بأكثر من عشر سنوات عقيل (أبا يزيد) وكان عالمـاً بنسب قريش، ويصغره بأكثر من عشر سنوات في السن جعفر (ذو الجناحين) فعلي وبينه وبين جعفر عشر سنين (وكلاهما ولدا بعد مولد محمد) وهند (أم هانئ) وجمانة وريطة وأسماء وطليق، وأحب أبو طالب ابن أخيه كحب عبد المطلب له وحرص علىٰ أن يقدمه علىٰ أبنائه، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس ما يزيد تعلقه به، كان محمد يحب الخلوة إلىٰ نفسه، وكان يحدث كثيراً هذا إذا ما كان القوم من حوله يعكفون علىٰ شيء يبغضه ولا يستسيغه، كان شديد الصدق مع نفسه أولا ومع الآخرين كنتيجة لصدقه مع الذات، وعلىٰ سبيل المثال، فقد كانوا في الجاهلية يجعلون لهم عيداً عند صنم (بوانة) وهو صنم من أصنام مكة تعبده قريش وتعظمه، وتذبح له وتحلف عنده وتعكف عليه يوما في السنة إلىٰ الليل، وكانت كل مكة بما فيها قريش تحضر هذه المناسبة، فيمرح فيه الأطفال ويطعمون وكذلك الكبار، ونعلم جميعـاً شغف وولع الأطفال بهذه المناسبات، وكان أبو طالب يحضر هذه المناسبة مع قومه، يحرص علىٰ اصطحاب أولاده ليمرحوا وليتعلموا تقديس هذه الآلهة كجزء من تربيه

(٤٠) أنظر بن هشام ج ١ ص ١٨٣

عبد المطلب الدينية لهم، وقد رفض الصبي محمد الذهاب واعلن صراحة بغضه للآلهة، فقد كان يكره هذه الآلهة كلها بلا استثناء، وكان يكره كل تلك المعايب ويبتعد بطبيعته وفطرته عن كل ما يعيب العقل السليم، وأثمرت الخلوة إلىٰ نفسه وتفكره القويم، وسبر غور النفس، والصدق التام في المشاعر في رفض كل معايب الجاهلية، حتىٰ أنه كان يحرم نفسه ليس من اللهو مع أقرانه في هذه المناسبات فحسب بل من أن يطعم من هذه الذبائح التي تذبح لإرضاء تلك الآلهة، وحرم علىٰ نفسه كل لهو لا يراه صواباً وإن جلب له الغضب والتعنيف، فبعدما رفض الصبي الذهاب معهم تحمل غضب عمه أبو طالب وغضب باقي أعمامه وعماته وتعنيفهم له وهنا بدأت خصوصية الصبي الذي يكبر في نظر الاخرين وتحولت الشفقة إلىٰ حب خالص، ثم مع مرور المواقف والأيام إلىٰ حب واحترام، بعد أن كان شفقة فحسب.

لم تكن تلك هي الحادثة الوحيدة في استجلاء خصوصية محمد في مرحلة الصبا، ولو رجعنا إلىٰ ما ذكرناه عن نبي الله يحيىٰ ورسول الله عيسىٰ عليهما السلام في مراحل الصبا، لوجدنا العزلة للتأمل هي أحد الصفات اللازمة لهما، كان أبو طالب يعترض علىٰ رفض الصبي للآلهة فقد كان ككل قرشي وأهل مكة والعرب قاطبة يبجلون الآلهة كموروث ثقافي، ولكنه أيضا كان يلتزم بدوره الذي أوكله إليه عبد المطلب في رعاية محمد، فكما كان عبد المطلب يعضض أبا طالب ويؤازره، لم يكن أمام أبي طالب هو الآخر إلا التعضيد لابن أخيه – كدور أبوي بديل قد وكل إليه – واستسلم أبو طالب لتلك الخصوصية المميزة لابن أخيه.

في الحقيقة، كانت الآلهة موضع تساؤل من العديدين من أهل مكة، خاصة في الأجيال الجديدة، فبعد حادثة الفيل، كان التساؤل عن دور تلك الآلهة في الذود عن الكعبة المشرفة ولقد كان الذود من الله ولم تحرك الآلهة ساكنا، وإن كان الأمر كذلك فما دور تلك التماثيل والأصنام والأنصاب؟

خلق الله الناس علىٰ فطرة واحدة وكانت الفطرة ترفض عادات الجاهلية، والأنبياء موكول لهم، ومطلوب منهم الانحياز للفطرة السليمة، إلا أن الناس تستوحش طريق الحق لقلة سالكيه.

فمن الناس من يرفض تلك العادات جهراً أو سراً للأقربين (وهم أول من يؤمن بالله إيمانـاً واضحـاً) ومنهم من يرفضها في داخله (وهم دائما الرعيل الثاني من المؤمنين بالله) ومنهم من يرىٰ في نفسه وضاعة، لا تؤهله للتفكير والتأمل (وما أن يروا ما عجزوا عن التعبير عنه تشتد نفوسهم وكأنهم قد استيقظوا من السبات) ومنهم من ينحز للوضع القائم ويحارب من أجله علىٰ اعتقاد راسخ بأنه علىٰ صواب (وهم إن حاربوا الإيمان كانوا أشداء عليه وإن آمنوا صاروا أكثر شدة وفداءاً) ومنهم من يستخدم الاعتقاد الخاطئ لزيادة ماله أو ترسيخ سيطرته وسيادته، علىٰ الرغم من يقينهم بفراغة الاعتقاد وصدق الحاجة للتغيير، (وهم الأسوأ علىٰ الإطلاق)

كانت عبادة الأصنام، والغش في التجارة، والدعارة، والتسري بالنساء، والربا، والخمور، وظلم العبيد ووأد البنات والكذب مختلف ألوان اللهو منتشرة بنصيب وافر في مكة وكان الصبي ينظر إلىٰ كل ما حوله بامتعاض، يربأ بنفسه الطاهرة أن ينظر مجرد النظر إلىٰ تلك الموبقات، ليس رأبا لنفسه رأب المحروم المشتهي وإنما رأب الرافض بالفطرة، فلم يكن نأيه عن الموبقات، نأي المحروم العاجز، وإنما كان نأي الرافض المستغني، كان الخلغاء والخليعات يسكنون أطراف مكة وكان محمد يعلم هذا، كان يحب مكة أيما حب فهي موطنه، ولكنه لم يكن ليرضىٰ بفطرته السليمة بما يراه ويسمع عنه، كان صدقه مع الذات قد أظهره منذ صباه الأول بمظهر مكتمل الرجولية وأمانة النفس، فكان كل من عرفه يطلق عليه الصادق الأمين، تحيطه البركة أينما حل، إذا أكل مع ابناء عمه شبع وشبعوا، وإذا أكلوا فرادىٰ لم يشبعوا، فيحرص أبو طالب ألا يأكلوا إلا بحضور محمد، وكان يقول له إنك لمبارك. شعر الغلام بمسؤوليته تجاه الحياة التي يعيشها، وكان تدبير معايش الحياة من ضمن تلك المسؤولية، ورأىٰ أن يشارك عمه في تحمل ولو قدر منها، فكان اشتغاله برعي الغنم في صباه، يرعىٰ غنم أهله دون أجر، وأهل مكة بالأجر، كان يغتبط بهذا العمل، يساهم به في أعباء الحياة فيعطي ما يؤجر كاملاً لعمه، فهو لا يريد شيئا لنفسه فقد كان الزهد هو طبعه، يكتفي بما يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار، وفي تلألؤ النجوم في الليل موضعا للتفكير والتأمل، ومن هذا الباب زاد ذلك من انصرافه إلىٰ التأمل والتفكير، ومرت عليه بضع سنوات تحييه أشعة الشمس ويتأمل الصحراء وهو يرعىٰ القطعان، يشعر بالمسؤولية تجاهها، يحميها من الذئاب، ويحرص علىٰ ألا تضل واحدة منها، فيربي في نفسه ملكات

الانتباه والقيادة، والرحمة لمن يعجمون طريق النجاة، فينصرف عن احتياجاته، ويسمو عليها سمو صاحب المسؤولية تجاه القطعان، ويشغله تفسير مظاهر الطبيعة، وعظمة خلق الكون فيرتفع بتأملاته عن الصغائر يؤمن بأن وراء غير المنظور امتداد لا يعرف إين ينتهي ولا كيف، كان متهيئا لتقبل فكرة اللا نهاية، فإذا أقبل الليل اتجه ببصره للسماء وشهد أرتال النجوم التي تفوق العد والإحصاء وهو يشهد تلك اللامتناهيات مكاناً وزماناً يوماً بعد يوم فيهديه الله لبداية طريق الحق، فكان الله يحفظه ويحوطه من معايب الجاهلية. وفي يوم أراد أبو طالب أن يخرج في تجارة بالشام، وكان الغلام في الثانية عشر من عمره، ورأىٰ أبو طالب بحكمة ومسؤولية الأب أن يطلعه علىٰ جانب آخر من الحياة، قد لا يجد فرصة أخرىٰ ليطلعه عليها، فلم يكن أبوطالب من أكابر التجار، فلا مال زائد عن الحاجة بالقدر الذي يمكنه من تحين الفرص التجارية الرابحة، ولكنه كان تاجرا علىٰ أية حال فرأىٰ أن يكمل إعداده لابن أخيه في هذا المجال خاصة وأن باقي أبنائه قد حظوا بفرص عديدة لمصاحبته في رحلاته السابقة بغرض التعلم والاطلاع، وبقي لمحمد أن ينال نصيبه من تلك الرحلات،

٩- بحيرا الراهب:

خرجت العير من قريش ومحمد علىٰ متنها، وكان الجو قائظاً في تلك الأثناء، فظللت غمامة علىٰ القافلة وما فطن من بالعير إلىٰ من تظلل فحسبوه ربما من حسن فأل القافلة فلما بلغت القافلة بُصرىٰ في جنوب الشام (مدينة بالأردن الآن) نزلوا بمكان قد اعتادت العير أن تنزل به كلما مرت وكان هذا المنزل مجاوراً لصومعةِ راهبٍ اسمه سرجيوس أو جرجيوس (جرجس) يقال له بحيرا الراهب وكان راهباً نسطوريا (من النساطرة) [٤١] ، وقد اطلق عليه هذا اللقب لكثرة علمه، فكان كبحر من العلم، ولم يكن بحيرا الراهب يعني أبداً بتلك القوافل التي اعتادت علىٰ المرور من هذا المكان الذي تشرف عليه صومعته، وكان لا ينزل من صومعته إلا نادرا، لكنه ومن صومعته لاحظ الغمامة التي تستظل هذه القافلة، ودقق

(٤١) النساطرة فرقة مسيحية تتبع نسطوريوس المولود في القرن الرابع الميلادي وكان بطريرك القسطنطينية من عام ٣٢٨-٤٣١ م وله أتباع كثيرين ومبدأه استحالة أن تلد مريم التي هي من البشر ربها، ارجع إلىٰ الجزء الأول من قصة الحضارة ول ديورانت (انتشار المسيحية بحد السيف) ص١٩٥ - ١١٩٦ عد إلىٰ الجزء الأول آخر الفصل الثالث ص٦٥&٦٦ بشارات النبوة

النظر فلاحظ بعدها القوم وهم يرجلون، وصبياً تصحبه الغمامة أنىٰ ذهب وتتبعه إلىٰ أن وصل إلىٰ شجرة [٤٢] ليستظل تحتها، وما أن جلس الصبي تحتها حتىٰ أخضلَت تلك الشجرة أغصانها بوضعية تؤمن وفره الظلال للصبي وحوله دونـًا عن غيره ممن فعلوا مثله، وعلم أن القافلة من مكة أي من جبال فاران. ولما رأىٰ بحيرة الراهب ذلك استرعىٰ انتباهه ذلك الصبي، فنزل من صومعته، وأمر بالطعام ثم أمر بإرساله إلىٰ القافلة وقال لهم (إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، وأحب أن تحضروه كلكم ولا تخلفوا منكم صغيرا ولا كبيرا، حرا ولا عبدا، فإن هذا شيء تكرموني به) وحينها شعر القريشيون بضرورة إظهار الاحترام للراهب المعروف بعلمه، فأتوا للوليمة دون إحضار الصبي محمد معهم إظهارا للاحترام، فهي وليمة (للكبار) ولا يصح وجود الصبية ولما أتىٰ بحيرة الراهب جال ببصره فيهم فلم ير الصبي ولا وجد الغمامة تستظل أحداً، فأصر علىٰ دعوته فأتىٰ الحارث بن عبد الطلب به للوليمة والغمامة تسير أينما سار فجعل بحيرة يلحظ الغلام لحظـًا شديداً ويتفحصه، فلما تفرقوا عن الطعام قام إليه الراهب بحيرا وسأله (يا غلام بحق اللات والعزىٰ إلا أخبرتني عما أسألك) فتغير وجه الصبي وقال الصادق الأمين بلا تحفظ:

(لا تسالني باللات والعزىٰ فوالله ما أبغضت شيئا بغضهما) فتهلل بحيرا فرحـًا، فجعل يسأله عن أشياء من حاله حتىٰ نومه ويخبره الصبي. وبحيرا يستمع إليه فيوافق ما يذكره الصبي ما عنده من علامات، فيدقق النظر بين عينيه وينظر بين كتفيه من ظهره فيرىٰ خاتم النبوة فتذكر قول أشعيا (ولد لنا غلام يكون عجبا وبِشراً والشامة علىٰ كتفيه، أركون السلام) وقريش تنظر لما يحدث بدهشة وهم يتمتمون (إن لمحمد عند هذا الراهب لقدرا) فخاف أبو طالب علىٰ ابن أخيه فسأله الراهب (ما هذا الغلام إليك) فقال (هو ابن ي) فقال الراهب (ما هو بابن ك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون والده حيا) فقال (هو ابن أخي) فسأله (ما فعل أبوه) قال، (هلك) قال (وأمه) قال (هلكت) قال (صدقت، فارجع بابن أخيك واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف لَيَبلُغنه عنتُ فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم) !!

(٤٢)لاتزال تلك الشجرة موجودة بالأردن قرب بصرىٰ، قد أولتها حكومة الأردن عنايتها وهي مزار من المزارات الدينية بالأردن.

خاف أبو طالب علىٰ ابن أخيه مما قيل له، فتعجل الرحيل وتعمد الانتهاء من رحلة التجارة بأسرع ما يستطيع، حتىٰ أنه لم يفد مالا كثيرا من رحلته، فقنع بما عنده، وفي هذه الرحلة مرت القافلة بمدين ووادي القرىٰ وديار ثمود وسمع محمد أحاديث العرب وأهل البادية عن هذه المنازل وأخبارها وماضيها، كان يلتمس الحقيقة العليا مما يرىٰ ويسمع، وفي هذه الرحلة وقف من بلاد الشام وحدائقها وأخبار الروم والنصرانية واليهودية، وسمع عن كتبهم المقدسة والحروب الضروس بين الروم والفرس، يعرض ما يسمع ويرىٰ ويعلم علىٰ بصيرته فيعجب بما يراه جديراً بالإعجاب، ويلفظ ما يراه غريبًا، ويعرف أن أهل الكتاب ينقمون من العرب وثنيتهم فيوافقهم الرأي فيما بينه وبين نفسه، ولكنه لا يطمئن تمامًا لعبادة الأنبياء، فذلك يساوي بين الأنبياء وأصنام التي يعتقدونها هي الآلهة، وجعل قدر الله جل وعلا منذ نعومة أظفاره، يهيئه لليوم العظيم، يوم الوحي الأول حين دعاه ربه لتبليغ الرسالة.

****

(إن له لشأن) (كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم)

جملتان بنفس المعنىٰ. الأولىٰ قد ذكرها عبد المطلب بإحساس أبوي وقد كان بديلاً للأب، وفيه كما ذكرنا سمات فراسة الأب ممزوجة بالحب والاعتزاز تجاه وليد ابنه المفتقد، أما الثانية فلم يكن بها أثر لا للفراسة ولا للاعتزاز أو الحب، بل هي شهادة من عالم وبحر من العلم كما كان يطلق عليه،

إن تلك الحادثة [٤٣]–حادثة الغمامة وتظليل الشجرة– لا تعني أن محمداً، سواء قبل الرسالة أو بعدها عليه الصلاة والسلام كانت الغمامة ملازمة له، ولا تعني أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يُلفح بحرارة الشمس طوال حياته، بل هي حادثة أرادها الله أن تحدث من أجل ما نتج عنها من إخبار مستتر، فالإخبار الصريح بالنبوة لا يجوز ومحمد لا يزال حدثا، ربما لأنه شيء لا يملكه بحيرا الراهب، لا علمًا، ولا وكالة بالإعلان حتىٰ وإن علم، وذلك لأنه لئن تحقق الإخبار الصريح فكان لزاما علىٰ من أُبلغ بنبوته، الإيمان به وهو ما يزال

(٤٣)لم يحدث أبداً بعدها أن التقىٰ رسول الله بنسطورس أو غيره أثناء رحلته لتجارة خديجه فنسطورس كان قد مات منذ القرن الخامس بليبيا كما ذكر في بعض السير ونقل عن كتب بعض المستشرقين.

حدثـًا ولـم يوح إليه، مما يقوض معنىٰ عقلانية الإيمان لدىٰ من يخُبر بصريح العبارة مـن أن هذا الغلام هو النبي المنتظر، فيتبعه مأموراً كل من يسـمع وللنبـوة مقاييس لا تتـوفر بعـد في الصبي.

١٠- حرب الفجار وحلف الفضول[٤٤](٥٨٥ م):

بعد تلك الرحلة عاد محمـد إلىٰ عملـه الـذي اعتـاد عليـه مـن رعـي للأغنـام كمـا كـان يرعاها في أجياد لأهله، يتذكر ما كان من رحلته إلىٰ أرض الشـام، فتتسـع مداركـه، وكـان إذا جاءت الأشهر الحرم إما يظل في مكة مع أهله أو يذهب معهم إلىٰ الأسـواق المجـاورة لهـا بعكاظ ومجنة وذي المجاز، يستمع لأصحاب المعلقـات والمـذهبات، ويسـتمع لخطـب الخطباء، ومنهم من كانوا من اليهود والنصارىٰ الـذين كـانوا ينقمـون علىٰ العـرب وثنيـتهم ويتحـدثون شـعرا أو نثـراً أو خطابـة عـن كتـبهم السـماوية المقدسـة ومـا فيهـا، فكـان بحسـه المرهف يلفظ منها ما لا يستسيغه ويعجب بما يراه جديراً بالإعجاب، لكنه كان يرىٰ في أهل الكتاب أفضال عديدة إن قارنها بما عند أهل الشرك، وكانت العرب تترك لليهود والنصارىٰ إبداء آراءهم دون التعرض لهم ذلك احتراما لأشهر الحرم مما أتـاح للعـرب الاطـلاع علىٰ ثقافة لم يألفوها.

حرب الفجار

كبر محمد، وقد كان عمره يتراوح مـا بـين الخامسـة عشـر والسادسـة عشـر فحـدث في إحدىٰ المرات وفي الشهور الحُرم أن اعتدىٰ رجل قرشي من كنانة علىٰ حرمة تلك الشـهور الحرم بقتله رجل من هوازن، وقصة ذلك أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة بـالعراق كانـت له قافلة من الحيرة إلىٰ عكـاظ، تحمـل المسـك وتجيـئ بـديلا بالأحبـال والجلـود وأنسـجة اليمن المزركشة فعرض كلُ من البراض بن قيس الكناني، وعُروة الرحال بـن عتبـة الهـوازني نفسيهما لحماية القافلة، فوقع اختيار النعمان ملك الحيرة علىٰ عروة الرحـال الهـوازني ممـا أثار حفيظة (البراض بن قيس الكناني القرشي) فقتل (عروة) غيلة في الأشهر الحُرم، فما كان من هوازن وهي قبيلة قوية وعلىٰ دراية عظمىٰ بالقتال، إلا أن أعدت جيشـاً أخذاً بثـأر عـروة وتأهبت قيس عيلان، فلحقت بقريش قبل أن يدخلوا البيـت الحـرام فـاقتتلوا، ونالـت منـهم

(٤٤)من كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد بن منيع الزهري ص ١٠٥-١٠٦ بتصرف.

هوازن وكان علىٰ رأسهم أبو براء بن عامر وسبيع بن ربيعة ودريد بن الصمة (داهية القتال) ومسعود بن معتب الثقفي وأبو عروة بن مسعود وعوف بن أبي حارثة المري وعباس بن رعل السلمي، وتراجعت قريش حتىٰ لاذت من المنتصرين من قبيلة هوازن بالحرم فناداهم رجل من بني عامر (الأردم بن شعيب) :إن ميعاد ما بيننا العام القادم وفي العام التالي استعدت قريش مع كنانة وأسد وخزيمة ومن لحق بهم من الأحابيش وخزاعة وكان علىٰ رأسهم عبد الله بن جدعان (أو حرب بن أمية) وانضم هشام بن المغيرة، وأبو أحيحة بن العاص، وعتبة بن ربيعة، والعاص بن وائل، ومعمر بن حبيب الجمحي، وعكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، واستمرت تلك الحرب أربع سنوات متتابعة ولم تقم سوق عكاظ، إلىٰ أن انتهت بصلح، ودفعت قريش دية عشرين رجلاً لهوازن وتمت إدانة البراض علىٰ فعلته وكان مثلا في الشقاوة بين العرب، عاصر محمدُ هذه الحرب وشارك فيها فيما يبدو، والأمر مختلف عليه فمنهم من قال أنه كان يعد السهام لأعمامه فحسب ومنهم من قال بأنه قد رمىٰ بأسهم فيها، ولكن لدينا حديث شريف ذكر فيه رسول الله ﷺ بعدما كلف بالرسالة يتذكر تلك الأيام قائلا (قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت) وهوما قاله بعدما كلف بالرسالة وكانت أخلاق الأنبياء قد غلبت عليه يندم علىٰ المشاركة، ولو بأسهم ويعترف بكرهه لما تم، وربما لم يكن من الأصل راض عن هذه الأحداث برمتها ومن الإنصاف وإن كنا نحرص علىٰ التأكيد علىٰ ما يتمتع به محمدُ من صفات بشرية أن نذكر استحالة عدم مشاركته لهذا القتال قبل النبوة، ففي حداثة سنه (الخامسة عشر أو السادسة عشر) يناول النبل لأعمامه، ومع طول مدة القتال- بعد بضع سنين- لا بد له أن يرمي بالنِبل وإن لم يفعل فأي خير فيه لأهله وأعمامه وبلده وبني قومه فهو من البشر له أن ينفعل ويتفاعل، أو علىٰ أقل تقدير يقوم بواجب الدفاع عن أهله وعشيرته وبلده مكة كأمر واقع قد فرض عليه أثناء القتال فلا رياسة له فيتبعه الناس ولا رسالة له من الله يوقف بها القتال ولئن لم يفعل لعُيَر طوال عمره ولاتهم بما ليس فيه، أما اعتراف رسول الله ببغضه لشيء قام به قبل النبوة، ولاعترافه بالحق من شيم الطهارة، فهو أثر النفس اللوامة بعدما وعىٰ درس ما كان من الحدث برمته، فهو يعلم بأنها حرب جاهلية وكان يعلم بما قام به البراض من غيلة وقتل لا يجوز حتىٰ في الأعراف الجاهلية، وقد شارك

إذن في الدفاع عن قومه ومدينته، وهو غير راض، لا عما حدث ولا عن مشاركته حرب تنتهك فيه الأشهر الحرم، وسميت بوصفها (حرب الفجار) فلا حرمة رعيت فيها.

حلف الفضول

ولكن الدرس لم تعه كل نفوس قريش كما وعاه محمد، فقد حدث بعدها مباشرة أن رجلا من زبيد قدم إلىٰ مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي ورفض أن يعطيه ثمنها، فاشتكىٰ إلىٰ من كانوا علىٰ حلف بالأمس مثل عبد الدار، ومخزومـًا، وجمحـًا، وسهمـًا، وعديـًا، فلم يكترث له أحداً منهم، فعلا جبل أبي قبيس، وراح بصوت جهوري ينشد الأشعار ويصف ظلامته، فلما سمعه الزبير بن عبد المطلب عم محمد قال: ما لهذا متروك؟، فقام بجمع الأحلاف في الحرب التي مرت، وقاموا إلىٰ العاص بن وائل، فانتزعوا حق الزبيدي، وأبرموا حلف الفضول في شهر محرم وتعاقد فيه بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزىٰ، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، الذين اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي، وتعاهدوا علىٰ (ألا يجدوا في مكة مظلومـًا إلا أن قاموا معه، وكانوا علىٰ من ظلمه حتىٰ ترد عليه مظلمته) ولأنه حلف يحث علىٰ الفضيلة سمي حلف الفضول، وقد شهد الحلف رسول الله قبل النبوة، فقال عليه الصلاة والسلام بعد النبوة في حديث شريف (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفـًا أحب لي من حُمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت) (٤٥)

و الغريب أن حرب الفجار كانت لا تستغرق إلا أياما من كل عام، أما سائر العام فكان العرب يرجعون فيه إلىٰ أعمالهم، لا تحول مرارة الحرب حياتهم إلىٰ تبطل طوال العام أو تمنعهم عما ألفوه، يتاجرون ويشتغلون بالربا، يتسامرون، يشربون الخمر ويتسرون بالنساء مع صاحبات الرايات الحمر من الداعرات في أطراف مكة وغيرها من المدن فقد كان الخلعاء يقيمون في أطراف مكة يقدمون لمن يريد كل أصناف اللهو، أما محمد فلم تكن تلك الحياة تناسبه، كان يسعد بالاختلاء إلىٰ نفسه مع الغنم التي يرعاها، يتأمل الصحراء ويستريح إلىٰ هذا العمل البسيط الذي لا يدر عليه من المال إلا النذر اليسير، كان يرىٰ في خشونة الحياة متعة لا تضاهيها مغامرات الناس التي يسمع عنها، وتعفها نفسه الطاهرة،

(٤٥) ابن هشام ١\١١٣، ١١٤|مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٠- ٣١.

يستمتع باللذة النفسية التي تتاح له من رعي الأغنام من تأمل الكون من حوله يسبر غور نفسه وهو راض وقانع بخشونة عيشه وصفاء نفسه لا يتوق إلىٰ المال أو لعب الميسر أو شرب الخمر أو التسري، ولا يرىٰ في نفسه إلا مستمتع بالحياة فيما يستمتع به.

١١- الصادق الأمين

ومحمد قد خلقه الله سبحانه وتعالىٰ بشراً سوياً، خلقه كما خلق سائر البشر، واصطفاه الله وطهره من بينهم كما اصطفىٰ سائر الأنبياء والرسل، كل نبي ورسول قد أوكل الله إليه مهمة محددة يقوم بها لإبلاغ الناس بالرسالة الإيمانية، وفي التوقيت الذي يحدده الله جلت حكمته، خلق الله سبحانه وتعالىٰ محمداً عليه الصلاة والسلام، يسعد ويحزن يرضىٰ ويغضب يحب ويبغض يضحك ويبكي يأمن ويخاف، يصيب ويخطئ ينشط ويتعب يجوع ويشبع لكنه يعف ولا يشغله إلا العفاف لم يكن محمد قبل الرسالة ملاكاً ولا كان بعد الرسالة محمدُ ﷺ إلا بشر، وهو أجمل ما فيه فبشر لا يملك إلا أخلاقه فيؤمن به الناس وبما أوتي من كتاب دون عصا سحرية أو خوارق مثل إيقاظ الموتىٰ وإبراء الأبرص لحري بنا أن ندرك أن خوارقه هي أخلاقه.

حدثه زميل له أثناء رعيهما للغنم عما يحدث في أطراف مكة، (فكم من البشر من يتطوعون للقيام بمهام الشيطان) ولا أحسب إلا أن محمداً قد قاوم وتعفف - رغم كونه في سن الشباب - إلا أنه قد نأىٰ بنفسه عما يدعوه إليه زميله، أما زميله، فلا يزال به يومياً يزين له اللهو، يسهل الأمر عليه، ويعرض خدماته بحراسة الأغنام عوضا عنه إن هو أراد، وقد كان محمدُ في سنِ يتأثر فيه الصبية بمثل هذه الإغراءات وحتىٰ إن نجح المراهق -أي مراهق- في مقاومة الإغراء، يظل أقرانه من المراهقين يعيرونه لإحجامه وتردده، كان ذلك يتم في كل الأزمان حتىٰ يومنا هذا، ومحمد الشاب هو من البشر ؛ الا أن الله سبحانه وتعالىٰ قد حفظه، وصانه، إذ بعد نجاح تأثير زميله عليه حدثته نفسه البشرية يوما أن يذهب في جنح الليل وطلب منه أن يقوم بحراسة أغنامه وقد كان محمد شابا، يريد أن يستطلع ما يفعله الشباب، وما أن بلغ أعلىٰ مكة حتىٰ استرعىٰ انتباهه عرسُ، وأصوات أنغام موسيقية بارعة ما سمع مثلها من قبل تصدر من أحد البيوت المقام فيه العرس، فجلس يستمع للأنغام، ثم ما لبث أن نام إلىٰ الصباح وفي اليوم التالي حاول مرة أخرىٰ أن يستجيب إلىٰ ما يدعوه إليه

زميله، وحدثت نفس الأحداث السالفة، فلما عاد لزميله فسأله، فرد محمد بوضوح، (ما لهذا خلقت) وهي نفس الكلمات التي قالها نبي الله يحيىٰ [٤٦] عند موقف مشابه، فترىٰ من أوحىٰ إليهما أن ينطقا نفس الكلمات، وأي طبيعة خلقهما الله عليها،

ولا شك في أن الله جل وعلا قد حفظه، فعندما تتحرك نوازع النفس ولو للاستطلاع تتدخل العناية الإلهية للحيلولة بين من اختاره الله وما يختاره المختار، وقد روىٰ الرواة عن رسول الله ﷺ قوله (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ثم ما هممت به، حتىٰ أكرمني برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعىٰ معي الغنم بأعلىٰ مكة: لو أبصرت لي غنمي حتىٰ أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال أفعل، فخرجت حتىٰ إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا، فقلت ما هذا، فقالوا: عرس فلانُ بفلانة، فجلست اسمع فضرب الله علىٰ أذني فنمت، فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلىٰ صحبي فسألني، فأخبرته، ثم قلت ليلة أخرىٰ مثل ذلك، ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بسوء) [٤٧] وفي هذا الحديث يقول رسول الله (مرتين) والفائتة مرة، أما الأولىٰ فقد ذكرناها من قبل إذ كانت كل مكة بما فيها قريش تحضر مناسبات للآلهة، فيمرح فيه الأطفال ويطعمون وكذلك الكبار، ونعلم جميعاً شغف وولع الأطفال بهذه المناسبات، وقد رفض الصبي محمد الذهاب للاحتفال بصنم (بوانة) واعلن صراحة بغضه للآلهة إلا أنه قد أكره فيما يبدوا بضغوط من أعمامه ولكن ما أن وصل حتىٰ أراه الله ما أفزعه فعاد مهرولاً مفزوعاً.

إن الله بالغ أمره، وإن كان الله سبحانه وتعالىٰ قد اصطفىٰ محمداً، فهو خيار من خيار فيحفظه ويحميه من الناس ومن الأحداث ووسوسة شياطين الجن وشياطين الإنس فقد حبب الله إليه الطهر والعفة، الصدق والأمانة الكمال والقيم العليا، والله خالق الكون وفالق الحب والنوىٰ لقادر علىٰ أن يفلته من الأخطاء البشرية التي قد يقع فيها غيره من البشر فلمحمد مهمه أرادها الله ولا سبيل لمحمدٍ إلا القيام بها، فريداً بين الناس وفذّاً بين الأنبياء، ومرت السنون علىٰ محمد تكتمل صفاته الرجولية بمرور الوقت، فيتحول من طفل رضيع محاط بالشفقة والتحنان، إلىٰ صبي يستأثر بالحب والبركة، ثم فتىٰ يثير الإعجاب فشاب

(٤٦)عد إلىٰ ص ١٢٠ في الجزء الأول من هذا الكتاب - يحيىٰ بن زكريا.

(٤٧)اختلفوا في صحة هذا الحديث فصححه الحاكم والذهبي وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية ٢\٢٨٧.

موثوق به مسلم له بالتفرد الأخلاقي لا يشغل باله إلا التفكير ومكارم الأخلاق وسبر غور نفسه والتأمل فيما خلق الله، يعجب ويسعد فيما يراه في وحدته، يسوس الأغنام كي ترعىٰ بأمان، فأكسبته مهنته الصبر والحذر والحكمة،

بعد حرب الفجار وحلف الفضول اكتمل نمو الفتىٰ فكان محمد جميلاً وسيم الطلعة، فوق الربعة في الرجال ليس بالطويل بائن الطول ولا بالقصير بائن القصر، ضخم الرأس أزهر اللون كأن الشمس تجري في وجهه، ذا شعر بين الجعد والرجل، شديدُ سواده، مبسوط الجبين فوق حاجبين سابغين منوَنين متَصلين، واسع العينين أدعًجهما تشوب بياضهما حمرة خفيفة من الجانبين فتزيد في قوة جاذبيتهما وذكاء نظرتهما أهداب طوال حالكة السواد، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم، في وجهه تدوير، كث اللحية، مستوي الأنف دقيقه، مفلج الأسنان، طويل العنق جميلة، عريض الصدر رحب الساحتين، غليظ الكفين والقدمين، إذا مشىٰ أسرع الخطىٰ في خطواته سعة وثبات، يسير ملقياً جسمه إلىٰ الأمام وفي نظراته سلطان الآمر رغم بساطته، يهابه كل من يراه، كان يجالس الأصدقاء والقرناء وكل من خالطه يحبه ويحترمه، ومن رآه هابه فقد كان قد جُبِل علىٰ سعة الصدر، جم التواضع، كامل الرجولية، محباً للعدل، يبغض الكذب وعلىٰ الرغم من مجالسته الأصدقاء والقرناء، كان لا يلهو لهوهم، وإن كان لا يأبىٰ أن يشارك في مفاكهة أو أن يمزح، يبتسم لما يفعلون إن كان لهوا بريئا، فقد كان ضحاكاً بساماً [٤٨] حتىٰ في صمته، وكان يضحك أحيانا حتىٰ تبدو نواجذه، ويظهر عليه الامتعاض عند التجاوز، ليس بفحَاش ولا بصخَاب ولا لعَان ولا كان فظاً، لا يجزي السيئة بالسيئة، حليماً يكظم غيظه واسع الصدر، يعفو ويغفر ولكنه إن غضب لم يظهر عليه إلا نفرة عرق بين حاجبيه، ويكره أن يُظِهر غضبه، يصبر وينتحل لغيره الأعذار، صادق القول والهمة، عظيم الوفاء، حسن العشرة شديد الكرم والجود والبر، فلم يُسأل شيء يقدر عليه قط فمنعه إلا أن يُسأل مأثماً، ولا يُخَيَّر بين أمرين إلا اختار أيسرهُما ولا ينتقم لنفسه شيئا، يصمت أغلب الوقت غارقا في تأملاته، وإن تحدث صمت الجمع من حوله فلا يقول أبداً إلا حقاً وصدقاً بكلام فصل، والأجمل أن كان في صوته بحة محببه وكان صوته عميقا، رخيماً، وكان وقع كلامه علىٰ

(٤٨)مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٨٢ الطبقات الكبير بن سعد.

الآذان كالترتيل والترسيل (٤٩) يحفظه كل من يسمعه، عظيم الذكاء، وكثير الإنصات، حسن الإصغاء، لا يدعوه أحد من الناس حتىٰ أجابه سيداً كان أم عبداً، لا يلوي عن أحد وجهه، بل يلتفت إليه بكل جسمه، إذا لقيه الرجل وصافحه لم ينزع منه يده حتىٰ يكون من صافحه قد نزعها ولا يصرف وجهه عنه إلا أن يكون الرجل قد صرف وجهه عنه، ميالاً للجد من القول، ماضي العزم والإرادة، لا يعرف المستحيل ولا يعرف التردد محبـاً لليتيم ناصرا للمظلوم والضعيف، ودودا، وشفيقـاً، لا يرتدي إلا الثوب النظيف، يغتسل كثيراً، ويتطيب كثيراً.

في هذه الأثناء كانت لمحمد مكانة معترف بها ليس بين الأقران له فحسب وإنما اشتهر عنه لقب (الصادق الأمين) بين أرجاء مكة كلها محاطا بين الناس بالإعزاز، ويشعر أعمامه وقريش كلها تجاهه بالاعتزاز والغبطة، يسعد أصدقاؤه به وبآرائه واكتمال خلقه وخلقته، ولو تصور واحد منا – سليم النفس – أن يلتقي في شرخ شبابه بمن يمتلك تلك الصفات مجتمعة في شخص واحد، لكان المردود النفسي علينا لا يحيد عن الإكبار والاحترام، ولئن كان صادق النفس لأحبه، ولو كان موضوعيا لتبعه أينما ذهب، فالنفس البشرية السليمة لا تنشد إلا الكمال والاكتمال، علىٰ جانب آخر فقد كانت بعض النفوس المريضة، تنفر ممن يفضح دونيتهم، ويكشف عن عجزهم الروحي، فالكمال يكشف النقص ويبرزه والطهر يكشف الدنس، فيحل الإنكار محل الإكبار، وينقلب الإعجاب إلي عجب واتهام، والمحبة إلىٰ بغض وكراهية، (٥٠) من الناس من يرىٰ في اجتماع تلك الصفات في شخص واحد أمراً ممكنـاً للعديدين في هذا المجتمع ولا يستحق الأمر إلا الإعجاب، والرؤية علىٰ غرابتها ممكن تفنيدها، فلو كانت تلك الصفات مجتمعة ومتوفرة قبل أو في غير محمد أمراً ممكنـاً،

---

(٤٩) الصالحي ج ٧ ص ٢٠٣ نقلا عن بن سعد.

(٥٠)وعلىٰ النقيض مما سبق فقد يجد فريقٌ في تلك الصفات مبالغة، مصدرها الحب أو الادعاء والتهويل – رغم إجماع الرواة واتفاقهم – وأولئك نستطيع أن نجد لهم العذر في هذا الاعتقاد، فكل امرئٍ هو أسير مقاييسه الذاتية، حتىٰ وإن كان أمينا فهو أسير لمقاييس مجتمعه الذي يعايشه، أما عن الحب الذي قد يكون مصدراً لتلك الصفات فكيف أحبوه ولماذا؟ فقد حكم له وعليه أعداؤه قبل أن يحكم له من اتبعه وأحبه، وفوق كل أولئك وهؤلاء قول الله تعالي عليه (وإنك لعلىٰ خلق عظيم) ولقد أقر عدوه أبو سفيان بن حرب ما عليه من أخلاق أمام هرقل كما سيأتي.
وفريق يجد استحالة أن تجتمع كل المثالب في رجل واحد إلا لوكان هذا الرجل ملاكا أو معجزة إلهية، ولأولئك نقول، بل هو محمد (صلىٰ الله عليه وسلم) قدوة العالمين وكانت أخلاقه من معجزات الله فيه وكانت أخلاقه هي خوارقه

لما عانىٰ المجتمع القرشي ولما نشبت حرب الفجار، ولأمكن لهذا المجتمع علىٰ أقل تقدير أن يسيد واحد من أولئك العديدين ملكـًا عليهم، والأحداث القريبة التالية قد أثبتت تفرد فتىٰ قريش في الكمال كما في أحداث إعادة بناء الكعبة ولعقة الدم كما سنرىٰ.

أما عن الادعاء والتهويل فإننا نحيله لزخم الأحداث التالية في سيرة محمد قبل الرسالة وسيرة رسول الله ﷺ بعدها، فتلك الصفات كانت من علاماته منذ كان فتىٰ فقيراً وبعدها رجلاً ميسورا، فنبيـًا مضطهداً ومكذبـًا، ثم نبيـًا مؤزراً ومنصوراً، فتدين له الجزيرة العربية كلها، ويحسب حسابه خارجها، وهو لا يتغير.

١٢ - البحث عن الحقيقة واحتضار النظام الاجتماعي:

كانت العرب، وكانت مكة، وكان القريشيون علىٰ وجه الخصوص في هذا الوقت في حالة ضياع مستتر- بعد أصحاب الفيل - فقد شعروا مباشرة بعد هذا الحادث بعجز الآلهة وبفراغ دينهم القائم علىٰ تقديسها، وذبح القرابين لها، لكن مكة كانت تنعم من وراء مكانة الكعبة بالرخاء واتصال التجارة، إلا أن زوال تقديس الأصنام في نفوس العرب والمكيين والمتاجرة بها لم يغير من هذه المكانة للبيت العتيق، فكان سادة قريش وسادة العرب لايزالون يظهرون التقديس للآلهة حفاظا علىٰ موسم السياحة (الحج) الذىٰ يعتمدون عليه لتصريف البضائع وتوكيد سيادتهم الروحية علىٰ العرب.

كانت الأوضاع السياسية الداخلية (إن صح التعبير) وانحلال سلطان آل هاشم - بعد وفاة عبد المطلب - تنبئ بمعاودة الصدام بين بني أمية وبني هاشم من جديد، فكان فريق بني أمية يستعد للوثوب إلىٰ انتزاع حق بني هاشم الذي اتفق عليه منذ أكثر منذ ثلاث أرباع قرن خاصة مع ازدياد مال ابناء أمية بن عبد شمس وزيادة نفوذهم وتجارتهم، وعمد كل فريق إلىٰ التباري في اصطناع التقديس الزائد للآلهة كسبا لقلوب المخدوعين فيهم، وإلىٰ استخدام المزايدة في التقديس وسيلة لحفظ النظام ومنع بلبلة الأفكار، وعلىٰ مسافة قريبة كانت قبيلة مخزوم (صاحبة راية الحرب وقيادة الجيش الأكثر ثراءا والأكثر عددا) تستعد للانقضاض عليهما معـًا وانتزاع السيادة، وأدىٰ انحلال السلطان في مكة إلىٰ مزيد من حرية الناس في الجهر بالابتعاد عن الآلهة، وإلىٰ إقدام اليهود والنصارىٰ جهراً إلىٰ معايرة العرب

لعبادتهم الأوثان، وكانت العرب تلتفت إلىٰ مثل هذه الأقوال حتىٰ صار بعضهم يردد قصصا دينية عن اليهودية والنصرانية بعيدا عن أن يتصل بأمجاد قريش وأشراف أهل البلد الحرام، فعمدوا إلىٰ صم آذانهم حتىٰ لا يشغلوا أنفسهم وبالهم بما لا يقدرون علىٰ مواجهته، إلا أن أهل الكتاب كانوا أيضا يتحدثون عن نبي يظهر بين العرب، فأخذت الفكرة تقض بعض المضاجع، ولقد عتب أبو سفيان بن حرب بن أمية علىٰ أمية بن أبي السلط (الذي كان يتمنىٰ أن تكون النبوة من نصيبه) كثرة تكراره لما يذكره الرهبان من هذا الأمر إذ كان يمهد لنفسه أن يتبوأ هذا الشرف وإن كان الإحساس بالضياع قد بدأ مستترا، إلا أن الاستتار جعل ينزوي مع الوقت ويحل محلة شعورا بالامتعاض، وسرعان ما تحول الاستتار في رفض الآلهة إلىٰ الاستهتار بها خاصة في أوساط الشباب، مما أعاد للأذهان ما قام به جدهم إبراهيم عليه السلام من تحطيم أمثالها في مدينة أور الواقعة جنوب شرق الفرات منذ عشرات القرون وتغوُط (حذيفة بن عبد الله بن فقيم) بكنيسة القليس التي بناها أبرهة الأشرم منذ عقود قليلة عام ٥٧٠ ميلادية، فبدت لهم فكرة التغوُط فكرة جيدة فيما يبدو، فقد كان أهل مكة يستيقظون كل صباح فيجدون فضلات آدمية علىٰ تلك الآلهة وحولها فيزيلونها خوفا من تفشي هذه الظاهرة بين أوساط الشباب الذين كانوا يتسامرون ليلا في السخرية من الآلهة وإن كان ذلك يجري في أوساط الشباب، بما يعرف عنهم حتىٰ في زماننا هذا بالجرأة والتوق إلىٰ التغيير، فقد كان شكًا عظيما يدور أيضًا في عقول بعض الرجال، فقد حدث أنه بينما كانت قريش مجتمعة يومًا في عيد لهم عند صنم العزىٰ وهو من أصنامهم التي يعكفون عندها ويدورون به وكان ذلك عيدا لهم كل سنة، وإذ ذاك خلص أربعة منهم وهم: زيد بن عمرو بن النفيل بن عبد العزىٰ بن رباح، وعبيد الله بن جحش بن رئاب، وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي، وابن عمه عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي (وكلاهما ابناء عم خديجة بنت خويلد رضي الله عنها) فقال واحد منهم للآخرين كلاما يعرف أنهم جميعا يتفقون عليه (تعلموا والله ما قومكم علىٰ شيء وإنهم لفي ضلال، فما حجر نحيط به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه يجري دم النحور، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا غير الذي أنتم عليه فوالله ما أنتم علىٰ شيء) فتفرقوا بعدها، كل يبحث في الأمر وعن الحقيقة،

١. فزيد بن عمرو بن النفيل بن عبد العزىٰ بن رباح العدوي: وهو والد سعيد بن زيد (أحد العشرة المبشرين بالجنة) وابن عم عمر بن الخطاب فقد كان يعيب علىٰ قريش شركهم وذبائحهم فيقول (الله خلق الشاة وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها الأرض ثم تذبحونها علىٰ غير اسم الله) وكان يطلب دين إبراهيم عليه السلام فخرج إلىٰ الحيرة وتعلم علىٰ أيدىٰ الصابئة (٥١) ومات علىٰ دين إبراهيم وكان يتعبد مثلما يتعبد الصابئة يركع ويسجد علىٰ راحة يده مثلهم، وكان الخطاب بن النفيل (عمه) صاحب غلظة فآذاه حتىٰ لا يفسد دين قريش فاضطره إلىٰ الخروج إلىٰ أعلىٰ مكة فنزل حراء، ولما مات (قبل نزول الوحي علىٰ رسول الله وقيل في صبا محمد) رثاه ورقة بن نوفل أما رسول الله ﷺ فقد قال بعد الرسالة عندما سئل عنه (يبعث أمة وحده يوم القيامة)

٢. أما عبيد الله بن جحش بن رئاب (ابن عمة الرسول) : فقدىٰ بقي علىٰ ما هو عليه من الالتباس حتىٰ بشر رسول الله ﷺ برسالة الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلىٰ الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية (أم المؤمنين) ثم تنصر وارتد عن الإسلام وهلك في الحبشة علىٰ النصرانية فتزوج رسول الله أم حبيبة كما سياتي فيما بعد.

٣. وبالنسبة إلىٰ ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي والذي يشترك مع رسول الله في النسب عند قصىٰ، وكان يكبره ﷺ بأكثر من عشر سنين وهو بن عم خديجة، بحث في الأديان ورأىٰ أن يستحكم إلىٰ النصرانية التي انتهت إليها الرحلة الإيمانية وقيل أنه نقل إلىٰ العربية بعض ما في الإنجيل.

٤. وآخرهم: عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصىٰ وهو يشترك مع رسول الله في النسب عند قصي بن عم ورقة وخديجة، وقد اختصر الطريق وزاد علىٰ

(٥١) الصابئة – وهي أحد الديانات السماوية المعترف بها من القرآن، دلت الحفريات في العراق أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين ولا يزال بقايا من الناس علىٰ هذا الدين حتىٰ الآن وقد دان بها بعض أهل الشام واليمن في غابر الزمان كما ذكر في (تاريخ أرض القرآن) ١٩٣\٢ إلىٰ ٢٠٨ وهىٰ معروفة الآن بالصابئية المندارية وقد ذكرهم الله تعالىٰ في سورة البقرة الآية ٦٢ (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارىٰ والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ولا يزال بعضهم في العراق.

ما انتهىٰ إليه بن عمه ورقة فذهب إلىٰ قيصر ملك الروم في بيزنطة (القسطنطينية) وحسنت مكانته عند القيصر فأراد أن يخضع مكة لسلطان الروم ويكون عامل قيصر عليها بعدما فشل أبرهة في نشر المسيحية في الجزيرة العربية، فطرده المكيون فاحتمىٰ بالغساسنة في الشام، فأراد أن يقطع تجارة مكة عن الشام، وما أن وصلت هدايا المكيين إلي الغساسنة حتىٰ مات بن الحويرث عندهم مسموماً.

لم يكن أولئك الأربعة أول ولا آخر من كانوا علىٰ يقين بفراغة عبادة الأصنام والشرك بالله، كان العرب والمكيون في شك عظيم، فهم يعلمون جيداً كيف انحرفت أفكارهم ومعتقداتهم عن الدين الحنيف الذي ورثوه عن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام إذ تسبب طول الزمان في تفشي الوثنية بالتدريج فيهم فمن احترام الكعبة إلىٰ تقديس حجرها الأسود إلىٰ عبادته إلىٰ عبادة تماثيل نحتوها لهم أو رسومات لإبراهيم وإسماعيل إلىٰ أنصاب وأزلام وتماثيل وخلال تلك المراحل صارت للكعبة قدسية مرتبطة بما عرف عمن أنشأها، ونسوا معنىٰ الألوهية السامي ويذكرون عمرو بن اللحىٰ كبير خزاعة الذي استحسن التقرب إلىٰ الله بعبادة الأوثان وأتىٰ بهبل معه من الشام فأجابوه، وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام دين أهل الجاهلية وهم لا يزالون يزعمون أنهم علىٰ دين إبراهيم فيقولون كما ذكر عنهم القرآن الكريم قوله تعالىٰ «ما نعبدهم إلا ليقربونا لله زلفىٰ» وفىٰ قوله تعالىٰ من سورة يونس (الآيه١٨) «ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض، سبحانه وتعالىٰ عما يشركون» وهم في ذلك الوقت يعتقدون في بادئ الأمر أن عمرو بن لحىٰ قد ابتدع بدعة حسنة، حتىٰ انتهىٰ بهم الأمر أن عيرهم أهل الكتاب وأيقنوا بعد أصحاب الفيل أن لا فائدة لتلك الآلهة، تماما كما أيقنوا بحرمة البيت الذي يحميه الله، كذلك بالإضافة إلىٰ كراهتهم أن ينضووا تحت وصاية قيصر الروم، أو ملك الحبشة، فكان رفضهم لكنيسة القليس، تماماً كما رفضوا رغبة عثمان بن الحويرث في أن تخضع مكة لسلطان الروم، وعجبوا لانضواء اليمن لسلطان الفرس مرة وأحباش مرات، وكانت الرغبة في استعادة دين التوحيد الذي كان عليه جدهم إسماعيل بن إبراهيم، ولذا لجأ بعضهم للصابئة، وكان هناك اتجاه آخر بتتبع تطور الرحلة الإيمانية عبر اليهودية فالمسيحية اللتان تكفر إحداهما الأخرىٰ، وكانت تجربتهم مع أبو نواس الحميري وقصة الأخدود، وعنصرية اليهود،

وسماعهم عن المسيح عيسىٰ بن مريم تبعدهم عن اليهودية أميالاً، وربما كان ذلك ما حُصِرَ أغلبهم ما بين النصرانية والصابئة دين إبراهيم الحنيف، إلا أن تماثيل العذراء والمسيح وقصة تأليه المسيح بالإضافة إلىٰ الخشية من سطوة الدولة الرومانية من عوامل النفور، ولم تنقذهم إلا أن يلوذوا بدعوة جدهم إبراهيم الحنيف عليه السلام من حيرتهم، ولم يقتصر اجتهاد الأفذاذ من العرب علىٰ أهل مكة، بل كانت تلك الشكوك تسود عقول العرب جميعهم فقد كان سويد بن الصامت (وهو من كبار أشراف يثرب) واحد من أولئك الذين تشغلهم تلك الأزمة الإيمانية وكان أبو ذر الغفاري أيضا من أولئك الأفذاذ إلا أن وجوده

في البادية لم يتح له فرصة التعلم من بيئة الحضر بما فيها من اتصال بالديانات الأخرىٰ كمن سبق وذكرناهم، فخلص إلىٰ وجود إله واحد يدعوا إلىٰ مكارم الأخلاق وظل يتمنىٰ أن يهديه الله حتىٰ سمع عن رسول في مكة أما الطفيل بن عمرو الدوسي فقد كان شريفا عربيا وشاعراً لبيباً أيضا يبحث عن الحقيقة فآمن بعد الرسالة وقيس بن ساعدة الأيادي بنجران وكان خطيب العرب وحكيمهم (٥٢) وأمية بن أبي الصلت وهو من كبراء قريش وكان قد سمع بظهور نبي من العرب فكان يطمع أن يختاره الله للنبوة، وكان شعره داعيا إلىٰ الله. ومن خارج الجزيرة العربية كان سلمان الفارسي وهو واحد من النماذج الفذة من غير العرب ممن يبحثون عن الكمال في العقيدة وكان العديد من يهود الجزيرة العربية في يثرب وغيرها لهم بعض التساؤلات، وفي انتظار نبي من آل إسماعيل، وكذلك كان من أهل الكتاب كنصارىٰ ويهود الشام والحبشة ومصر علىٰ علم باقتراب ظهور نبي من الإسماعيليين، فكانت التربة مهيأة لعبد الله بن سلام بن الحارث في يثرب وقيس بن نشبة وكان منجما متفلسفا وواعدا بمقدم نبي، أما شقاً وسطيحاً فقد كانا كاهنين يخبران بظهور نبي قبل زمان ظهوره، وقد كان ذلك يأساً مما هو متاح في الأديان المعروفة وبحثا عن الدين الحق وكذلك للنجاشي نسطوريا. وهكذا فلم تكن الدعوة غريبة وإنما كانت تلك الإرهاصات والأفكار، وكانت الرغبة في التغيير، والثورة علىٰ الشرك تمثل نقاط تحول في

(٥٢)ضرب به المثل في البلاغة وكان أول من جعل فصل الخطاب ومن كلماته التي تدل علىٰ اجتهاده الفذ (أيها الناس اسمعوا واعوا إنه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم يزهر وبحار تزخر، إن لفالسماء لخبرا وإن لفي السماء لخبرا وإن لفي الأرض لعبرة، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا؟؟ أم تركوا هناك فناموا، يا معشر إياد أين الآباء والأجداد؟؟ وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا وأطول آجالا طحنهم الدهر بكلكله ومزقهم بتطاوله.

حياة العرب والعجم سواء بسواء ولم تكن الجزيرة العربية وحدها هي التي تبحث عن الحقيقة، بل كان هذا البحث الدائب يشغل عقول المجوس والنصارىٰ واليهود وعجت أوروبا وآسيا بتيارات من أصحاب الديانات التي طالها التحريف في محاولات فردية للوصول إلىٰ الحقيقة، ولم يتبق سوىٰ عوامل تحقيق الهداية بما تحتويه هذه العوامل من تساؤلات، الأول وهو عامل الزمن والسؤال، بمتىٰ؟ أما الثاني فهو عامل الكينونة والسؤال، بمن؟ ويتبقىٰ الثالث وهو عامل الوسيلة والسؤال، بكيف؟ فذلك شأن الله القادر والعليم. لم يكن محمد بعيداً عن هذه الإرهاصات والأفكار وهذا التحير، بل كان بالتأكيد أكثر الناس امتعاضا من الآلهة وبغضا لها، وأكثر من في الأرض حرصا علىٰ استجلاء الحقائق، لم يكن يعلم ولا يطمع في أن يكون هو المختار الذي سيأتي من الله، بل كان شأنه هو شأن من حوله ومن سمع عنهم من الأفذاذ، يبحث بدأب عن الحقيقة كلما اختلىٰ بنفسه في الصحراء، وهو يرعىٰ الغنم.

١٣ - محمد متاجراً:

لم يكن لمحمد عمل معين في أول شبابه، اللهم إلا رعيه للغنم في بني سعد [٥٣] في مكة ولأهلها علىٰ قراريط [٥٤] وقد كان هذا العمل مناسباً لمحمد الذي يهوىٰ الانفراد بنفسه والتأمل فيما خلق الله، فقد كان يستريح إلىٰ عمله البسيط هذا الذي يتيح له التفكير والتأمل هذا العمل الذي لا يدر علىٰ صاحبه أخلاف الرزق، أو يفتح أمامه أبواب اليسار، وقد ظل وقتها وطوال عمره بعدها لا يحتاج من الحياة إلا ما يقيم صلبه، كان لا يأكل حتىٰ يجوع، وإذا أكل، يحرص علىٰ ألا يشبع، حرص علىٰ حياة الشظف مستمتعا بخشونة حياته، فأولئك الذين يتوقون إلىٰ المال ويلهثون وراءه، إنما يخشون المستقبل المجهول أو يبحثون عن إرضاء شهوات لم يعرفها محمد طوال حياته، فقد كان عظيم النفس لا يخشىٰ الغد فهو ملك لله ولا يبحث عن شهوات ولذات، فقد كان يستمتع بثروة نفسية كبرىٰ فينتظم فيما حوله الكون في قلبه.

(٥٣)ابن هشام ١\١٦٦.

(٥٤)فقه السيرة لمحمد الغزالي ص ٥٢.

وكانت حكمة الله – بعد أن تشبعت نفسه الشريفة بالثروة النفسية – أن يغترف من الحياة العملية والواقعية ما شاء له الله أن يغترف، كترتيب إلهي لا مناص منه.

كان لزاما علىٰ عمه أبي طالب – كأب بديل – أن يبدي له النصح كما يراه لحياته المستقبلية، فرأىٰ أن يبحث لابن أخيه عن سبب للرزق أوسع مما يجيء من رعيه للغنم وقد كان عمه حليف فقر وكثير العيال، وقد بلغه يوما أن خديجة بنت خويلد تستأجر رجالاً من قريش في تجارتها فنادىٰ ابن أخيه، وكان محمد يومئذ في الخامسة والعشرين من عمره وقال له: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وقد بلغني أن خديجة استأجرت فلانا ببكرين، ولسنا نرضىٰ لك بمثل ما أعطته، فهل لك أن أكلمها؟، قال محمد: ما أحببت (أي كما تريد أن تفعل فافعل)

خرج أبو طالب سيد قريش وسيد مكة إلىٰ خديجة القرشية، وكان خروجه يمثل حدثا كبيرا في حد ذاته، أما خروجه في طلب أيٍ مطلب كان، فقد كان يمثل شرفا عظيما للمطلوب منه، وذهب لخديجة وقال لها: هل لكِ يا خديجة أن تستأجري محمداً؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانــًا ببكرين، ولسنا نرضىٰ لمحمد دون أربعة أبكار [٥٥]

كان جواب خديجة يعبر عن الإكبار الذي تكنه هي وتكنه مكة كلها لسيد قريش كما كان يعبر عن مكانة فتىٰ قريش محمد في نفوس الناس فقالت:

لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته لحبيب قريب!،

عاد العمّ إلىٰ ابن أخيه، يذكر له الأمر ويقول له: هذا رزق ساقه الله إليك. وفي الحقيقة فلم يكن محمدُ طامعــًا في البكرين أو الأربعة، ولوتُرك لنفسه لآثر أن يعيش حياة الشظف، ولكن ما أن عرض عليه عمه الأمر شعرت نفسه الكريمة بضرورة تفريج كربة عمه فأجاب تحملاً للمسئولية ليس إلا.

١٤ - خديجة بنت خويلد المخزومية:

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هرم بن رواحة بن حُجر بن عبد معيص بن عامر بن لؤي [٥٦]

---

(٥٥)البكر هي الأنثىٰ من الإبل.

(٥٦)كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد بن منيع الزهري ص١١١.

امرأة حازمة، جلدة، جميلة، شريفة وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسبـًا، وأعظمهن شرفـًا، وأكثرهن مالاً، كانت تدعىٰ في الجاهلية بالطاهرة، كما كانت تلقب بسيدة قريش [٥٧] وكانت تبلغ الأربعين، تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها يضاربون لها بشيء تجعله لهم، وكانت تقوم علىٰ مالها بمعونة أعمامها وبعض ذوي ثقاتها، فقد مات أبوها خويلد قبل حرب الفجار، وهي كما ذكرنا امرأة ثرية فقد كانت من بني أسد الأثرياء، زاد ثراؤها أنها كانت قد تزوجت من قبل مرتين من رجلين (وهما عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وولدت له هندا بنت عتيق، وبعد وفاة عتيق تزوجت النباش بن زرارة وولدت له هندا وهاله بنات أبي هاله) [٥٨] وهما من أثرياء بني مخزوم، وترملت فورثت مما جعلها من أوفر نساء أهل مكة مالا، وقد ردت خطبة الذين خطبوها من كبار قريش بعد ترملها، كانت تراهم ينظرون إلىٰ مالها فامتنعت عن الزواج، وعملت علىٰ أن تقف جهدها علىٰ تنمية ثروتها فتعيش بمفردها بعد زواج بناتها.

لم يكن محمد بالنسبة إلىٰ خديجة إلا قريب لها، تعتز بما عُرِفَ عنه من خلال تزينه وتميزه الأخلاقي بين فتيان قريش، مما يجعل كل قريب له يفخر به ويحبه، وكان شأن خديجة في ذلك شأن قريش كلها، كان لصيته وكانت لسمعته وأخلاقه صدىً بعيداً في أرجاء المجتمع المكي، ولم تكن خديجة قد رأت محمدا منذ كان طفلا، وإنما وإن كانت قد ولدت قبل عام الفيل بخمسة عشر عاما، قد عرفت ما كان من شأن عبد الله بن عبد المطلب والأخطار التي حاقت به من نذر بذبح كان ضحيته وكيف كانت نجاته من الذبح وزواجه ووفاته المفاجئة، والقليل الذي تُرك للوليد الذي لم ير أباه، فأشفقت عليه، كما أشفقت باقي قريش علىٰ المولود، والذي لم يلبث أن فقد أمه، فكان حديث قريش وقتها ثم سمعت عن وفاة جده، وانتقال محمد لبيت عمه قليل المال كثير العيال، ثم بمرور الزمان ذاعت سمعته وانتشر صيته في الصدق والأمانة، فكان (الصادق الأمين) في اعتراف صريح من المجتمع المكي بتفرده في الصدق والأمانة، فكان الاحترام.

أما خديجة فقد آن الأوان أن تعد لرحلة تجارتها والتي سيتولاها فتىٰ قريش الصادق الأمين فأرسلت في طلب ميسرة وهو غلام ممن تملك، والتقت بمحمد ورأته فأعلمته بمن

(٥٧)من كتاب محمد ﷺ تأليف محمد رضا ص ٥٠.

(٥٨)المصدر السابق ص ٥١.

سيكون في خدمته خلال رحلة التجارة، كما أعلمت ميسرة بمكانة محمد عند أهل مكة وأوصته به، كما أوصاه أعمام محمد به.

١٥- محمد في رحلة الشام الثانية والأخيرة:

انطلقت القافلة يقودها محمد في أول رحلة تجارية يقوم بها، ولم يكن يعلم أنها الأخيرة وصاحبه ميسرة غلام خديجة كما أمرت، وفي طريقه للشام، مرت القافلة بمر الظهران ثم بوادي القرىٰ ومدين وديار ثمود، فأحيت هذه الأماكن ذكريات رحلته الأولىٰ مصاحبا لعمه منذ ثلاثة عشر عاماً، وغرق كعادته في التأمل والتفكير الذي دأب عليه منذ نعومة أظفاره، وكان كعادته دمث الخلق ثاقب الرؤية بسيطا ومتواضعا مما جعل ميسرة يحبه ويقوم بخدمته كما لو كان عبداً له وليس لخديجة، وقد لاحظ ميسرة سهولة الرحلة، وإذا ما كانت الهاجرة واشتداد الحرارة ظللت بعض الغمام القافلة وربما حسب ميسرة أن تلك الغمام من حسن الطالع ليس إلا، وحينما مرت ببصرىٰ استظل محمد بالشجرة التي استظل تحتها في رحلته الأولىٰ وأرخت عليه ظلالها، ولاحظ هذا ميسرة، وتماما كما أحبه كل من خالطه، استطاع محمد بحلو شمائله وجمال عاطفته أن يكسب احترام ميسرة ومحبته، وبنفس تلك الشمائل، وتماما كما بارك الله لحليمة السعدية في كل ما تملك، استطاع محمد أن ينهي تجارته في وقت قياسي، لم يكن الأمر صعيبا عليه برغم انعدام خبرته في التجارة، ولكن صدقه مع التجار، ومصداقيته في التعامل والأخذ والرد، وبعده عن التهويل والمبالغة، ورفضه أن يقسم أو يحلف بالآلهة وبساطته وصدقه في التعاملات قد جعلت التجار يقبلون عليه إقبالا، ويدفعون ما يطلب دون مماطلة أو نقصان، فإن كان محمد التاجر لا خبرة له، فالتجار علىٰ أعلىٰ خبرة يعرفون بها أنهم أمام صادق لا يزايد ولا يبالغ ولا يكذب، ولما انتهىٰ من البيع، بدأ في شراء كل ما رغبت خديجة فيه، وكان الشراء كما البيع، بالصدق والمصداقية، لا يبخس بثمن ولا يظلم أو يُظلم، وميسرة لا يصدق ما يرىٰ.

لما عاد محمد بالقافلة، ووصلت بمُر الظُهران قال ميسرة لمحمد: يا محمد، أسرع إلىٰ خديجة فأخبرها بما صنع الله لها علىٰ وجهك، فإنها تعرف ذلك لك، ولما رأت خديجة ذلك ضاعفت له أجره.

أقبل ميسرة من بعد فاستدعته خديجة وسألته عن تجارتها فقد كسبت أضعاف ما كانت تتوقع، فروىٰ لها ميسرة عن محمد وكماله ورقة شمائله وسمو خلقه، وسرد كل ما شاهد في تلك الرحلة، فانقلب احترامها واعتزازها بمحمد إلىٰ إعجاب، ثم انقلب الإعجاب إلىٰ حب، واحتارت في أمرها إذ ردت من قبل أعظم من في قريش شرفًا ومالاً ونسبًا.

١٦- زواج محمد بن عبد اللّه من خديجة بنت خويلد[٥٩]:

كانت المرأة الثيب في الجاهلية، وفي صدر الإسلام، وربما إلىٰ عهد قريب لا تُترك بغير زواج، اللهم إلا إن أصرت علىٰ ذلك، وربما كانت نسبة إنجاب الإناث أعلىٰ منها للذكور، فعلىٰ الرغم من أن عادة وأد البنات أحياء كانت منتشرة في المجتمع العربي كله، إلا أن الرجل العربي كان يجد أكثر من واحدة يتزوج بها، وفي الجاهلية وبدايات الإسلام كان للرجل أن يقترن بأي عدد من النساء، غير ما ملكت أيمانه، ناهيك عن البغايا، وهي دلائل علىٰ وفرة في النسبة العددية للنساء عن الرجال.

كانت خديجة كما ذكرنا ترد الرجال الأكفاء لها، مالاً ومكانة، إلا انها بعدما رأت محمداً وتعاملت معه، وبعدما كانت تعرفه مما يسمع عنه وزاد علمها به، عرفت فيه فضائل تفوق ما سمعت وشمائل أعظم مما خَبُرت، فشغفت به، ولم تستطع – وهي المرأة الشريفة – إلا أن تحدث أختها وبعدها أيضا صديقتها في شأن ما تشعر به تجاه هذا الشاب، بادرت صديقتها نفيسة بنت مُنية بأن ذهبت لمحمد فقالت: ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به

إذ لم يكن نتاج كده يبلغ بعد استحقاقات الزواج، فقالت نفيسة: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلىٰ الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب؟، قال محمد: فمن هي؟

هنا أجابت نفيسة بكلمة واحدة (خديجة) قال محمد وكان قد أنس هو أيضًا خديجة: كيف لي بذلك؟.

---

(٥٩)النويري في نهاية الإرب ج ١٦ ص ٩٦، ٩٧، ٩٨- الصالحي عن بن سعد ج٢ ص ٢٢٣- الخبر لدىٰ الطبري ج٢ ص٢٨٢ عن الواقدي.

كان محمد قد أنس خديجة ولكنه كان يعلم أنها عازفة عن الزواج، كما كان يعلم مدىٰ الثراء التي تتمتع به، وأبت نفسه الكريمة أن يدع نفسه لما أنس، فقد ردت كبراء قريش من قبل، لكن نفيسة قد قالت له: عليَّ ذلك، فوافق محمد وسارع إلىٰ إعلان قبوله، وكما سارع محمد إلىٰ إعلان قبوله، سارعت خديجة فحددت الساعة التي عليه أن يحضر فيها مع أعمامه ليجدوا أهلها عندها فيتم الزواج، وتولىٰ عمها عمر بن أسد، فقد مات خويلد قبل حرب الفجار كما ذكرنا سلفًا، وحضر العقد من أهله بنو هاشم ورؤساء مُضر، وكان كل ذلك قد تم بعد رحلة الشام بشهرين، وأصدقها محمد عشرين بكرة (أو ما يساوي ذلك) وإن كان مهر من مثلها يفوق ما أمهرها محمد، إلا أنه قد أمهرها كل ما يملك، ومهر المرأة إن كان كل ما يملك الرجل فهو عند المرأة العاقلة دليل علىٰ الإكبار والتقدير.

الفصــل الثــالث

(من الزواج إلى الوحي)



(غار حراء والوحي)

الفصل الثالث

(من الزواج إلى الوحي)

١-الحياة الزوجية في السنوات الخمسة عشر الأولى:

انتقل الصادق الأمين محمد ابن الخامسة والعشرين من العمر إلىٰ بيت خديجة المرأة الثيب وقد بلغت الأربعين، وهي الطاهرة سيدة مكة، فبدأ معها صفحة جديدة من صفحات الحياة وتماما كما يحدث معه وله – فيحبه كل من يخالطه – استطاع محمد بحلو شمائله وجمال عاطفته وحلو حديثه ومودته ورحمته أن يكتسب احترام خديجة وحبها، يعوضها عن وحدتها، ويبث فيها الطمأنينة والأمان بعد وفاة أزواجها وأباها، كما استطاعت خديجة أن تعوضه حنان الأنثىٰ بفقده أمه، ووحدته لانعدام الأخوة، والحياة الرغيدة التي لم يطلبها يوما ولم يكن يألفها، ولا عجب بصفات محمد أن تجمع خديجة بين حبه والإذعان له، فعاشا معـًا ثمان وعشرين سنة، وهي عمر كامل من المودة والصدق والأمان لكليهما، ففي السنوات الخمس عشرة الأولىٰ، رزقا بالرزق الوفير والبركة التي تعم كل من عاشر محمدا، ولم تكن البركة في المال فحسب بل في الذرية الصالحة من الأولاد والبنات أيضـًا، ولم تكن خديجة قد أنجبت ولدا من قبل.

أما عن شأن المال فقد وجدت خديجة البركة في مالها، بمجرد مشاركة محمد الحياة الزوجية معها، فأبت أن يفارقها طالما المال قد أصبح أكثر وفرة من ذي قبل، فلم يخرج محمد في أي تجارة لها بعدها، وأما عن شأن الذرية، فقد رزقهما الله جميع أولاده –ما عدا إبراهيم كما سيأتي– فقد ولدت له عدد من الذكور، فكان القاسم هو ابنهما البكر وكان يكنىٰ محمد به قبل الرسالة وكني به عليه الصلاة والسلام بعدها، ثم عبد الله الطيب(٦٠) فالطاهر، كما رزق من البنات رقية ابنته البكر فزينب، ثم أم كلثوم، ففاطمة، ولم تكن خديجة قد أنجبت أي من الذكور من قبل ففاضت نفسها فرحـًا بمن ولدت من الذكور أيما فرح، أما بالنسبة لمحمد، فللابناء – بالنسبة إليه كيتيم – توق ومعان جميلة وحبيبة، فها

---

(٦٠)الذي عليه أكثر أهل النسب أن الابناء الذكور للنبي ﷺ من خديجة هما اثنان وهما القاسم وعبد الله ويلقب بالطاهر والطيب، وقيل أن ابناء ه الذكور منها ثلاثة وقيل أربعة (الأنساب – الطبقات الكبير – إحياء علوم الدين– وغيرهم).

هو ذا يرزق بالأولاد والبنات وقد حرم من الأب والأم فأضحىٰ يمارس الأبوة من لم يمارس البنوة، إذ بعدما كتب الله عليه أن يمضي وحيدا في حياته الاولىٰ، مختلفا عن الآخرين، ها هو ذا تصبح له ذرية من الذكور والإناث، وكانت سلمىٰ مولاة صفية بنت عبد المطلب (عمة محمد) تقبل خديجة (تقوم بتوليدها) وكانت العقيقة بشاتين عن كل غلام، وبشاة عن البنت وكانت تسترضع لهم وتعد المرضعة قبل الولادة، لكن تلك الأبوة للذكور لم تتعد يوما الأبوة للأطفال منهم فقد قضت حكمة الله ألا يكون محمد أبا أحد من الرجال فيحتسب أولاده راضيا بقضاء الله، ومحمد قبل النبوة.

لم يكن يعلم بما قضىٰ الله، إلا أن نفسه الطاهرة قد استسلمت للقدر حتىٰ قبل النبوة فمحمد الذي عرف الآلام لفقد الآباء، قد رضي بفقد الذكور من الابناء واحدا تلو الآخر مهما أثار فيه من لاعج الحزن والألم، فبقيت له البنات، وهو بهن البر والشفقة، وهن له الإكرام والإعزاز الخالص، فاستعوضهم لله وفرح أيما فرح بعلي ابن عمه ورباه في بيته تخفيفا لعمه، وتبنىٰ زيد بن الحارثة غلامه وأسماه زيد بن محمد، كان أول من مات من ولده بكره القاسم وهو بن سنتين، ومات من تبقىٰ، ولم يتعد طفل ذكر له سن الطفولة وكان محمد ﷺ قد نزل عليه الوحي، فقال العاص بن وائل السهمي أبو عمرو بن العاص: قد انقطع ولده فهو أبتر، فأنزل الله تبارك وتعالىٰ (إن شانئك هو الأبتر) [٦١]

أما عنهن فقد أدركن جميعهن الإسلام، فأسلمن وهاجرن، ويشاء الله أن تدركهن الوفاة رضي الله عنهن وأرضاهن أيضا في حياته صلىٰ الله عليه وسلم، سوىٰ فاطمة رضي الله عنها وأرضاها، فقد تأخرت عنه ﷺ بعده بأشهر، ثم لحقت به[٦٢] كما سيأتي في حينه.

عاش محمد بعد الزواج وقبل النبوة في مكة لا يغادرها، اللهم إلا إلىٰ غار كان يقصده عبد المطلب جده فربما كان عبد المطلب بدوره من الباحثين الأفذاذ عن الحقيقة، لا ندري، وهو نفس الغار الذي كان يقصده زيد بن عمرو بن النفيل، وكان الانقطاع للعبادة من عادة مفكري العرب وكانوا يسمون هذا الانقطاع أو التحنث فقد الفوا فيما مضىٰ عبادة رب البيت تماما كما ألفوا رحلتا الشتاء والصيف، وكان أي عاقل يعجب من استبقاء قريش لإيلافهم رحلتا الشتاء والصيف، ثم يخرجون عما ألفوه في أمر العبادة،

(٦١)جمهرة النسب ج ١ ص ٣٠ ابن الكلبي – ابن سيد الناس ج ٢ ص ٢٨٨ عن بن سعد

(٦٢)ابن هشام ١\١٩٠ – ١٩١ – فقه السيرة ص ٦٠ –فتح الباري ٧\٥٠٧ وبينهم اختلاف فعملنا علىٰ الترجيح

ومحمد بعد الزواج كان قد افتقد الاختلاء بنفسه في فسحات من الوقت ليفكر ويتأمل كما كان يفعل أثناء رعيه للغنم في سعيه الدؤوب للبحث عن الحقيقة، كان يعلم أنها الجاهلية، والمرء في ظلام الجهالة لا يرىٰ ما هو عليه، ولا يتبين من يجاوره في الظلام، فمن الجاهلين من يجهل حتىٰ جهله، ومنهم من يثور عليه فيبحث عن بصيص النور، وهو شأن الأفذاذ، وإن زاد عليهم ما كان يبغض من مظاهر الضلال بين ابناء إسماعيل من خمر وميسر ونكاح الاستبضاع (٦٣) ووأد البنات، وقتل ذكور وإناث الأطفال خشية الفقر أو بسببه، وتبرج النساء واتخاذ الحرائر عشيقات، والدعارة والعصبيات القبلية والحروب للأسباب التافهة واحتقار المهن تكبراً، وكان لا يفضي لغيره ما يجيش بنفسه كان شغوفا بالوحدة فيلتمس فيها ما يشغل نفسه من تفكير بحثا عن الدين الحق

٢ – سادات قريش والعرب:

سادات قريش هم سادات مكة، وأهل مكة كما قلنا كانوا سادات العرب، في ذلك الوقت عجت قريش بالكبراء من القوم، أصحاب النفوذ والرأي والحل والعقد، وهم في الأغلب من أثرياء القوم، وممن ينتمون إلىٰ قبيلة أو بطن من البطون كثيرة العدد والعزوة كشأن أي مجتمع أرستقراطي حيث تغلب المصالح المادية علىٰ سائر المصالح وكانت لقريش مناصب وزعوها فيما بينهم، وكونوا بها دويلة، بل بتعبير أصح: شبة دويلة ديموقراطية كانت لها من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه في عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها، وهاك لوحة من تلك المناصب التي تولتها أشهر البطون القرشية إن استثنينا بني هاشم:

١) الإيسار، أي تولية قداح الأصنام للاستقام، كان في بني جمح.

٢) تحجير الأموال، أي نظم القربات والنذور التي تهدىٰ الىٰ الاصنام، وكذلك فصل الخصومات والمرفعات. كان ذلك في بني سهم.

٣) الشورىٰ، كانت في بني أسد.

٤) الأشناق، أي نظم الديات والغرامات، كان ذلك في بني تيم.

(٦٣)يطلب من المرأة مضاجعة أشراف الرجال ليطأها فتنجب من يرث صفات من وطئها

٥) العقاب، أي حمل اللواء القومي، كانت ذلك في بني أمية.

٦) القبة، أي نظم العسكر، وكذلك قيادة الخيل، كانت في بني مخزوم.

٧) السفارة، كانت في بني عدي.

إلا أن قريشاً كانت تولي مكانتها الروحية اهتماما لا يدانيه اهتمام والمناقشات في الشأن العام غالبا ما تشمل رؤساء البطون والقبائل والعشائر والخطباء والشعراء وأصحاب الرأي وعلىٰ رأس هؤلاء سيد مكة أبو طالب برغم قلة ماله وسائر ابناء عبد المطلب وسائر بنو هاشم بن عبد مناف وكانت أهمية القبائل والبطون تقاس بعدد الذكور منها وحجم المال فيها، وقدرة الكبير في القبيلة علىٰ فرض نفسه بالحكمة والسيطرة والتحالفات والأتباع، وكانت كبريات القبائل كما ذكرنا تتمثل في عشرة بطون وهي: عبد مناف (هاشم، وأمية) ومخزوم، وبنو أسد، وعبد الدار، وتيم، وسهم، وجمح، وعدي، وعامر بن لؤي وزهرة.

كان حرب بن أمية بن عبد شمس ممثلا وزعيما لبني أمية من أكبر بطون قريش وكان أبو سفيان ابنه كبير تجار مكة وقائد جيشها وحامل لوائها ومن أثرىٰ أثريائها، كانت له صلات قوية بملوك الروم ومعروفا ومقدرا لديهم وكان وفياً لثأر جده أمية بن عبد شمس (سنة ٤٨٤ م) حيث كان أبو سفيان وريثا لثراء ولثأر أبيه من هاشم (حرب بن أمية بن عبد شمس) وأمية هو الذي كان صاحب الثأر والثراء فتاجر أثناء نفيه للشام كما ذكرنا، وزاد ماله وعاد بعدها يعلم ابناء ه وأحفاده كيف يصلون إلىٰ شرف السيادة علىٰ مكة بعدما صاروا أكثر ثراءً من بني هاشم، وظل الثأر والثراء يميزان ابناء أميةُ مئات السنين بعدها، ومن رهطه كان العاص بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وكذلك كان عقبة بن أبي معيط وأبناؤه عمارة والوليد وكان سهيل بن عمرو بن عبد شمس، خطيب خطباء قريش وكان من الكبراء الأثرياء أيضا.

كانت رياسة مخزوم التي ندر في بيوت العرب النبيلة بيت لم يكن له صلة بها وصاحبة القبة وقيادة الخيل، تجمع ما بين القوة والسيطرة العسكرية والمال وتنحصر فيما بين كل من أبي الحكم (عمرو) بن هشام المخزومي من أثرياء مكة وصاحب القبة ونظام العسكر وقيادة الجيش والذي أسماه رسول الله (أبا جهل) وابنه عكرمة من كبار قادة قريش

العسكريين وبين ابني عمه المغيرة بن عبد الله المخزومي أثرىٰ أثرياء مكة وأكثرهم ولدا وأثرا وأبناؤه الوليد وهشام وشيبة وأبو أمية وعبد الله وأمية، وكان ابنه الوليد بن المغيرة المخزومي وريث ثراء أبيه وبمثابة الرأس بين الرؤوس والزعيم بين الزعماء، وأحد السادات المعدودين في قريش، صاحب الكلمة التي يتعلق بها مصائر قومه فيما يجنح بين الشريعة والدين وكانت له في بعض نواحي خلقه وعقله لمحات تلك المواهب الدالة علىٰ العبقرية إلىٰ جانب ما كان يتمتع به من كونه أغنىٰ ابناء زمانه والملقب بريحانة قريش من أجل ذلك، كان يكره الخمر، ويقطع يد السارق علىٰ سبيل القصاص وكان من أصحاب الحيلة والحول والإقدام والشجاعة، فعلىٰ سبيل المثال لا الحصر يوم تداعت الكعبة كما ذكرنا سلفًا كان له الرأي الأوضح في هدمها وإعادة بنائها، وكيفية جمع المال لهذا الغرض وفرض ألا يدفع مال من ربا أو خمر أو دعارة، وأكثر من ساهم بماله لها إذ انتظر حتىٰ ساهمت قريش كلها بما استطاعت من مال فدفع مثلما دفعت قريش وحده، وهو الذي استجلب المهندس باخوم الرومي (المصري القبطي) من جدة إلىٰ مكة وهومن تجرأ لمّا رأىٰ وساوس قريش وفزعهم في مرحلة هدم الكعبة فتناول معوله وضرب أول معول هدم لها وهو يقول (اللهم لم ترع، اللهم لا نريد إلا الخير) وبعده مضىٰ الهادمون في أثره، وكان من أفقه الناس في فهم معاني الكلمات وأحفظهم للشعر والخطابة، له عزوة كبيرة من الأشقاء والأعمام والابناء ، ومن سهم كان العاص بن وائل والد عمرو بن العاص وكذلك نبيه ومنبه ابنا الحجاج السهميان من علامات قريش البارزة، أما من بني جموح فأمية بن خلف الجمحي فقد كان شريفا مطاعا في قريش وأسن ساداتها فقد كان شيخا جليلا جسيما وثقيلا وابنه صفوان بن أمية بن خلف. وكان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبناؤهم، ومن زهرة كان الأخنس بن شريق الزهري، وحويطب بن عبد العزىٰ وعامر بن الحضرمي وكان أيضا الحارث بن هشام، ومن قبيلة عدي (وهي قبيلة عمر بن لخطاب) فقد كان علىٰ رأسها الخطاب بن النفيل بن عبد العزىٰ وهو قليل الحظ من الثراء والغنىٰ، عظيم الحظ من الفظاظة وغلظة القلب، وقد كانت له عصبية متوسطة في القوة بين بطون قريش وإن عرف عنهم شدتهم في القتال عرفت بالصلابة والشدة والعدل والميل إلىٰ الحق ومناصرة الضعيف، وتولت القبيلة القضاء (التحكيم) والسفارة في المجتمع المكي الجاهلي، لم تكن قبيلة عدي بها من أثرياء قريش ما يشار لهم بالبنان، إلا أنهم غلبوا علىٰ أمرهم لقلة عددهم

مقارنة بأقربائهم وتذكر المصادر التاريخية أن قبيلة عدي كانت مقهورة الجانب من بني عبد شمس. أما قبيلة تيم (وهي قبيلة أبوبكر الصديق) فلم تكن لها هي أيضا عصبية كبيرة أو قوية فيما بين البطون القرشية بل كانت أقل من سابقتها عدي، وإن عرفت بالوقار والمروءة واشتهر رجالها بالدماثة والأدب واشتهر نساؤهم بالدلال والحظوة عند الأزواج، وتولت القبيلة الديات والغرامات للمجتمع المكي وكانت تجارة القبيلة ومالها علىٰ العموم أفضل حالا في غير مكاثرة.

كان ميراث المكانة والصراع علىٰ الرئاسة موكول بالعصبية القبلية، وكان الخروج علىٰ ذلك الترتيب مستبعدا ومحلا الاستهجان، وكان من المستحيل التمرد في المكانة علىٰ مكتسب تلك البطون، وللأمانة وللحيادية لابد لنا أن نذكر أن أشراف قريش كانوا أشرافاً بمعنىٰ الكلمة، إذ كان كل رؤساء البطون علىٰ درجة عالية من الأمانة والنجابة فتتفاخر بهم قريش أمام العرب، ولم يكن التباري بينهم في المال والبنين والعزوة والسيطرة والقوة فحسب، بل في مكارم الأخلاق وفي اكتمال المبادئ بقدر ما تسنت لهم قدراتهم النفسية والعقلية والتي كانت لا تنكر علىٰ أي منهم، إلا أن الكبرياء والحسد قد أفسد الشرف عليهم.

وسط هذا الخضم من الكبراء كان محمد بن عبد الله بن عبد المطلب سليل آل هاشم وعبد مناف التي أصابها الوهن وصاحبة الرهط والقوة الروحية في مكة وذات المكانة المالية الوسطىٰ في المجتمع المكي، وكان محمد وقد أغناه الله بزواجه من خديجة وأصبح في وسط من سعة المال بالإضافة إلىٰ ما كان عليه قبل الزواج في وسط من النسب، إلا أن ذلك كله لم يصرفه عن الاختلاط بالناس كما كان والأخذ بنصيبه من الحياة العامة، بل زاد وضعه الجديد تواضعا - علىٰ جم تواضعه - وزاد ذلك من إكبار الناس له، وقد نحت لنفسه مكانة مميزة وسط هذا الخضم واعتاد علىٰ أن يشارك في أي شأن عام يهم موطنه مكة ويأخذ بنصيبه ويدلي بدلوه في الحياة العامة والشأن العام، بالقدر الذي يناسب مكانته الأدبية بينهم، والتي لم تكن بعد بالقدر الذي يستحق، وعلىٰ الرغم من هذا استطاع محمد أن يحظىٰ باحترام الرهط وإجماع القوم عليه كما سنرىٰ من الأحداث التالية.

وللأمانة وللحيادية أيضـاً، فلئن نجح رجل في الظهور علىٰ من دونه، فلا مزية فيه، وإن ظهر علىٰ من يناظرونه في الكفاءة، فهي شهادة له في قياس التنافس والتناظر بين الكفاءات،

أما إن علا علىٰ من يفوقونه شهرة ونفوذاً ومكانةً ومكنةً وعدداً وقوة ومالاً وبأسا وتكاثروا عليه، فذلك في منظور المنطق لا يتأتىٰ إلا لو فاقهم في الملكات، أو لو آزرته السماء، وقد كانت له كلتا المزيتين.

٣- السيل العرم يهدم الكعبة (٦٠٥ م):

في بدايات القرن السابع الميلادي، حينما كان الصادق الأمين في ريعان الشباب (ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين) وبعد زواجه، لم ينقطع عن مخالطة أهل مكة والأخذ بنصيبه في الحياة العامة، وفي هذه الأثناء، طغىٰ سيل عنيف علىٰ مكة منحدرا من الجبال المحيطة بها إلىٰ البيت الحرام، فصدع جدران الكعبة وأوشكت علىٰ الانهيار إذ دخلها السيل من أعلىٰ فلم تكن الكعبة مسقوفة حتىٰ ذلك الوقت، كما شب حريق بها وسرق من الكعبة حليتها وغزال من ذهب، وكانت الكعبة مبنية من حجارة بعضها فوق بعض من غير ملاط، ففزع أهل مكة وتشاوروا فيما بينهم، فاجتمعوا - بعد خوف وتردد- علىٰ أن يتم هدمها وإعادة بنائها من جديد، وصادف أن رمىٰ البحر سفينه قادمة من مصر- وكانت ولاية من ولايات الروم - إلىٰ جدة، كانت تلك السفينة مملوكة لتاجر رومي من أقباط مصر اسمه باقوم (باخوم عائلة قبطية مصرية معروفة وعلىٰ علم بالبناء حتىٰ اليوم) فلما سمعت قريش بأمر باخوم وجدت الفرصة سانحة أن يتم إعادة بناء الكعبة علىٰ أسس مما عُلم باخوم فخرج الوليد بن المغيرة المخزومي علىٰ رأس نفر من قريش إلىٰ جدة، فعرضوا عليه الأمر فوافق علىٰ معاونتهم فابتاع الوليد بن المغيرة خشب السفينة وعادوا به وبالخشب إلىٰ مكة وشرعوا في الهدم والبناء واقتسمت قريش جوانب الكعبة أربعة أقسام، لكل قبيلة ركنا نقوم بهدمه وبنائه، وميزوا البيت فاقترعوا عليه فوقع لعبد مناف وزهرة ما بين الركن الأسود إلىٰ ركن الحجر، ووقع لبني أسد بن عبد العزىٰ وبني عبد الدار بن قصي ما بين ركن الحجر إلىٰ ركن الحجر الآخر، ووقع لتيم ومخزوم ما بين ركن الحجر إلىٰ الركن اليماني، ووقع لسهم وجمح وعدي وعامر بن لؤي ما بين الركن اليماني إلىٰ الركن الأسود، وكان أن اتفقوا علىٰ ألا يدخلوا في بنائها من كسبهم إلا طيبا، ما لم يقطعوا فيه رحما، ولم يظلموا فيه أحدا، ولكنهم ترددوا كثيرا أمام مرحلة الهدم مخافة أن يصيبهم الأذىٰ، إلا أن الوليد بن المغيرة المعروف بالشجاعة والإقدام، قام فأقدم وهو في شيء من الخوف بهدم بعض من الجانب

اليماني، بعد أن قال: (اللهم لم تُرَع إنّما نريد الخير) فهدم وأمسىٰ القوم ينتظرون ما الله فاعل بالوليد، فلما أصبح في اليوم التالي ولم يصبه أذىٰ، همت كل قبيلة بهدم الجزء الخاص بها، فصاروا يهدمون وينقلون الحجارة، ومحمد معهم وانتهىٰ الهدم حتىٰ بانت لهم حجارة خضراء فضربوا عليها بالمعاول، فلما عجزوا بعد جهد اتفقوا علىٰ تركها كما هي، واتخذوا هذه الأحجار أساسا بنوا عليها، ونقلت قريش أحجار الجرانيت الأزرق من الجبال المجاورة فلما ارتفع البناء إلىٰ قامة الرجل وآن أن يوضع الحجر الأسود في مكانه من الجانب الشرقي بدأ الصراع علىٰ المكانة بين القبائل[٦٤].

٤- لعقة الدم ونذر الحرب الأهلية[٦٥]

اختلفت قريش أيهم يكون له الشرف الذي لا يدانيه شرف وفخار في وضع الحجر الأسود بموضعه، ورأت كل قبيلة أنها الأحق بهذا الشرف، وتحالف بنو عبد الدار مع بني عدي أن يحولوا بين أي قبيلة وهذا الشرف العظيم وأقسموا علىٰ ذلك جهد أيمانهم، واستحر الخلاف كدأب العرب في الصراع علىٰ التشريف فتواعدت القبائل، وبدت نذر الحرب الأهلية فقرب بنو عبد الدار جفنة مملؤة بالدم، وأدخلوا أيديهم فيها توكيداً لأيمانهم، وسموا بلعقة الدم، واستشاطت باقي القبائل غيظا وغضبا فاستعدت كل القبائل والبطون للقتال.

أدىٰ انحلال السلطة في مكة بعد عبد المطلب إلىٰ تنازع المكانة والشرف، والحقيقة أن عادة العرب – في الجاهلية وربما حتىٰ الآن – هي في الرغبة الجامحة في الزعامة، للفخار الشخصي والقبلي، حتىٰ لو أدت تلك الرغبة الجامحة إلىٰ خسران كل شيء، وضياع أي أمل في إصلاح أحوالهم، فيتيهون طربا بالزعامة وإن أدت إلىٰ الخراب فمنذ العام ١٦٤٠ق.م وحتىٰ عام ٦٠٥ م، أي ما زاد علىٰ اثنين وعشرين قرنا تتصارع النخب علىٰ زعامة مكة والسيطرة علىٰ الكعبة، كما نشبت عشرات الحروب كداحس والغبراء والفجار والبسوس وبعاث، وغيرها.

(٦٤)الرحيق المختوم للمباركفوري –الطبقات الكبير لابن سعد – سبل الهدي للصالحي –محمد لمحمد رضا – حياة محمد لهيكل

(٦٥) كتب بتصرف بالاستعانة بالمصادر التالية: الرحيق المختوم للمباركفوري –الطبقات الكبير لابن سعد – سبل الهدي للصالحي –محمد لمحمد رضا – حياة محمد لهيكل

عاصر محمداً حرب الفجار، وشارك فيها ويتذكر تلك الأيام قائلا (قد حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت) وهو ما قاله بعدما كلف بالرسالة وكانت أخلاق الأنبياء قد غلبت عليه فيندم علىٰ المشاركة، ولو بأسهم، ويعترف بكرهه لما تم، لم يكن من الأصل راضيا عن هذه الأحداث برمتها، وقد شارك في الدفاع عن قومه ومدينته، وهو غير راض، لا عما حدث ولا عن مشاركته في حرب تنتهك فيها الأشهر الحرم، وسميت بوصفها (حرب الفجار) فلا حرمة روعيت فيها، ولم يوقف وقتها محمد القتال لحداثة سنه وعاصر حلف الفضول فأحبه، أما وما قد يحدث الآن فما هو دوره وهو يُعدُ رجلاً من الرجال فكيف كان دور الصادق الأمين والحرب الأهلية علىٰ الأبواب.

لما رأىٰ أبو أمية بن المغيرة المخزومي الملقب بزاد الراكب ما صار إليه الأمر، وكان أسنهم وكان فيهم شريفـًا مطاعـًا، ولأن السلطة كانت في مكة قد انحلت بعد عبد المطلب قال لهم:

اجعلوا الحكم بينكم أول من يدخل من باب الصفا عليكم (يقال باب بني شيبة) فقالوا رضينا وسلمنا، وتمنوا حقن الدماء.

٥- هذا هو الأمين قد رضينا بما حكم:

كان محمد أول من دخل عليهم من ذلك الباب، فاستبشر القوم لما رأوه، فقالوا (هذا هو الصادق الأمين رضينا بما يحكم) فأخبروه بأمرهم، وهنا آن الأوان لمحمد الذي كره ما تم في حرب الفجار، ولم يكن راضيا عنها وها هي الظروف تتكرر للوقوع في نفس الخطأ، وقد شارك في الدفاع عن قومه وهو غير راض، ولم يوقف وقتها القتال فلا كانت سنه تسمح له ولا كانت له رياسة فيتبعه الناس ولا رسالة، ولكن قريش التي كانت قد سمعت عنه وعن أخلاقه وعن صدقه وأمانته، وإن كانت لم تسع إليه، ولا هو قد سعىٰ أن يكون حَكَمـًا، إلا أن الظروف هي التي وضعته في بؤرة الأحداث هذه، وأجمع عليه القوم علىٰ صدقه وأمانته وقد هيأ له هذا الإجماع فرصة التحكيم، وحقن الدماء، وفوق كل هذا، لفتت الأنظار إلىٰ خلال استقرت في وجدان رجالات قريش عنه بالحكمة والفكر السديد. فكر قليلا محمد الأمين ثم وضع رداءه وبسطه علىٰ الأرض، ثم وضع الركن الأسود فيه فقال: (ليأتي من كل ربع من أرباع قريش رجل) فكان في ربع بني عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان في الربع الثاني

أبو زمعة، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة المخزومي، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي [٦٦] بعدها قال محمد (ليأخذ كل رجل بزاوية من زوايا هذا الثوب فارفعوه جميعا)

وعلية القوم يأتمرون بأمره، ولما دنا الحجر من موضعه فوضعه محمد في موضعه بيده وناول العباس – وكان حاضرا – حجرا ليشد به محمد الركن.

كان لانحلال سلطة ابناء عبد المطلب في مكة نتائج قد بانت جلية في تحالف لعقة الدم، فكان المجال بعدها فسيحا لبطون قريش أن تعمل علىٰ سد تلك الثغرة، وأغرىٰ هذا الوضع بني أمية بن عبد شمس، والمغيرة وغيرهما من البطون الطامعة، إلىٰ ملء هذا الفراغ، إلا أن إسراع قريش إلىٰ الرضا بحكم الصادق الأمين، وحسن تقديره وتصرفه، يدل علىٰ ما كان له من مكانة، ومن تقدير جم لما عرف عنه من نزاهة القصد وسمو النفس، في هذا الوقت كان محمد قد رزق بكل أبنائه من خديجة وكانت فاطمة تبلغ الخامسة من عمرها.

وأتمت قريش بناء الكعبة حتىٰ جعلت ارتفاعها ثمانية عشر ذراعا، ورفعوا بابها عن الأرض ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، وجعلوا في داخلها ست من الدعائم في صفين، وجعلوا في ركنها الشامي من داخلها درجا يُصعد بها إلىٰ سطحها ووضعوا هبل داخلها، كما وضعوا داخلها ما تبقىٰ من نفائس ولم تسرق، وجعلوا للكعبة سقفا وانتهت مهمة الصادق الأمين، وتنفس الناس الصعداء بحكمة محمد والتهجت الألسن بالثناء عليه، فتأكدت مكانته بين الناس، ولفتت إليه الأنظار.

٦- زواج بنات محمد:

في هذه الفترة من حياة محمد زوج بناته الثلاث رقية ابنته البكر فزينب، ثم أم كلثوم وكانت أي بنت في ذلك الزمان تبدأ حياتها الزوجية في سن يتراوح بين الحادية عشر والرابعة عشر، ولم يكن المجتمع العربي عامة أو القرشي يرضىٰ أو يقبل تأخر الفتاة في الزواج عن هذا السن، إذ كانت الفتاة في ذلك الزمان يجيءها المحيض مبكرا عن الفتيات في الزمن الحالي، لم تكن هذا الاعتياد فرية افترتها المجتمعات العربية بل كان اعتيادا منتشرا في كل

(٦٦)نهاية الإرب –النويري ج ١٦ ص ١٠٣

أمم ذلك الزمان وبلا استثناء، والمطلع علىٰ تاريخ ممالك أوروبا في العصور السابقة لهذا الزمان والمعاصرة لها بل والتالية لها وحتىٰ القرن السابع عشر الميلادي وبعده، يقرأ عن زيجات ملوك أوروبا -علىٰ سبيل المثال- تتبع هذا التبكير في الزواج للفتيات، ناهينا عن زواج أنبياء بني إسرائيل، فمريم أم المسيح عليه السلام كانت مخطوبة ليوسف النجار وهي في الحادية عشر، ولعل في قرىٰ وبوادي مجتمعاتنا العربية والشرقية بوجه عام نرىٰ تلك العادة متأصلة حتىٰ اليوم فينا، والكثير منا إن سأل جدته أوأمه عن سنها حين الزواج لعرف تلك الحقيقة، وإن كن يباهين بها عامدات أن يذهبن أحيانا للادعاء بما هو أقل من الحقيقة قليلا تمشيا مع طبيعة المرأة في الادعاء بصغر السن،

تزوجت زينب بنت محمد من أبي العاص بن ربيع ابن خالتها وكانت في الحادية عشر من عمرها، فشورتها خديجة بقلادة لها وأدخلتها بها حين بنىٰ بها أبو العاص بن ربيعة وكان أحد أقرباء خديجة، وبعد ذلك بأعوام تزوجت رقية وأم كلثوم بنتا محمد من ابني عم أباهما فكان من نصيب رقية وهىٰ في الثانية عشر من عمرها عتبة بن أبي لهب وكذلك تزوجت أم كلثوم وهي في الثانية عشر من عمرها عتيبة بن أبي لهب بن عبد المطلب (عبد العزىٰ) وأمه آمنة بنت هاجر، وكان أبو لهب يكبر محمد بأكثر من عقدين من الزمان، وكان رجلا طويلاً فارع الطول غزير الشعر أحول العينين بعيد ما بين المنكبين، بدينا جهوري الصوت أجش النبرات تصطك أسنانه إذا تحدث، سريع الغضب تجحظ عيناه في غضبه، فيه صرامة وقسوة، ثرياً ونافذاً في مكة، يرفع عقيرته وسط الجبال فيتردد صداها في الآفاق فيظن أن الأصنام راضية عنه وكان قد تعدىٰ الستين من العمر، طموحاً إلىٰ النفوذ ويرىٰ في نفسه أهلية تفوق كبير آل هاشم أبا طالب، تتوثق صلاته ببني أمية بن عبد شمس بزواجه من أروىٰ (أم جميل) بنت حرب بن أميه أخت أبي سفيان بن حرب وهذه المصاهرة هي مصاهرة لبني أمية بن عبد شمس صاحبة الثأر القديم من آل هاشم أشد بطون قريش عداوة لآل هاشم وأعظمها أثرا ونفاذا وتأثيراً، وكان أبو لهب يجاور محمد وخديجة في المسكن، وكانت أم جميل الأموية قد وجدت في زواج ابناء ها من أبو لهب ببنات محمدا سبباً في استكمال أسباب التعالي والخلاف والغيرة من خديجة المخزومية التي كانت تدعىٰ في الجاهلية بالطاهرة وبسيدة نساء قريش وقد قاربت الخامسة والخمسين من عمرها في ذلك الوقت.

٧ - محمد في غار حراء:

كان محمد منذ نعومة أظفاره، فريداً بين الناس فريداً في التكوين الأخلاقي والإنساني لتفرده في القدرات، والمعاناة، والتوقيت يتعلم ما أراد له الله أن يتعلم من الظرف الفريد

الذي وضعه الله له وفيه وكانت قضية التساؤل لا يزال يدور في مكة وبين الصفوة الفكرية من العرب عن دور تلك الآلهة التي لا تحرك ساكنا، فما دور تلك التماثيل والأصنام والأنصاب؟ كان العرب والمكيون في شك عظيم، فهم يعلمون جيداً كيف انحرفت أفكارهم ومعتقداتهم عن الدين الحنيف الذي ورثوه عن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بعدما تسبب طول الزمان في تفشي الوثنية بالتدريج فيهم، فمن احترام الكعبة إلىٰ تقديس حجرها الأسود إلىٰ عبادته، إلىٰ عبادة تماثيل نحتوها لهم أو رسومات لإبراهيم وإسماعيل، إلىٰ أنصاب وأزلام وتماثيل ونسوا معنىٰ الألوهية السامي، وكان محمد يكره هذه الآلهة كلها بلا استثناء، ويكره - بطبيعته وفطرته - كل ما يعيب العقل السليم، وأثمرت الخلوة إلىٰ نفسه، وتفكره القويم، وسبر غور النفس، والصدق التام في المشاعر في الارتياح للخلوة، وكانت تأملاته الماضية قد وسَّعَت الشقة الفكرية والعقلية بينه وبين قومه. وبعد الزواج، لم يستطع محمد في أول الأمر أن يخلو إلىٰ نفسه كعادته، ولم يسبر غورها كما كان يفعل ويستريح، وشغلته الحياة الزوجية كما قلنا سلفاً في أول الأمر عن عادة الاختلاء المحببة له، حتىٰ تسنىٰ له بعدما خفت مسؤولياته الزوجية أن يعاود عادة التحنث المحببة إليه، وليس من أبنائه معه سوىٰ عبد الله وكان في الخامسة من عمره، وفاطمة وكانت في السادسة من عمرها وكان في كنفه علي بن أبي طالب بن عمه، وكان في الحادية عشرة من عمره وكان من حول مكة مجموعة جبال يطلق عليها جبال فاران، وبأعلاها جبل يسمىٰ جبل حراء علىٰ بعد فرسخين من شمالها وبه غار قد نقب فيه -وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع- فاستأذن أهله ليقيم فيه شهر رمضان من كل عام وكان قد اختار هذا الغار لقربه من أهل بيته، وكذلك لما عرف أن جده عبد المطلب كان هو أيضا يختلي بنفسه فيه، كما كان هذا الغار مشهورا ومطروقا للتحنث فقد كان يقصده زيد بن عمرو بن النفيل بن عبد العزىٰ بن رباح المذكور سلفاً، وبدأ محمد يعاود من جديد ما طابت نفسه إليه من تحنث، وتفكر وتعبد علىٰ دين إبراهيم عليه السلام متفكرا فيما خلق الله وباحثا عن الحقيقة سنة تلو الأخرىٰ، حتىٰ لازمته رؤىٰ صادقة وهو في تمام الأربعين من

عمره (حسب السنة القمرية) فكان لا يرىٰ في منامه رؤيـا إلا جـاءت كفلـق الصبـح، فمكـث علىٰ ذلك ما شاء الله له أن يمكث، وفي أغلب الأقوال ستة أشهر، وحببت إليـه الخلـوة أكثر فأكثر فلم يكن شيء أحب إليه منها فيخلو بنفسه في غار حراء يتحنث في الليالي ذوات العدد قبـل أن يرجـع إلـىٰ خديجـة فيتـزود لمثلهـا، وفي ليلـة القـدر أنـزل الله القـرآن إلـىٰ اللـوح المحفوظ، ففاجأ جبريل محمداً في الغار، وبدأ الحدث العظيم.

٨- محمد رسول الله ﷺ (نزول الوحي):

الحدث العظيم في ليلة الإثنين لإحدىٰ وعشرين [٦٧] مضت من شهر رمضان، ويوافق العاشر من أغسطس سنة ٦١٠ ميلادية – وكان عمـر رسـول الله ﷺ أربعين سـنة ميلاديـة – كان محمد نائمـا في الغـار، فجـاءه (جبريـل عليـه السـلام) علـىٰ هيـأة الملـك، وهـي هيـأة لا يعرفها رسول الله من قبل وفي يده صحيفة، وقال له: (اقرأ) فارتعب من هيأته وما سمعه من الملك وقال رسول الله ﷺ وهو ما بين النوم واليقظة (ما أنـا بقـارئ) فمحمـد ﷺ أراده الله جل وعلا، أميـًا [٦٨] لا يقرأ، وبعدها أخذه الملك فغطه حتـىٰ بلـغ منـه الجهـد، فـأحس كـأن الملك يخنقه ثم يرسله ويقول مرة أخرىٰ (اقرأ) فقال ﷺ ثانية (ما أنا بقارئ) فيؤكد عليه أنه لا يقرأ، فأخذه الملك للمرة الثالثة فغطه حتىٰ بلـغ منـه الجهـد ثـم أرسـله وقـال لـه في المـرة الثالثة (اقرأ) فقال رسول الله ﷺ وقد خاف أن يخنقه الملـك (مـا أقـرأ؟) بمعنـىٰ مـاذا أقـرأ، فتلا عليه الملك أول التنزيل وقال (اقرأ بسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علـق، اقـرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لـم يعلـم) [٦٩] وانصـرف الملـك عنـه وقـد نقشت تلك الآيات في قلبه، وكانت تلك أول آيات القرآن الكريم، وأول نبـوة محمـد صلـىٰ الله عليه وسلم، فأمره الله تعالىٰ بأن يقرأ فاستجاب، وعلىٰ الرغم من أن الله تعـالىٰ لـم يـأمره بعد بالتبليغ، إلا أنه ﷺ لما استيقظ فزعـًا سأل نفسه: أي شيء رأىٰ؟ وتلفـت يمينـه ويسـاره

---

(٦٧)يقال السابعة والعشرين

(٦٨)يقول أبا إسحق: معنىٰ الأمي هو المنسوب عليه جبلة أمه أي لا يقرأ ولا يكتب لأن الكتابة مكتسبة فكأنه ينسب إلىٰ ما ولدته أمه عليه – وقد بدأت الكتابة في العرب عند أهل الطائف التي تعلموهـا مـن رجـل مـن أهـل الحيـرة عـن أهل الأنبار بالعراق. —وكون رسول الله أميا فهي من جملة معجزات الله فيه، فلا يتهم بمطالعة كتب الأولين

(٦٩)هي أول الآيات التي نزلت من القرآن وهي من سورة العلق وفيها إعلام لرسول الله بالنبوة.

مقتطفات من كتاب (مباحث في علوم القرآن) لمناع القطان

فلم ير شيئًا، ومكث برهة أصابته فيها رعدة الخوف وتولاه الوجل، وخاف مما قد يكون بالغار، ففر منه وانطلق هائما في شعاب الجبل يسترجع الكلمات التي نقشت في قلبه، ولا يدري المقصود منها والهدف، وتوسط الجبل وهو في حال من الفزع الشديد فسمع صوتًا يناديه، فأخذه الروع ورفع رأسه لمصدر الصوت في السماء فإذا الملك في صورة رجل جميل يناديه باسمه، وزاد فزعه وأوقفه الرعب في مكانه، وجعل يصرف وجهه عما يرىٰ، فإذا هو يراه في كل آفاق السماء ولا تنصرف الصورة الجميلة للملك من أمامه، ولما انصرفت الصورة، هدأ رسول الله ﷺ وعاد أدراجه لخديجة لكي يلوذ بها ويبلغها بما حدث له، ولما رآها قال لها فزعًا وهو يرتجف في أتون حرارة أغسطس (زملوني، زملوني) في هذه الليلة المباركة، ليلة القدر، أنزل الله – سبحانه وتعالىٰ – القرآن كله جملة واحدة (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) [٧٠]

فأنزله الله تعالىٰ:

أولا إلىٰ اللوح المحفوظ (بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ) [٧١] وفيه شأن سائر المغيبات المثبتة فيه.

ثانيًا إلىٰ بيت العزة من السماء الدنيا (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدىٰ وبشرىٰ للمؤمنين)[٧٢]

ثالثًا نزل مفرقًا (وقرآنًا فرقناه لتقرأه علىٰ الناس علىٰ مكث ونزلناه تنزيلا)[٧٣] علىٰ رسول الله بحسب الوقائع، فنزل مرتلا (ورتلناه ترتيلا) [٧٤] ومعنىٰ الترتيل هو بقراءة جبريل عليه السلام في الترتيل، كما تعني الكلمة أيضا أنه نزل أرتالا، أي تباعًا تسلية بعد تسلية، فله في مصير المكذبين سلوىٰ وفي الوعد بالنصر بشرىٰ، وعزاءً بعد عزاء، إذ في قصص الأنبياء أسوة حتىٰ لا يجد اليأس إلىٰ نفسه سبيلاً (كذلك لنثبت به فؤادك) [٧٥] وكان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر أو أقل.

---

(٧٠)الجاثية –٢

(٧١)البروج ٢١–٢٢

(٧٢)النحل ٢، ١

(٧٣)الإسراء –١٠٦

(٧٤)الفرقان ٣٢

(٧٥)الفرقان ٣٢

كانت حكمة رب العالمين (والله أعلم) في النزول والتنزيل علىٰ هذا النسق الفريد:

- لتثبيت فؤاد رسول الله والمؤمنين بما أنزل إليه كما ذكرنا سلفاً.
- لتيسير حفظه وفهمه واعتياد التدرج في للعمل بما ينزل.

(ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) [٧٦]

- للتدرج في مسايرة الحوادث.
- للتدرج في التشريع.

أما عن نزوله إلىٰ اللوح المحفوظ، ثم إلىٰ بيت العزة ثم بعد ذلك الترتيل الذي يلي الأحداث، وتساؤل البعض عن حسم الله للرد القرآني قبل حدوث الحدث وتواجد هذا الرد في اللوح المحفوظ قبل حدوث الحدث ثم لبيت العزة، فتفسيره أن أحداث الحياة الدنيا كلها أمر مقضي بتفاصيلها عند الله، ودليلنا من القرآن ففي بعض الآيات يقول عز من قائل (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ويقول سبحانه وتعالىٰ (قد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) ويقول سبحانه وتعالىٰ (ما كان محمدُ أبا أحد من رجالكم) والفعل الماضي في كنتم وكان، لا يدل علىٰ أن الأمة لم تعد خير أمة وقت التنزيل، فزمن نزول الآيات حاضرا للمؤمنين وماضياً لرب العزة وفي الثانية فقد كان رسول الله ﷺ لا يزال فيهم وبين ظهرانيهم وزمننا الحالي هو عند الله قد مضىٰ، وفي الآية الأخيرة قضاء الله بأن رسول الله وإن أنجب ذكراً فلن يصل الابن لسن الرجولة ورسول الله الذي أنجب بعد نزول الآية ابنه إبراهيم وفرح به رغم نزول الآية كأي أب يتمنىٰ أن يراه رجلا، وعلىٰ ذلك فكل ما يذكر في القرآن يقيني وحتمي بحكم أن زمننا منذ الخليقة وإلي القيامة زمن مقضي لرب العزة والله أعلم وشرح ذلك نجده في قوله تعالىٰ (أتىٰ أمر الله فلا تستعجلوه) فأحداث ماضي حياتنا وحاضرها ومستقبلها هو عند الله قد أتىٰ.

(٧٦)القمر٣٢ وقد يسر الله القرآن بعمل البشر مكتوبا ولا يتدبر الناس المكتوب ويفخرون بختمه دون التدبر فيه، ومسجلا بأصوات القراء فيذاع في كل مكان ولا يستمع له وتتخذ كعلامة علىٰ الإيمان الشكلي ومن النادر أن يبحث الناس فيه، فقد جعلوا القرآن مهجورا (الكاتب)

الفصل الرابع

(رسول الله من بدء الدعوة إلى الجهر بها)

أي من بداية النبوة حتى بدايات العام الثالث منها


عدنان وقحطان
عند ظهور الإسلام
آدم
نوح
سام
حام
يافث
قحطان
إبراهيم
إسماعيل
إسحق
يعقوب
بنو إسرائيل
عدنان
بحر الروم
قحطان
الخليج العربي
عدنـــــان
بحر القلزم
قحطان
عدنان
بحر العرب

١- رسول الله ﷺ:

لو أنني أرسلت نفسي علىٰ سجيتها في الثناء علىٰ رسول الله عند سرد الأحداث، فلا تزيده سجيتي مهما بلغت ما هو عليه وإن كان أهلا للثناء، فالثناء لا يغني عنه شيئًا ولن يجدي للقارئ ذاك الثناء شيئا، فالقارئ إما عالم بما يستحق رسول الله ﷺ من ثناء، والثناء هنا يصير إذاً تكراراً لما يعلم، أو جاهل به، والثناء في هذه الحالة يمسي دفعا للقارئ إليه، وهو غير مقصود بما أكتب، فالفنان حينما يبدأ في تجميل صورة جميلة من الأصل، لا أحسبه إلا وقد أفسدها بجهد ظالم، ذلك عكس فِعل من يحاول إفساد الجمال، فهو قادر لا محالة علىٰ الإفساد، لهذا فأنا أستعين الله جلت قدرته علىٰ عسر هذا البحث المحايد، ولا أخالي قد ابتعدت عن المبادئ البحثية المعروفة من حيادية وتقمص وموضوعية بأن يقرن اسم محمد برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فالمَلَك (الناموس) الذي أُنزل عليه هو الملك الذي أُنزل علىٰ موسىٰ وسائر الرسل، ولا داعي إذن لحجب ما يستحق رسول الله، ولئن كانت المبادئ البحثية لم تتح لي توقيره قبل نزول الوحي، فهي أيضًا تلزمني بالتوقير بعد النزول، وإلا انمحىٰ عني التزامي بالمبادئ البحثية من الحياد والموضوعية.

٢- خديجة أول من آمن:

لمَا لاذ رسول الله بخديجة مرددا زملوني، زملوني، دثروني، دثروني، لزمته فزملته ودثرته فزعة وهو يرتعد كأن به حمي، وكان الجو حاراً، ولما ذهب عنه الروع قال لها مستنجداً:

يا خديجة، مالي؟، وحدثها بما رأىٰ، وأفضىٰ بمخاوفه إليها قائلا:

يا خديجة لقد خشيت علىٰ نفسي، إني أسمع صوتًا وأرىٰ ضوء وإني أخشىٰ أن يكون في جُننً.

لم تبد خديجة رضي الله عنها (وكانت في الخامسة والخمسين من عمرها) أي خوف أو وجل مما يجيش بصدر زوجها، بل سعدت بما حدث، فها هو من اختارت زوجًا يصل بتحنثه إلىٰ ما لم يصل إليه من سبقه مِن قبل، ولم لا وهو الصادق الأمين الكريم، واصل الرحم وعزيز النفس، وتذكرت كل أولئك الذين مارسوا التحنث مِن قبل، وكان قد مثل

بذهنها علىٰ الأخص زيد بن عمرو بن النفيل فقالت لرسول الله كلمات خالدة لا يعد الا حكما مسبقا

(لم يكن الله ليفعل بك هذا يا بن عبد الله، أبشر يا بن عم واثبُت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ووالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكَل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم وتعين علىٰ نوائب الحق) اطمأن روع رسول الله قليلاً بكلمات خديجة، إلا أنه كان عليه الصلاة والسلام لايزال يخشىٰ أن قد أصابه الجنن، ثم أنزل الله عليه أوائل آيات سورة القلم (٧٧) .

(ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون، وإنك لعلىٰ خلق عظيم، فستبصر ويبصرون) فاطمئن تماماً عليه الصلاة والسلام، وهدأت نفسه الشريفة، وظل في فراشه متزملاً ومتدثراً، إلىٰ أن أنزل الله سبحانه وتعالىٰ أولىٰ التكليفات له ﷺ بعدها أوائل آيات سورة المزمل فأنزل، (يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلا، نصفه أو أنقص منه قليلا، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً، إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا، إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلا، إن لك في النهار سبحاً طويلاً، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) فقام ﷺ الليل كما أمره الله وهو مليء بالرهبة والثقة.

أما خديجة بنت خويلد بن أسد فبفطنتها ونفسها السليمة الراقية وعت ما حدث ويحدث لزوجها وتمنته نبي هذه الأمة، وإن احتاجت إلىٰ من يؤكد صدق حدسها، ووجدت ضالتها في اليوم التالي في أقرب وأفضل من تستشيره، وهو بن عمها ورقة بن نوفل بن أسد، وكان كما تقدم واحد ممن تشككوا فيما تتعبد قريش وكان شيخا كبيرا وقد اختار التنصر وعرف الإنجيل وتعلم العبرانية ولكنه كان قد عمىٰ، أخذ رسول الله ﷺ قسطا من النوم وفيما هو في هدأت نومه انطلقت خديجة في زيارة لورقة بن نوفل، فأخبرته خديجة بما حدث لمحمد، فأطرق ورقة ملياً ثم قال (قدوس قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت قد صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسىٰ، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت)

---

(٧٧)سورة اقرأ هي أول سورة علىٰ وجه الإطلاق ولم تُنزَل كاملة، ثم سورة (ن) – ثم المدثر وكلها لتأكيد النبوة لرسول الله وليست للدعوة

عادت خديجة إلىٰ محمد ﷺ فوجدته يغط في نومه متدثراً كما تركته وفيما هو في هدأة نومه شعر بثقل في تنفسه وإذا به يهتز، وقد بلل العرق جبينه فيقوم فيستمع إلىٰ الملك يوحي إليه سورة المدثر:

(يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرُجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر) (٧٨) وهي أول سورة تكلفه بالدعوة للدين وهي كذلك أول سورة تنزل كاملة.

رأته خديجة رضي الله عنها في هذه الحالة فأشفقت عليه فدعته إلىٰ أن يعود لفراشه فيستريح فقال لها رسول الله ﷺ

(انقضىٰ يا خديجة عهد النوم والراحة فقد أمرني جبريل أن أُنذر الناس وأن أدعوهم إلىٰ الله وإلىٰ عبادته فمن ذا أدعو؟ ومن ذا يستجيب لي)

إسلام خديجة بنت خويلد

وفيما هو علىٰ هذه الحالة رأت أن تطمئنه بما بلغها من ورقة فقصت علي ما قاله لها وأعلنت إسلامها وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ومنذ تلك اللحظة وحتىٰ انتهت حياتها وهي في الخامسة والستين أي عشر سنوات من النضال والحرمان من اجل دين الله وانطلقت به خديجة حتىٰ أتت به ورقة بن نوفل ثم قالت:

يا بن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال ورقة لرسول الله (يا بن أخي ماذا ترىٰ؟)

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأىٰ، فقال له ورقة (هذا الناموس الذي نزَّل الله علىٰ موسىٰ، يا ليتني فيها جَذعًا، ليتني أكون فيه حيًا إذ يخرجك قومك) قال رسول الله ﷺ (أوَ مُخرجيَ هم؟) قال (نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزَراً) لكن ورقة كان قد مات قبل الجهر بالدعوة.

---

(٧٨)سورة المدثر وهي سورة نزلت كاملة علىٰ رسول الله وهي أول سورة تكلف الرسول بدعوة الناس للدين الجديد

٣- رسول الله النذير المبين:

بعد آخر ما أُنزل علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، علم بأن عليه أن ينذر الناس ولكن من ينذر؟، وبأي شيء ينذر؟، ومن أي شيء؟، وكيف ينذر؟، هذا ما قاله رسول الله لخديجة رضي الله عنها، فلينذر الناس إذن بما يعرف أنه ضلال بفطرته، وليدعوهم إلىٰ الله الواحد، وإلىٰ التخلي عن الأصنام التي يكرهها وعبادة الله الواحد الذي هداه عقله إليه، كذلك كان عزمه إلىٰ أن علمه شديد القوىٰ، فقد كان العرب والمكيون في شك عظيم كما ذكرنا من قبل، يعلمون جيداً كيف انحرفت أفكارهم ومعتقداتهم عن الدين الحنيف، وقد وسَّعَت الشقة الفكرية والعقلية بينه وبين قومه، شأنه في ذلك شأن العديد من المكيين من أفذاذ عصره كزيد بن عمرو بن النفيل، وعبيد الله بن جحش، وورقة بن نوفل، وابن عم ورقة عثمان بن الحويرث وغيرهم.

ولكن محمد بن عبد الله هو من اختاره الله جل وعلا لحمل الرسالة، وقد سبقت فطرته السليمة لسنين عدة نزول الوحي عليه، ومن أجل تلك الفطرة السليمة تم اختيار الله له، مصطفىً من بين كل من كان يسير علىٰ نهج التساؤل والتدبر من قبله، وإن كان الله سبحانه وتعالىٰ قد اصطفىٰ محمداً، فهو الوحيد المؤهل لحمل الرسالة بينهم، فهو خيار من خيار من خيار، فتلك مسؤولية أتت من تميزه.

كان العزم عند رسول الله المختار أكبر من الحيلة والوسيلة، وسابق للعلم الذي عليه أن يتعلمه ويعلمه، كان الصدق أولىٰ مؤهلاته صلىٰ الله عليه وسلم، وكذلك كانت الأمانة، كان التواضع سمة القادرين الكرماء والعظماء هو الضوء الجاذب للباحثين عن الحق والحقيقة، كان الثبات وكانت رباطة الجأش أدوات مكنها الله منه ومكنته من أداء الرسالة، وكان التوكل علىٰ الله بمجمع خلاله وصفاته، منظومة متكاملة، في تمكين عزمه الماضي والثابت.

كانت صفاته كلها صفات تُقتدىٰ للبشرية من أجل النهج السليم، وكان المختار قدوة للعالمين، فيحَمَد، ويصير اسمه علىٰ مسمىٍ، كانت حياته كلها سلاسل من المحن والابتلاءات بعد الرسالة، أكبر وأشد مما كانت عليه قبلها، وقد علمنا معـًا أي حياة شاقة

عاشها قبل الرسالة، وسنعلم أي معاناة وشقاء من أجل الحق والحقيقة سيعيش محمد صلىٰ الله عليه وسلم، هو وكل من تجرأ وآمن بالله.

قادته فطرته السليمة إلىٰ دعوة الناس إلىٰ مكارم الأخلاق التي هو عليها والارتقاء بقلوبهم وأرواحهم لتتصل بالله الذي خلقهم، فيتقربون لله بالعمل الصالح، وإيتاء ذي القربىٰ حقه وابن السبيل، ونبذ عبادة الأصنام، ولكن أين المنهج؟

****

من صفات رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، كانت الفطنة والفقه، فالمختار لا تنزل عليه آيات الله فيبلغها فحسب، بل بفطنته يفقهها فقهاً كاملاً نعجز نحن مهما درسنا أن نصل إلىٰ فهم وفقه الرسول لها، ويترك له الله البحث عن وسيلة هداية الناس لها، وبها فحينما أُنزلت عليه سورة المدثر بأوامرها البسيطة في الظاهر، بعيدة المدىٰ قوية الأثر والفعل، عمل بما علم بفطنته وفقهه لما أنزل عليه أن:

ينذر، حتىٰ لا يترك أحدا ممن يخالف مرضاة الله إلا وأنذره.

يكبر حتىٰ لا يترك أحداً علىٰ ظهر الأرض ينازع الله الكبرياء.

ويطهر ثيابه ويهجر الرجز فعلىٰ الرغم من اعتياد رسول الله علىٰ الطهارة ظاهرا وباطناً وهجران الرجز كانت من صفاته إلا أن الله تعالىٰ أمره وأكد عليه بالاستمساك وبالكمال فيهما للاكتمال بهما كمثل أعلىٰ للبشرية.

وألا يمنن يستكثر فالمرحلة القادمة فيها من الجهاد والمعاناة ومجابهة الإخفاق والفتن والتضحيات ما لا يسمح لأولو العزم بالمن والاستكثار.

ويصبر لله فلسوف يلقىٰ الأذىٰ والبلاء والاستهزاء والتكذيب والغيرة والكراهية والغل كما سيواجه المقاطعة والأذىٰ وموت ابنه كابتلاء، وطلاق بناته كعقاب لمجرد كونهن بناته وإفلاس خديجة وموتها ومحاولات القتل والغيلة والتعذيب والإهانة له، ولأتباعه وكل ذلك لا ليلقىٰ حظاً لنفسه أو للمؤمنين به في الدنيا، بل لمرضاة الله.

كانت تلك هي الخطوط العريضة لأسلوب الدعوة، أما تفاصيلها فلسوف تُنزَل عليه تباعاً، فقد انتدبه الله تعالىٰ لهذا الأمر الجليل فانتزعه من النوم والدفء إلىٰ الجهاد، ومنذ

تلك اللحظة لم يعش رسول الله لنفسه، فهو المختار لحمل العبء والمهيأ له، والذي تحمله أكثر من ثلاثة وعشرين عاماً لا يلهيه شأن غيره (٧٩).

٤- الرعيل الأول لمن اهتدى بعد خديجة:

إسلام علي وجعفر ابنا أبي طالب: لمَّا أنزل الله علىٰ رسوله سورة المُزَمِل (يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلاً، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً) علِم رسول الله من سورة المزمل أن عليه أن يقوم الليل فعليه إذن أن يصلي، فصلىٰ وقبلته لبيت المقدس وصلت معه خديجة صلاة إبراهيم عليه السلام يوم الإثنين كما علمها جبريل له، وكانت الصلاة وقتها ركعتين بالغداة وركعتين بالعشيٰ، وفيما كان رسول الله ﷺ وخديجة رضي الله عنها يصليان يوماً، دخل عليهما علي بن أبي طالب بن عم رسول الله فجأة- وكان صبياً لم يبلغ الحلم وفي العاشرة أو الحادية عشر من عمره، يعيش في كنف رسول الله كما ذكرنا- فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان ترتيلاً في صلاتهما مما تيسر من الآيات المنزلة علىٰ رسول الله يومئذ، فوقف الصبي دهشاً حتىٰ أتما صلاتهما، فسأل: لمن تسجدان؟ فأجابه رسول الله محمد ﷺ (إنما نسجد لله الذي بعثني نبياً وأمرني أن أدعو الناس إليه) ودعاه رسول الله إلىٰ الله الواحد، فقال الغلام وكان في الحادية عشرة (قيل في الثامنة) من عمره: هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتىٰ أحدث فيه أبا طالب، وكره رسول الله أن يفشىٰ سره قبل أن يستعلن أمره فقال له (يا علي إذا لم تؤمن فاكتم هذا الأمر) فمكث علي ليلته فهداه الله تعالىٰ للإسلام فأصبح غادياً إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فأسلم علي يوم الثلاثاء، وقد تصادف بعد ذلك أن رأىٰ أبو طالب النبي ﷺ وعلياً يصليان، فكلمهما في ذلك ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات وأمر جعفر بن أبي طالب (وكان في الثانية والعشرين) بأن يصلي معهما إلىٰ يسار علي

إسلام زيد بن حارثة: هو زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزىٰ وهو أشهر موالي رسول الله، وهبته خديجة لرسول الله وهو بن ثمان سنين وأعتقه رسول الله وتبناه، وكان من أبوين مسيحيين، ولكنه لم يكن يعلم ذلك ولم يكن يعلم شيئاً عن

(٧٩)علىٰ الهدي والإضافة لما كتبه الأستاذ سيد قطب في كتابه (في ظلال القرآن) لتفسير سورتي المدثر والمزمل ج ٢٩\١٦٨-١٦٩-١٧٠-١٧١&١٨٢

المسيحية، فقد سُبي صغيراً[٨٠] وقد آمن برسول الله فور دعوته وكان في السادسة والعشرون من عمره. كما امنت ام ايمن التي كانت امة الرسول ﷺ

إسلام أبو بكر الصديق (عبد الكعبة بن عثمان بن عامر التيمي):

هو عبد الكعبة بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي وكان يصغر رسول الله بثلاث سنوات، ومحبـاً لرسول الله قبل الرسالة وقبل زواج رسول الله ومن أصدقائه المقربين، يكثر من زيارته للحديث معه صلىٰ الله عليه وسلم، وقد أسماه رسول الله (عبد الله) قبل الدعوة فأحب اسمه الجديد وأعلنه فلا عبادة للكعبة وإنما العبادة لله وحده، وقد أتىٰ لزيارة رسول الله في بدايات الدعوة، وعرض عليه رسول الله الأمر، فآمن من فوره، وكناه رسول الله عتيقـاً قائلا (أنت عتيق النار) وقال عنه رسول الله (ما دعوت أحداً إلىٰ الإسلام إلا كانت عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر الصديق، ما عتم عنه حين ذكرته له) وكان أحد الأفذاذ الرافضين للآلهة ولما أسلم آذر النبي في نصرة دين الله فقيل كُنىٰ أبا بكر لتبكيره بالإسلام، فهو أول من أسلم من الرجال، وقد أطلق عليه لقب الصديق فيما بعد كما سنرىٰ بعد أن فتن الناس لحديث الإسراء والمعراج فكان الأوحد الذي صدقه، وبمنطق تصديقه صدق الناس من بعده فهو إذن أبوبكر الصديق الذي كان لإسلامه علامات فارقة في تاريخ الدعوة ولأنه كان مألوفا سهلا ومحببا من الجميع، معروفـاً بخلقه الحميد وحسن المجلس وبارعا في التجارة وموثوقـاً به، وموكولاً له ما هو منوط لقبيلته بشأن الديات (الأشناق) وكان إذا حمل شيئا صدقته قريش وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه وإن احتملها غيره خذلوه، فلما دعا إلىٰ الإسلام أسلم علىٰ يديه ست من الرجال وهم عثمان بن عفان الأموي وكان في السادسة والثلاثين والزبير بن العوام الأسدي المخزومي ابن عمة رسول الله وكان في السادسة عشر وعبد الرحمن بن عوف الزهري، وخالد بن سعيد بن أمية بن عبد شمس وسعد بن أبي وقاص الزهري وكان في السادسة عشر من عمره، وطلحة بن عبيد الله التيمي ابن عم أبي بكر فكان هؤلاء النفر العشرة الرعيل الأول وطليعة الإيمان وكانت زوجته أم رومان بنت عامر ممن أسلمن وأسماء ابنته (تزوجت الزبير) التي كانت في الخامسة عشر من عمرها وأنجبت أم رومان لأبي بكر عبد الرحمن الذي رفض الدين الجديد بعدما حاول أبوه أبو

---

(٨٠)ابن هشام ١\٢٤٧

بكر وحاولت أمه أم رومان بنت عامر أن يهديا ابنهما وهو ينفر من الدعوة وينهرهما فأنزل الله فيه (والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبل وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين) [٨١] أما عائشة فكانت رضيعة في مطلع الدعوة (وبلغ المؤمنون بالدعوة عشر ذكور وثلاث إناث)

وبعدهم آمن نفر من الناس صاروا من الأولين مثل بلال بن رباح الحبشي وتلاه أمين الأمة أبو عبيدة بن عامر بن الجراح الفهري من بني حارث بن فهر، وأبو سلمة عبد الأسد المخزومي وأم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ومسعود بن ربيعة وسليط بن عمرو وأخوه حاطب بن عمرو وعياش بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي وهو الأخ الغير شقيق لأبي جهل وامرأته أسماء بنت سلامة وخنيس بن حذافة بن قيس وعامر بن ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي وأخواه قدامة بن مظعون وعبد الله بن مظعون من بني جمح، وجعفر بن أبي طالب (ابن عم رسول الله) الهاشمي وامرأته أسماء بنت عميس وحاطب بن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي وعبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب بن عبد مناف الهاشمي (ابن عم رسول الله) وسعيد بن زيد (وهو بن زيد بن عمرو بن النفيل ابن عم عمر) وامرأته فاطمة بنت الخطاب (أخت عمر بن الخطاب العدوية) وخباب بن الأرت بن سعد الهذلي، وعُمير بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود الهذلي وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد بن جحش وأبو خزيمة بن عتبة بن ربيعة وبهم تمثلت بطون قريش، (فبلغ المؤمنون ست وثلاثون)

أم أيمن: قل من المؤرخين الذين أفردوا لأم أيمن ما يُستحق النظر إليه من خلفياتها كواحدة من السباقين للإيمان، وهي بركة الحبشية وكنيتها أم أيمن، وقد كانت ضمن التركة التي ورثها رسول الله منذ طفولته من أبيه قبل أن يولد وأحسب أنها كانت تكبره ﷺ بأحد عشر سنة تقريباً، وهي إحدىٰ مرضعات الوليد محمد فقد رضع منها ومن ثمان نساء أخريات، وهي من عادت به إلىٰ مكة حينما ظل الطفل محمد ينتحب في أحضانها وبعيداً عن أحضان أمه، والتي لازمته كل حياته وكان لا يمكنها أن تمنحه إلا الشفقة في طفولته، فيشعر باليتم الكامل، وقد كانت تتأمل الوليد يكبر ويعتصرها الألم مما يكابد، تحزن عليه

(٨١) سورة الأحقاف: آية رقم ١٧

حينما تقسو الأيام، وتفرح له كلما رأته يكبر ويرسم لنفسه كياناً مميزاً بخصاله الفريدة بين الناس، وأتصور – ولكني لا أعلم يقيناً – أن إيمانها برسالة السماء الآتية عبر حبيبها محمد، أن شعرت بالفخار والغبطة فقد أحبته وهي أيضا أكثر من لازمته، وممن شاركن في خدمته صلىٰ الله عليه وسلم، فكان وفاؤه لها عظيماً قبل الرسالة وبعدها، وكانت أم الفضل زوج عمه العباس بن عبد المطلب ولبيبة جارية بني مؤمل بن حبيب بن كعب التي كان يعذبها عمر قبل إسلامه من الرعيل الأول، وزنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس وعدد غفير من الإماء.

وكان عمار بن ياسر وأبوه وأمه سمية وكان صهيب بن سنان الرومي وطفيل بن عبد الله وعامر بن فهيرة وأبو فكيهة أفلح وعدد غفير من العبيد.

فبلغ عدد المسلمين من الذكور ٤١علىٰ وجه البقين ومن الإناث ١٦ ولم يمض عام.

دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء في جماعات حتي فشي ذكر الإسلام بمكة فتحدث الناس به علىٰ الرغم من أن الدعوة كانت سرية وفردية، فرسول اللهﷺ كان يجتمع بهم سراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ويرشدهم في الخفاء، وتتابعت الآيات المنزلة علىٰ رسول الله ﷺ قصيرة موجزة، ذات فواصل رائعة ومنيعة، وإيقاعات جذلة وخلابة، وكأن الآيات تهمس بالحث علىٰ مكارم الأخلاق وبالأسرار الإلهية في رقة تؤكد علىٰ وحدانية الله وتحث علىٰ تزكية نفوس المؤمنين، تخبر بالجنة والنار.

قلنا من قبل أن الآلهة كانت في تلك الفترة موضع تساؤل من العديدين من أهل مكة خاصة في الأجيال الجديدة، فبعد حادثة الفيل، كان التساؤل عن دور تلك الآلهة في الذود عن الكعبة المشرفة ولقد كان الذود من الله ولم تحرك الآلهة ساكنا، وإن كان الأمر كذلك فما دور تلك التماثيل والأصنام والأنصاب؟ فالشعوب بعد الأزمات الطاحنة دائما ما تراجع واقعها، وكانت المظالم والفساد والربا والاستعباد والتسري والزنا ووأد البنات من عادات المجتمع الجاهلي وقد خلق الله الناس علىٰ فطرة واحدة وكانت الفطرة ترفض عادات الجاهلية، والأنبياء موكول لهم، ومطلوب منهم الانحياز للفطرة السليمة، ومن الناس من يرفض تلك العادات الجاهلية جهراً أو سراً للأقربين (وهم أول من يؤمن بالله

إيمانـاً واضحـاً) وها قد جاء دورهم، إذ دعا رسـول الله ﷺ بعبـادة الله الواحـد حتىٰ يخـرج الناس من الظلمات إلىٰ النور، فشمر سادات مكة له ولأصحابه عن ساق العداوة مبكراً.

في هذه الفترة آمن مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف وكانت أمه من أثـرىٰ نسـاء قريش، والتقىٰ برسول الله ونطق بالشهادة وخرج من دار الأرقم يكتم اسلامه وبعـد أيـام رآه عثمان بن أبي طلحة يصلي في جوف الكعبة فأخبر أمه فقيدته في بيتها.

اكتمل (الرعيل الأول) بشريحة من المجتمع تمثل أهـل مكـة ومـن خـارج مكـة فمـن كبرىٰ القبائل والبطون القرشية، كان هنالك أكثر مـن مؤمن مـن بنـي عـدي ومخـزوم وأميـة وسهم وأسد وتيم وجمح وهاشم وهذيل وخزيمـة، وفهـر، ومـن خـارج مكـة غفـار وأسـلم وغيرهما، ومن العبيد أيضا ممن تنوعت أجناسهم ما بين العرب والعجـم وظهـرت إنسـانية وعقلانية وعالمية الدعوة بجلاء، واكتمـل الرعيـل أيضـا بنخبـة مـن الأفـذاذ يقلـون عـن ٦٥ وسط مجتمع يربو علىٰ ٣٠ الف من المشركين، وهؤلاء الذين آمنـوا كانـت لـديهم ملكـات خافية عليهم وعلىٰ أهل مكة وإمكانات نفسية تضاف إلىٰ إمكاناتهم القبلية أو الاجتماعية أو المالية كانوا علىٰ درجة رفيعة من الصدق مع النفس إلىٰ الحد الـذي مكـنهم مـن الولـوج السلس للإيمان فـأعطتهم ملكـات نـادرة مـن الاستمسـاك بالعقيـدة وعلـىٰ درجـة عاليـة مـن الفداء الذي مكنهم من مجابهة المخاطر.

تلك هـي حقيقـة الكـون كمـا يشـرحها لنـا وايـت هيـد (WHITE HEAD) وأسـاطين مدرسـته التـي تسـمىٰ تـارة مدرسـة الكيـان العضـوي وتـارة مدرسـة الواقعيـة الحديثـة وهـي مدرسة فلسـفية رياضـية الـذي يقـول فيهـا أن الكـون كيـان عضـوي كالبنيـة الحيـة في ترتيـب أجزائه فإن اجتماع الفي ذرة من ذرات الأيدروجين معـاً مـثلا، بعيـدا عـن اجتمـاع ألـف ذرة من الأكسجين ظل الحال كما هو عليه، أما في اجتماع واتحاد ذرتان مـن الأيـدروجين وذرة من الأكسجين فينشأ جزئ الماء المختلف عن الذرتين فيعطي الاتحاد كيانا عضـويا خاصـا ومغايراً أكثر إفادة، ولكن هذا الاتحاد يحتاج إلىٰ عامل مساعد.

تطبيقا علىٰ حالتنا، فالمؤمنون والذين اختلفـت مشـاربهم تكـاملوا إلـىٰ تركيـب جديـد وانصهروا فيه بالإسلام، تماما كما يحدث في التفاعلات الكيميائية، التـي تـؤدي إلـىٰ اتحـاد الذرات المختلفة لتكوين عنصر جديد، وإن كانت التفاعلات الكيميائية تحتـاج إلـىٰ عامـل

مساعد فقد كان الإيمان بالله هو ذلك العامل، وكانوا من الحكمة التي تؤهلهم بالتضحية بالمكاسب الآنية من أجل وعد بالجنة من إله لا يرونه فكان كل من آمن بمحمد ﷺ بعدها يدرك تماما أنه دين الله الذي يخاطب فطرتهم وأنه الإسلام الذئ افتقدوه لآلاف السنين بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في تفصيل وتجديد يناسب نضجهم الإيماني وقد كان نزول الآيات نزولا رصينا وعلىٰ فترات متباعدة أتاحت لهم التفكر والتأمل أما من لم يؤمن فقد حسب أن محمداً ومن اتبعه من الصابئة.

٥- قريش والمسلمون:

حسبت قريش أن الأمر لا يعدو أن يكون ما قد خبروه قبلاً من إرهاصات الأفذاذ في البحث عن الحقيقة، والواقع أن هؤلاء الأفذاذ كانت قد مكنتهم بيئتهم من ذلك البحث عن الحقيقة فقريش سليلة إبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل عليهما السلام، وكان الأفذاذ من الطبقة الأرستقراطية علىٰ وجه العموم وهي الطبقة التي من جميل خصالها أن تجد وقتاً فسيحا للتأمل ولا تحمل عبء البحث عن لقمة العيش، تجد في أيامها ولياليها الطويلة متسعا، تتأمل تواجد ثلاثمائة وستين صنما تحظىٰ بالاهتمام والتقديس بما لا تستحق فلم تلبث الأرستقراطية والتي تحمل أيضاً قبيح خصال الترف والاستسهال والإستمساك بالمعهود خاصة وأن في جنبات الدعوة استنفار للعقل والضمير، وحديث غريب عن مسامعهم في العدل والمساواة بين البشر، عبيداً كانوا أم سادة، وصرف للأنظار عن آلهة تدر علىٰ قريش أموالاً طائلة من السياحة الدينية ومكانة نابعة من الاستئثار بالبيت العتيق.

لم يكن غريباً علىٰ سادة قريش من غلاظ القلوب وقساة الأكباد أن ينأىٰ إلىٰ مسامعهم كون أغلب المؤمنين بالدعوة من العبيد ومن والضعفاء وحتىٰ أولئك الذين آمنوا من ابناء بطون قريش كانوا من الشباب والنساء والصبية وكل ضعيف أو بائس أو محروم إذ كان الزاهدون في الدنيا أشد الناس إقبالاً علىٰ الإسلام، أما ما حسبوه من حديث محمد فلا يعدوا كونه مقاربا لحديث الرهبان والحكماء أمثال قس بن ساعدة وأمية بن أبي السلط وورقة بن نوفل وغيرهم، واختلط عليهم الأمر وحسبوه يدعو إلىٰ دين الصابئة، فقد كان يدعوهم إلىٰ الزهد. رأوا محمداً في غنىٰ عن ماله وعن مال خديجة ولا يعبأ به ولا بالإكثار منه

والمزيد عليه أليس يقول لهم مما أنزل الله عليه قوله تعالىٰ (ألهاكم التكاثر حتىٰ زرتم المقابر، كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون، كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) (٨٢) فالإكثار إذا فيه نعيم للجسد ولعنة للروح، فالناس عائدون لا محالة إلىٰ دين آبائهم وأجدادهم بعدما يملوا بلاغة الكلمات وأن هبل واللات والعزىٰ وإساف ونائلة ستكون آخر الأمر صاحبة الغلب، وكان الاستهتار بهم وبما يحدثهم به محمد فلا خطر فيه علىٰ مكانتهم التي ورثوها منذ قرون وليس لأحداث الرجال وضعفاء الناس أن يشكلوا أي خطر. كان الاستهتار بالدعوة من قبل أعدائها من أكبر أسباب تمكنها، وأي عاقل لا يحق له النظر باستهتار لأي فكر جديد مهما صغر، إلا أن تمكن المقاييس المادية البحتة علىٰ قساة القلوب صورت لهم ضآلة الخطر وقريش في حقيقة الأمر، كانت تمثل التفوق العددي الكاسح بلا جدال، والمكنة المالية والسلطوية، والمكانة الروحية الرسمية، والتفوق المعلوماتي علىٰ الرعيل الأول فحتىٰ محمد ﷺ كان من أوسط الناس، ولم يكن علىٰ رأس عشيرته التي لم تعد علىٰ رأس قريش، ولا كان لمحمد من السلطة ولا المال والابناء ما يحسب حسابه ولا عرف عنه قرض الشعر، أما من اتبعه فكانوا أدنىٰ من العشيرة بكثير حتىٰ لو اجتمعوا وكان أغلبهم دون العشرين من العمر أو من العبيد وعلىٰ الجانب الآخر لم يكن خصوم النبي من الضعفاء أو البسطاء أو المعيوبين بل كانوا هم أشراف القوم وكانوا كما ذكرنا سلفاً عظماء، كبراء، وكرماء كل منهم يصلح وحده كزعيم ذو قدر عظيم، ولكن كان الكبر والحسد جعل إبليس رجيما وجعل قابيل قاتلا، هو ما سبب ترسيخ الأفكار الجاهلية علىٰ الرغم من فسادها هو ترسيخ للسيادة وكان الدفاع عن السيطرة والسيادة علامة من علامات القوة والشرف لاعتلاء المكانة وتسجيل المواقف وكأن الاستهتار بالدعوة وتجاهلها من علامات الحكمة والرشاد لديهم ولو أنهم آمنوا لدانت جزيرة العرب كلها للإسلام دون صراع أو قتال، لأنهم أصحاب البيت العتيق وقادة الفكر والإيمان في الجزيرة العربية وأحسب أن هذا ما تمناه رسول الله بما يفسر صبره عليهم.

---

(٨٢)سورة التكاثر

٦- شدة الوحي:

كان الوحي يأتي لرسول الله علىٰ أوجه عدة، وكلها أوجه مُرهِقة له صلىٰ الله عليه وسلم، كان إذا نزل عليه الوحي كُرِب له وتلبد،

الحالة الأولىٰ ويقول لنا عنها رسول الله: (كان الوحي يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتشمل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول) [٨٣] وكان يتفصد عرقاً في شدة البرد وحالة الصلصلة تحتاج إلىٰ سمو روحي لرسول الله ﷺ فهي كما قال بن خلدون «انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية»

الحالة الثانية: وهي أن يتمثل له جبريل عليه السلام في صورة بشر سوي، وهذه الحالة أخف من سابقتها حيث يكون التناسب بين المتكلم والسامع ويأنس رسول الله النبوة عند سماعه الوحي، ويطمئن إلىٰ جبريل اطمئنان الإنسان للإنسان وكما يقول بن خلدون «وهي عكس الحالة الأولىٰ لأنها انتقال الملك من الروحانية المحضة إلىٰ البشرية الجسمانية» وقد كان نزول الوحي في أول الأمر علىٰ هذه الصورة رحمة من الله بنبيه.

والحالتان هما القسم الثالث من أقسام التكليم الإلهي المشار إليه في الآية (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء، إنه عليم حكيم) [٨٤]

انقطاع الوحي:

وتوالىٰ الوحي في أول الأمر، ثم فتر وانقطع في مرحلة من مراحل الدعوة الأولىٰ، وهو ما حول رسول الله سكينة صامتة جعلته في وحدة من الناس ومن نفسه، وعادت مخاوفه الأولىٰ حينما كان يظن أن ما يرىٰ ليس إلا من الجن، وحزنت خديجة ولم تكن أقل منه إشفاقا ووجلاً، إلا انها قد اغتمت ولم تكن علىٰ درجة ثباته ورباطة جأشه، فقالت له (ما أرىٰ ربك إلا قد قلاك) فزادته مقولتها غما علىٰ غم، فلم قلاه الله بعدما اصطفاه ومرت الشهور بعد الشهور ورسول الله في حيرة من الأمر، وفي شديد الحزن والأسىٰ والرجاء إلىٰ

(٨٣)الصالحي ج ٢ ص ٣٥٣
(٨٤)الشورىٰ:٥١

الله، وإنه لكذلك تساوره تلك المخاوف إذ جاءه الوحي بعد طول فتور وأنزل الله عليه يبدد مخاوفه ويقسم له بقوله تعالىٰ (والضحىٰ، والليل إذا سجىٰ، ما ودعك ربك وما قلىٰ، وللآخرة خير لك من الأولىٰ، ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ، ألم يجدك يتيما فآوىٰ، ووجدك ضالا فهدىٰ، ووجدك عائلا فأغنىٰ، فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث)[٨٥] فرح رسول الله ﷺ وسكنت نفسه الشريفة، وغبط قلبه الشريف الصادق فقد تولاه الله برحمته وأزال كل خشية أو ريبة من نفسه، فالكلمات هذه المرة ليست بالتكليف أو بالتعريف، بل هي بالتأكيد والرعاية والتسكين فالله جل جلاله بما ينبغي أن يُعرف عنه سبحانه من كرم ورحمه يقسم له - وهو غني عن القسم لعبده بآيات من آياته وهما الضحىٰ والليل- أنه لم يودعه، ويعده بأن ما سيأتي خير مما كان في أول أمره مع الله، ويعده سبحانه وتعالىٰ بالعطاء فيرضىٰ صلىٰ الله عليه وسلم، ثم يذكره الله جلت حكمته برعايته له منذ ولد فآواه في اليتم وهداه في الضلال وأغناه في العيلة، ويؤكد عليه ألا يقهر اليتيم وألا ينهر السائل، وأن يحدث بما أنعم عليه الله، وعلم بعدها رسول الله مما أنزل عليه مكانته عند الله

٧- عوامل انتشار الدعوة وبوادر الصدام:

كان عاملا استهتار قريش وكذلك سرية الدعوة هما ما أديا إلىٰ سرعة الانتشار في هدوء كما قلنا، أما حلاوة القرآن في قلوب الناس وشخصية رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقد أدتا إلي تمكين الإسلام من القلوب، فبينما كانت قريش تدعو إلىٰ أن تظل نفوس الناس في رق العبودية للبشر بما تكدس عليها من خرافات حجبت عنها نور الحق، كانت الدعوة الجديدة إلىٰ الحرية المطلقة العزيزة علىٰ نفس العربي عزة حياته عليه، وأمل في نفوس العبيد، فلا يسألون إلا أمام الله وحده لا شريك له، وأعمال الإنسان وحدها هي ما تشفع له أمام الله وضميره هو الذي يزن أعماله وبه يحاسب يوم تجزىٰ كل نفس بما كسبت، أي حرية أوسع مما يدعوا إليه محمد، وهكذا كان (الرعيل الأول) وكان من المسلمين الجدد أولئك الذين يرون معايب الجاهلية فيرفضونها في داخلهم وهم دائما (الرعيل الثاني) من المؤمنين بالله.

(٨٥)سورة الضحىٰ

ومنهم أيضاً من يرون في أنفسهم وضاعة، لا تؤهلهم للتفكير والتأمل وما أن يروا ما عجزوا عن التعبير عنه تشتد نفوسهم وكأنهم استيقظوا من السبات وهم (الرعيل الثالث) واستيقظت قريش من سباتها وقد طرق الإسلام كل البيوت بها تقريباً.

كان القريشيون في بادئ الأمر غير منكرين لما يقول رسول الله، فإذا مر عليهم رسول الله ﷺ في مجالسهم يشيرون إليه أنه غلام بني عبد المطلب يُكلم من السماء، وظل الأمر هكذا حتىٰ مرت السنوات الثلاثة الأولىٰ من البعثة فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ الآيات (وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين، فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون) (٨٦)

كان ما فعله رسول هو أن دعا خمسة وأربعين رجلا من عشيرته الأقربين إلىٰ طعام في بيته لينذرهم ويبشرهم، وحاول أن يحدثهم ليدعوهم إلىٰ الله ؛ فقال رسول الله لهم

(ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني علىٰ هذا الأمر؟)

كان من الطبيعي أن يحضره علىٰ بن أبىٰ طالب ولم يكن إلا صبياً في الرابعة عشر من عمره فلما أعرضت العشيرة عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، بادر علي رضي الله عنه بأن أعطاهم المثل الأعلىٰ لهم فنهض وقال (أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب علىٰ من حاربت) (٨٧) فدهشت العشيرة من مؤازرة الصبي، ونظرت إلىٰ أبي طالب ليروا ردة فعله ثم إلىٰ ابنه علي فقهقه بعضهم، وابتسم البعض الآخر، فقطع عليه عمه أبو لهب حديثه وبادره وقال: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فدع الصباة (يقصد علي) واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن قمت علىٰ ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحداً جاء علىٰ بني أبيه بشر مما جئت به) واستنفر القوم ليقوموا، ولما كان الأمر الإلهي له ﷺ أن يخفض جناحه فسكت ولم يتكلم في ذلك المجلس، ثم انصرفوا مستهزئين بالدعوة وبمن يدعوا إليها وبمن آزره فيها دونهم والاستهتار شيئ ولكن الاستهزاء شيء آخر، دعاهم

(٨٦)سورة الشعراء الآيات من ٢١٤ - ٢١٦

(٨٧)أثبتت الأيام والسنوات بعدها أن علي كرم الله وجهه كان كما قال في ذلك اليوم (أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب علىٰ من حاربت)

رسول الله في اليوم التالي كرة أخرىٰ فسورة الشعراء أيضا قد ذكرت قصة موسىٰ وكيف عاقب الله آل فرعون فكان الفرعون نموذجًا لما سيلقونه إن كذبوا وليكونوا علىٰ بصيرة من أمرهم منذ البداية وشملت السورة قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم ولوط وأصحاب الأيكة، فكان أن دعاهم مرة أخرىٰ، وقال (الحمد لله أحمده وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة، وإلىٰ الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدا أو النار أبداً) فقام أبو طالب وقال (ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وتصديقا لحديثك .

وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أنني أسرعهم لما تحب، فامض لما أمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني علىٰ فراق دين عبد المطلب) فقال أبو لهب (هذه والله السوأة، خذوا علىٰ يديه قبل أن يأخذ غيركم) فقال أبو طالب (والله لنمنعنه ما بقينا) [٨٨] فكان كما قال الله عن موقف عشيرته (وهم ينهون عنه وينئون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) [٨٩]

و كان الاستهزاء من عشيرته الأقربين أولىٰ بوادر الصدام، وما كان علىٰ رسول الله بعزمه الصلب إلا أن صعَد الدعوة من بني هاشم إلىٰ قريش بأمر من الله، فهي أيضا عشيرته، ومرت عدة أيام وقد نما إلىٰ علمه تزعم عمة أبو لهب وزوجه السخرية به في مجالس قريش، وكان أبو لهب يجاور رسول الله في المسكن فكان يتزعم الهجوم عليه ﷺ في مجالسه، وينعته بالكذب، كما كانت أم جميل تلقي الشوك في طريقه للخروج من داره فكان لابد لهذا الإستهزاء من أن يتوقف.

٨- إعلان الدعوة على الناس:

لكل نبي آية يعلن بها للناس عن نبوته، فحينما اعترض الفرعون علىٰ نبي الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام قال له موسىٰ (أولو جئتك بشيء مبين) فأراد موسىٰ أن يقدم إليه برهانه بعصاه، فتلك كانت آيته التي منفكت أن صارت ثعبانا، ويده أيضا التي تخرج بيضاء،

(٨٨)ابن الأثير – فقه السيرة ص ٧٧-٧٨
(٨٩)الأنعام -٢٦

كآيتين للإعجاز، وكانت كل الدعوة مبنية علىٰ معجزة العصا التي مكن الله بها نبيه وكليمه موسىٰ عليه السلام من التبليغ بالدعوة، ولم يبق البحر الأحمر علىٰ ما فعلته العصا فنراه مشقوقًا، ولا بقيت العيون التي فجرتها العصا، ولا غيرها من نتائج العصا إلا أن هدىٰ بها الله الناس إلىٰ الإيمان بالمعجزات الحسية.

والمسيح عليه السلام حينما دعا الإسرائيليين قالوا له (أرنا آية) قال لهم المسيح بوحي من الله (أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) فخلق شكل الطير من الطين أي من المادة ثم النفخ فيه فيتحرك ويطير مع أن مادته لم يزد عليها إلا الروح المنفوخة فيه بإذن الله، إذن فالزيادة لم تكن سوىٰ زيادة روحية يحتاجها اليهود في إكمال إيمانهم، فانفض الناس من حوله يظنونه ساحرا أو ربما حسبوه مجنونا، فكانت الدعوة أيضًا مرتكزة علىٰ آيات يأت بها المسيح عليه السلام بإذن الله لاتتعلق إلا بالروح والروحانيات، وإن إندثر الطير ومات بمرور الزمن من أيقظ عيسىٰ عليه السلام، ولم يزل العمىٰ يصيب الناس، أما محمد رسول الله ﷺ فكان دليله دليلاً أخلاقيًا، لا يستند إلا علىٰ قيم الإنسانية الأخلاقية العليا، فلم تكن حجة رسول الله إلا في تلك الآية فيما رباه الله عليه من قيم امتاز بها علىٰ كل العالمين، فإن أمد الله موسىٰ بالعصىٰ والمعجزات التي أتت بها، فهو سبحانه وتعالىٰ (وله المثل الأعلىٰ) كمن أمد رجلا بمُعِدة يحمل بها حجرا لمسافة طويلة ففعل، ولما أمد عيسىٰ بالروحانيات والمعجزات التي أتت بها، فهو سبحانه وله المثل الأعلىٰ، كمن أمد رجلا بمعدات أحدث لحمل الحجر لمسافة أطول، ففعل، أما محمد فقد أمده الله بالأخلاقيات الباقية، فحملت أخلاقه الحجر لآخر مطاف البشرية وبقيت معجزته الأخلاقية نبراسًا للإنسانية، يمكننا، وينبغي علينا الاقتداء بتلك الأخلاق.

صعد رسول الله ﷺ علىٰ جبل الصفا بعد أيام ليحتكم إلىٰ الناس بما ينعته به عمه واستكمالا بعزم نافذ لما أمره الله به بدعوة قريش ونادىٰ؛ (يا صباحاه) (يا معشر قريش) قالت قريش (محمد علىٰ الصفا يهتف) وأقبلوا عليه. فقال ﷺ ؛ (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقون) وقد تجلت قدرة رسول الله في قدرته علىٰ مخاطبة الرأي العام محتكمًا إليهم فيما يعرفون عنه، إذ عرف عنه ﷺ بالصدق والأمانة في أرجاء مكة. قالوا (نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبًا قط) وهكذا نجح رسول الله في تفنيد مزاعم عمه عنه بالكذب والتمهيد بالإنذار، فقال: (فإني نذيرالله اليكم بين يدي عذاب

شديد) وانتبه الناس فقال: (يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة، يا بني تيم، يا بني مخزوم، يا بني أسد، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله)

وهي بطون قريش الستة الأقرب إليه والأشد بأساً وعدداً ومالاً وأثراً وتأثيراً، وأضاف: وعلىٰ الرغم من بساطة ووضوح الدعوة نهض أبو لهب غاضباً وأخذ بحجر ليضرب به رسول الله ﷺ [٩٠] وصاح (تباً لك سائر هذا اليوم، ألهذا جمعتنا) حزن محمد وارتج عليه وهو ينظر إلىٰ عمه، وما لبث أن جاء الرد الإلهي بقوله تعالىٰ في سورة المسد فألقىٰ رسول الله قوله تعالىٰ (تبت يدا أبي لهب وتب)

وكما ابتدع أبو لهب الإيذاء الجسدي، ابتدع أيضاً سلاح الاستهزاء قائلا (إن كان ما يقول محمد حقاً افتديت منه بمالي وولدي) فأكد علىٰ قصر نظره وغروره بماله فأنزل الله تعالىٰ (ما أغنىٰ عنه ماله وما كسب، سيصلىٰ ناراً ذات لهب)

أغضبت سورة المسد أبا لهب فقد أظهرت شدة العداوة، فأمر أبو لهب ولداه عتبة وعتيبة بتطليق ابنتا رسول الله رقية وأم كلثوم، وبقيت زينب بنت محمد زوجة لأبي العاص بن ربيع، ثم حدث أن مات عبد الله بن محمد فطرب أبو لهب فرحاً، وهرول إلىٰ رفقائه يبشرهم بأن محمدا صار أبتراً وهنا أمسىٰ أبو لهب متهما بفقدان مصداقية العداء فلم يقبل قوله في رسول الله، فخاب سعيه وبطل غرضه واستشاط أبو لهب غضباً واستشاطت أم جميل ومن ورائها أخوها أبا سفيان وأبوها حرب بن أميه وسائر بنو أمية وبدأت ملامح العداوة ونذر الصدام.

كانت سورة المسد قد تحدت ملكة الاختيار، وتنبأت بأن أبا لهب لن يؤمن وسيموت كافرا ومصيره النار، ومبكرا فتحدىٰ القرآن أبا لهب في أمر اختياري فقد كان بإمكانه أن يقوض الدعوة من الأساس بالتشكيك في مصداقية ما جاء به محمد بأن يعلن إسلامه نفاقا فيثبت للآخرين أنه لن يموت كافراً ولن يكون مآله النار، ولكنه لم يفعل، والله يعلم ذلك.

(٩٠) روىٰ ذلك الترمذي

٩ -إمكانات السيطرة لعصابة الكفر وملكات الفضيلة لعصبة الإيمان

تكونت عصابة الكفر من أولئك الذين عز عليهم حسدا ألا يكون الأمر فيهم أو في واحد منهم من الأساس وتكونت من أشراف المال وأمجاد الظلم واللهو، وكما نمت عصبة المؤمنين، نمت أيضا عصابة المشككين. فلمن تكون الغلبة . أصحاب الإمكانات أم أصحاب الملكات! إلا أن إمكانات عصابة الكفر فاقت إمكانات عصبة المؤمنين، في حين فاقت ملكات عصبة المؤمنين ملكات المشككين، علىٰ الرغم من أن أئمة الكفر كانوا علية القوم بما عرف عنهم من رجاحة العقل وتفاخر قريش بهم كل العرب، وبما يملكون من إمكانات، فقد كانت لديهم إمكانات السيطرة سواء علىٰ عقول المجتمع الذي اعتاد علىٰ ريادتهم، وكذلك الإمكانات المالية للمواجهة والعناد، وإمكانات الصلات بمختلف قبائل العرب ذات القوة والأثر، والصلات الدولية وشبه الديبلوماسية بأباطرة الروم والفرس وملك الحبشة، ناهينا عن التفوق النوعي والعددي، وكذلك الحقوق الموروثة، وميل العامة إلي قبول ما يذهب إليه أصحاب السلطة والصولجان كسلا عن المنافحة وربما إيثاراً للسلامة، فيواجهون عصبة الإيمان بسهولة، كانت العصبة المؤمنة – قليلة العدد والأثر المادي – لا تملك إلا ملكات الفضيلة التي كانت غائبة عن الفريق الآخر، والفضيلة تحمي البصر والبصيرة فتمنع الزيغ والزيف في آن واحد، ومن يملك الفضيلة هان عليه فقدان المنفعة وبلاء المضرة، والفضيلة تمنح الفضلاء صدق القياس، وتحميهم دون غيرهم من منزلق الرشوة بالمنفعة، فإن مصاب الإنسانية في تغلب المنفعة علىٰ مر العصور، والفضيلة قد منحت الفضلاء مزية بعد النظر في المنفعة في آخر مطاف الإنسانية ذاتها، فانحاز ميزان الإنسانية في النهاية لملكات الفضيلة علىٰ الرغم من أن عصبة الإيمان كانت أقل عدداً ولا سلطان لها، يندر المال بها والقوة الجسدية عند أغلبها.

كان انحياز بني أمية بن عبد شمس ضد رسول الله ﷺ مفهوما، ليس حباً لأم جميل بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية فحسب، وإنما في الأساس كان بغضاً لمجد -إن صح الزعم- قد يصيب آل هاشم من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بعدما انزوىٰ دور آل عبد المطلب، فقد كانوا يعقدون الآمال علىٰ رياسة مكة منذ الصراع الذي نشب بين عبد شمس

وعمه قصي وكان الاحتكام إلىٰ الراهب الخزاعي الذىٰ حكم بأن يخرج أمية من مكة لعشر سنين إلىٰ الشام ويقيم بها، فزاد مال أمية أكثر وأكثر لهجرته لبلاد الشام ولما عاد بأهله كانت أول العداوة بين هاشم وأمية والثأر الذي ينتظرونه.

وكان انحياز أبو لهب ضد ابن أخيه قبل وبعد سورة المسد مستهجنة، وغير مفهومة إلا لو وضعنا تأثير طموحه الشخصي في الثراء والمكانة بتملق أصحاب الرياسة المتوقعة من ابناء أمية بن عبد شمس، وتأثير زوجه الأموية عليه، إلا أن انحياز باقي ابناء عبد المطلب ضد رسول الله كان سببا قويا لتوالي انحياز الآخرين أيضـًا.

كانت مصالح أشراف المجد واللهو والظلم لا تنسجم مع دعوة العقل والضمير فمنهم من ينحاز للوضع القائم ويحارب من أجله علىٰ اعتقاد راسخ بأنه علىٰ صواب (وهم إن حاربوا الإيمان كانوا أشداء عليه وإن آمنوا صاروا أكثر شدة وفداءاً لما آمنوا به) ومنهم من يستخدم الاعتقاد الخاطئ لزيادة ماله أو ترسيخ سيطرته وسيادته علىٰ الرغم من يقينهم بفراغة الاعتقاد وصدق الحاجة للتغيير (وهم الأسوأ علىٰ الإطلاق) علىٰ هذا تآلفت العصابات من أشراف وأكابر وأثرياء قريش وصفوة مجتمعها، وأصحاب النفوذ والمال والسطوة والكلمة والعبيد وأهل الحل والعقد من كبار السن وأصحاب المال من الأسياد فلن يتعلموا الدين من الابناء او العبيد فيما ذهبوا اليه فتآلفت في الأهداف وصار رأسهم: أبو الحكم عمرو بن هشام (أبو جهل) وانزوىٰ عبد العزىٰ (أبو لهب) بن عبد المطلب عن ريادة العصابة بعدما فقد مصداقيته في العداء الشخصي، والحقيقة أن أغلب آل هاشم نأوا عنه ونهوا عنه ما عدا القلة وعلىٰ رأسهم أبو لهب، فقد نأىٰ عنه نأي العدو، وحرض عليه تحريض الموتور، وتصاغر كبراء القوم، إلا أن أغلب العصابة تشكلت من آل عبد شمس وآل مخزوم. فمن (آل عبد شمس) أتىٰ في المقدمة حرب بن أمية، أبو سفيان بن حرب بن أمية، وأمية بن خلف، وأبي بن خلف، وربيعة بن حرب، وعتبة بن ربيعة بن حرب وشيبة بن ربيعة بن حرب، وزهير بن أبي أمية، والحكم بن أبي العاص، والعاص بن وائل، والعاص بن سعيد بن العاص، وباقي نسل عبد شمس وأسباب العداء معروفة.

وتمثل (بنو مخزوم) في الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل والوحيد الذي كان يزعم أنه أحق الناس بالنبوة والقرآن ويقول (أينزل علىٰ محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها) وهو بن المغيرة المخزومي حكيم عصره الذي منع عبد المطلب من قتل إبه عبد الله إذ قال له:

إن كان فداؤه بأموالنا فديناه، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتي بابنه حتىٰ يذبحه، وعمارة بن الوليد وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة وأبو حنيفة بن المغيرة وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وباقي بطون مخزوم ويظهر أن بني مخزوم هؤلاء كانوا في ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوىٰ البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر البطون إلا أنهم إن نافسوا بني هاشم وبني أمية وبني عبد الدار الذين يلتقون في جد واحد، فيعظم علىٰ نفوسهم أن يغلبهم منافس كمحمد علىٰ الشرف والعزة فيأخذوا الأمر مأخذ الأنفة.

وتزعم أبو الأصدىٰ الهُذلي (هُذيل) في عصابة أئمة الكفر كما تزعم الحارث بن قيس السهمي (بنو عدي) والعاص بن وائل السهمي والأسود بن عبد الأسد (بنو أسد) أما الحارث بن عبد المطلب والنضر بن الحارث (عبد الدار) فقد شاركا أبا لهب وآخرين أيضا من بطون مختلفة ساهموا في تلك العصابة أمثال الأسود بن يغوث الزهري ومنبه بن حجاج والسائب بن صيفي بن عابد والعاص بن هاشم وعدي بن الحمراء ببطونهم وبسائر ابنائهم ونسائهم وعبيدهم، وكذلك مالك بن طلالة بن عمرو بن غبشان وركانة بن عبد يزيد. وبهذا كانت البطون الحاكمة لمكة ممثلة في أئمة الكفر تمثيلا يجعل محمد ﷺ لا أثر له فيما يعتقدون.

١٠- وفد قريش (الأول) إلى أبي طالب

مشىٰ رجال من أشراف قريش (عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري بن هشام ووالأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل السهمي ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وأبو سفيان بن حرب) إلىٰ أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد عاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فأما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي لنا بيننا وبينه، فردهم أبو طالب بقول خفيف فانصرفوا [٩١]

١١-علانية الدعوة وبداية السجال بين الحق والباطل:

عند إعلان الدعوة في بداية العام الثالث لنزول الوحي كان لدىٰ أصحاب السلطة والمصالح سلاح الدعاية والأكاذيب وهو من أمضىٰ أسلحتهم، للتأثير بهما وتضليل أولي

(٩١)ابن هشام – ١/ ٢٦٥

البأس (أمثال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة وغيرهم) ممن يعتزون بالوضع القائم ويحاربون من أجله، وهم علىٰ اعتقاد راسخ بأنه صواب وأيضا التضليل علىٰ العامة من السذج والبسطاء، وهواة الاستسهال من السطحيين الذين يتواجدون في كل الأزمان وكل العصور ويشكلون غالبية المجتمعات.

لما بدأ أئمة الكفر من أشراف المال وأمجاد اللهو ويشعرون بما في الدعوة من أخطار، رأوا بادئ الرأي أن يحاربوها بالحط من شأن محمد بتكذيب ما يزعم من نبوته وذلك بأن أغروا فطاحل شعراءهم فكان أبو سفيان بن الحارث وعمرو بن العاص وعبد الله بن الزعبري يهجون رسول الله وتولت طائفة من شعراء المسلمين الرد علىٰ هؤلاء.

لم يكن رسول الله في حاجة إلىٰ مساجلاتهم، فقد كانت آيات التنزيل داحضة للرد عليهم لما كان الرد عليهم قرآنيا ومن الله فيه إعجاز لغوي لا سبيل للشعر به، وباستمرار أئمة الكفر في الإعراض عن دعوة رسول الله وإبعاد الناس عنه بسلطانهم فقد حزن رسول الله وكبُر عليه إعراضهم وصار في حيرة من أمره فما عساه يفعل حتىٰ يأتي بهم إلىٰ حظيرة الإيمان، وعظم الأمر علىٰ رسول الله وضاقت عليه الدنيا وعجز عن إيجاد السبيل فلما أمر الله سبحانه محمدا أن يبلغ عن ربه، لم يبين له الطرق التي عليه اتباعها في التبليغ أو في حماية الدعوة فهي موكوله لحسن الاختيار الإلهي له، فترك له أن يتصرف بفطنته كأفضل ما يقوم به بشر ويطمئنه الله بأن الإرادة الإلهية سوف تتولىٰ عنه مهمة إيمانهم إذ يقول عز وجل (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) [٩٢] ويقول «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه علىٰ كل شيء شهيد» [٩٣]

تمنىٰ رسول الله أن يؤمن بما أنزل إليه عشيرته الأقربون من آل هاشم وعبد المطلب وعلىٰ رأسهم أبا طالب، ولكنهم أعرضوا عنه فقد قال له أبو طالب (أي ابن أخي إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه) وكذلك قال له أبو لهب (يا محمد إنني لا أقول

(٩٢)سورة القلم الآية ٤٤

(٩٣)سورة القلم الآية ٤٤

انك كاذب، ولكن الأمر الذي تقوم بتبليغه باطل) فيقول الله: (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك لكن الظالمين بآيات الله يجحدون) [٩٤]

كبر علىٰ رسول الله إعراض قريش وتمنىٰ صلىٰ الله عليه وسلم، أن يتمكن من فعل أي شيء لكي يصل إلىٰ ما أراده الله منه، فلامه الله عز وجل بأن أنزل عليه (وإن كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم علىٰ الهدىٰ، فلا تكونن من الجاهلين) [٩٥] وللحقيقة فأن عشيرته الأقربين- من آل هاشم في غالبيتهم- وإن كانوا لم يؤمنوا فقد التزموا بالذود عنه مروءة ويقول الله (وهم ينهون عنه وينئون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) [٩٦] تحدثنا عن غلبة إمكانات السيطرة الحتمية في مقاييس المادة علىٰ ملكات الفضيلة، ورغم ذلك وجد غير الشعراء فرصة للجدل فرأوا في المعجزات الحسية لمن سبق من الأنبياء مخرجاً فبدأوا يجادلون بأنهم لن يؤمنوا حتىٰ يأتيهم محمد ﷺ بمثل ما أوتي رسل الله، وكانت شروطهم للإيمان أن ينزل الله عليه آيه، فكان الرد الإلهي عليهم منزلا كما جاء في سورة الأنعام (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه، قل إن الله قادر علىٰ أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون)[٩٧]

فحينما يتحالف الشعور بغرور المادة والسلطة مع الجهل عند جمهور متعطش تصبح النتيجة شبه معروفة، وتسير الأمور مسارا غير محمود، وكأن نبي الله يأتي إليهم ليقدم لهم استعراضا للمعجزات والآيات التي هي بإذن الله حتىٰ يرضوا عنه، وبدأت الحماقة تعبر عن مكنونها جلية، فانتهز أئمة الكفر الفرصة فجعلوا يشككون في رسول الله تماما كما فعل اليهود مع المسيح عليه السلام، فإن كان الأنبياء من نوح حتىٰ عيسىٰ عليهم السلام، قد أمدهم الله بمختلف الآيات واستخدموها جميعا في إثبات نبوتهم، فالمعجزات التي أتوا بها أمام الناس قد دفعت بعض الناس (وليس جميعهم) دفعا إلىٰ الإيمان بالرسالة ثم بعد ذلك تأتي مرحلة التشكيك بعد قرون وتأتي مقولة أساطير الأولين، ولقد كانت البشرية في أزمان

(٩٤)سورة الأنعام الآية ٣٣
(٩٥)سورة الأنعام الآية ٣٥
(٩٦)سورة الأنعام الآية ٢٦
(٩٧)الأنعام الآية ٣٧

هؤلاء الأنبياء من نوح حتىٰ المسيح لا تزال تعيش فيما يعرف بالطفولة الحضارية أو البشرية أو الإيمانية والطفولة الحضارية والبشرية في علم النفس الاجتماعي لها سمات تقترب كثيرا من الطفولة التي نعرفها في علم النفس الفردي، وهي تتميز بالتحيز والأستمساك بالمحسوس والمرئىٰ كسبيل إلىٰ فهمه، أما النضوج الحضاري أو البشرىٰ أوالإيمانىٰ والذي يبتغيه الله من الدين الخاتم والنبي الخاتم فيتميز بالتحيز والأستمساك بموجبات العقل والتفكر والضمير، وهي حالة من رقىٰ الضمير الإنساني التي وجب علىٰ خاتم الأنبياء والرسالات محمد ﷺ الخوض فيها والجهاد من أجل الوصول إليها، ومن يستمسك بالمعجزات الحسية هو جاهل ولايزال في مرحلة قد انتهت من تاريخ البشرية، وقد قلنا أن أئمة الكفر ملكت الإمكانيات المادية، أما عصبة الإيمان فقد منحها الله ملكات الفضيلة وهي ملكات خاصة بأولو الألباب، والتي جعلتهم الأعلون فيما بعد ولم يزل صوت رسول الله يرتج دويه في أرجاء مكة ومحمد المكلوم بوفاة ابنه عبد الله وبطلاق ابنتيه رقية وأم كلثوم صابرا علىٰ شماتة عمه وصابرا علىٰ تكذيب سادة قريش ومستمرا في دعواه، وإذ ذاك أدرك ﷺ أنه مبتلىٰ من الله وليس عليه إلا الصبر ومرت الشهور والدعوة تسير في مسارها تكسب القلوب بعد العقول، ولما رأىٰ المشركون نجاح الدعوة هالهم أمرها ورأوا محمدا صلىٰ الله عليه وسلم. ولا يصرفه عن دعوته لا هذا ولا ذاك فاختاروا الاستمرار في التحقير والاستهزاء والسخرية والتضحيك منه صلىٰ الله عليه وسلم، فرموه بتهم هازله وشتائم سفيهة فضنوا عليه حتىٰ اسمه وأطلقوا عليه مُذمَمًا حتىٰ نزل قول الله تعالىٰ (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين، إنا كفيناك المستهزئين) (٩٨) ويتولىٰ رب السماوات والأرض الرد عنه بآيات تزيد المؤمنين به استمساكًا وكان أغلب ما جاء في سورة الحجر وغيرها من السور في تلك الفترة فيها تحذير ونذير من تلك الأفعال ومن رفض للإسلام، وإن كان من الناس من يحب المنفعة عن الفضيلة فمنهم من يشعرون في داخلهم بعار الخصال، فهم وإن كان قد أعجبهم من ينجحون بالمنافع ويتمنون أن ينجحوا مثلهم، يكرهون أن يدينوا أنفسهم بالنقيصة أو العار إن قيست الأعمال بموازين القيم والمثل العليا فيلومون أنفسهم ولا يقدرون علىٰ التماس المعذرة لضمائرهم في نقائصها، ويتمنىٰ المرء منهم لو خرج من نواقصه.

(٩٨) سورة الحجر الآية ٩٤

كان البشير والنذير يقض عليهم منام الضمير فيترك أثراً فيهم بمرور الوقت، ولما أعرض رسول الله عنهم، واستمر في دعواه كان يعلم أنهم يسترقون السمع إلىٰ ما ينزل عليه، وفيها ما يكشف بواطن أهل الشرك فالمرء منهم كان يتمنىٰ لو خرج من نواقصه وكان أهل الشرك فيما يسترقون السمع إليه فيجدونه يحض علىٰ الفضيلة فيسمعون قول الله تعالىٰ (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) (٩٩)فيكشف الله ما في نفوسهم، ويقبعون في حيرة من أمر محمد صلىٰ الله عليه وسلم، ويتساءل المرء بينه وبين نفسه كيف عرف محمد إن لم يكن رسولا بما في أنفسنا؟ فيشيعونه ويستقبلونه بنظرات ناقمة.

ولكي يمكنوا من نفي النبوة عنه وينفوا عن أنفسهم العجز عن الفهم، كانوا ينعتونه بالمجنون وهو معرض عنهم، فيقول الله تعالىٰ (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون، وما هو إلا ذكر للعالمين) (١٠٠)

ومرة أخرىٰ يستمسكون بطفولتهم البشرية وكأن نبي الله يأتي إليهم ليقدم لهم استعراضا للمعجزات والآيات - وهي بإذن الله - حتىٰ يرضوا عنه (وقالوا يا أيها الذىٰ نزل عليه الذكر إنك لمجنون، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) (١٠١) ويأتيهم الرد في الآيات التالية من السورة (ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين، إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) (١٠٢) ويزداد عدد المسلمين بمرور الأيام ويزداد تأثير محمد فيعجبون من كونه منذرهم وهو واحد منهم فيوصمونه بالسحر والكذب معا فيرد الله عنه (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) (١٠٣) إذ لا يرون في أنفسهم فضلا إذ يأتيهم النذير منهم فهي إذن تعكس شعورهم بالدونية الذي عانىٰ منه بنو إسرائيل في رفضهم نبي الله عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، واستمر رسول الله في دعواه وازداد المؤمنون به يوماً بعد يوم ولما كان أغلب المؤمنين بالدعوة من العبيد الضعفاء، ومن ابناء بطون قريش من الشباب والنساء والصبية وكل ضعيف، أو بائس أو محروم، وكان الزاهدون في الدنيا منهم أشد الناس إقبالاً علىٰ الإسلام، فإذا جلس وحوله المستضعفون

(٩٩)الآية الثانية من سورة الحجر

(١٠٠)سورة القلم ٥١-٥٢

(١٠١)سورة الحجر الآية ٦، ٧

(١٠٢)الحجر ٨-٩

(١٠٣)سورة ص ٤

من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا ساخرين: أهؤلاء جلساؤه؟ (من الله عليهم من بيننا!) فيرد الله عليهم (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، أليس الله بأعلم بالشاكرين) [١٠٤] فيتغامزون إذا مروا بهم قائلين (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلىٰ أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون، وما أرسلوا عليهم حافظين) [١٠٥] ولم تكن سخريتهم ممن حسبوا أقل منهم فحسب، بل تعدىٰ ذلك إلىٰ تكريس واعتراف غير مباشر بشعورهم بالدونية حينما عجبوا أن جاءهم منذر منهم.

١٢- الدعاية والتشويه:

فشل التشكيك، بعدما أصبحت اتهامات الجنون والسحر والكذب اتهامات مدحضة بمرور الوقت وازدياد عديد الذين آمنوا، وعلمت قريش واقع انتشار ذكر محمد في بلاد العرب كلها، رأت قريش أن تبث الدعايات الكاذبة عما يجيئ به محمد ﷺ لما لمسوه فيما يتلوه من تكامل وعلم لا يعلمونه ووجدوه يخاطب الفطرة مباشرة وموسم الحج قادم عليهم لا محالة، فلم يجدوا وسيلة إلا الدعاية والتشويش عليه فادعوا عليه أنه يفتري القرآن بالإفك المفترىٰ، ويعينه عليه قوم آخرون (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون)[١٠٦] ويدَّعون عليه ﷺ أن بشرا يعلمه هذا الإفك (إنما يعلمه بشر) [١٠٧] يتحدثون عن أساطير الأولين فيدعون أن احد ما يملي عليه أساطير الأولين (أساطير الأولين اكتتبها فهي تملىٰ عليه بكرة وأصيلا) [١٠٨] وعلىٰ الرغم من أن المجتمع المكي كان مجتمعا محدودا في جغرافيته ومعرف ساكنيه لم يحددوا من ذا الذي يعلمه، وأين ومتىٰ، وبدت تلك المقولة خائبة ومستهلكة، فتحدثوا عن راهب الشام (بحيرة) النسطوري الذي التقىٰ رسول الله قبل النبوة بثلاثين سنة وهو في الثانية عشر من عمره الذي لم يكن منه إلا أن شعر بنبوة محمد، ثم يتداركون أنفسهم فيذكروا ورقة بن نوفل، الذي لو كان يعلم ما علم محمد

(١٠٤)الأنعام٥٣
(١٠٥)المطففين٢٩-٣٣
(١٠٦)الفرقان ٤
(١٠٧)النحل -١٠٣
(١٠٨) الفرقان - ٥

لأذاعه علىٰ الملأ ونسبه إلىٰ نفسه، وإن لم يفعل وأراد الإملاء فحسب فلم لم يؤازره في الدعوة والجل قد مات منذ سنوات، ثم يتعاظم التهافت حتىٰ يجدوا ضالتهم في حداد رومي[١٠٩] ينسبون إليه القرآن، فكيف يستساغ عقلا أن تصدر العلوم القرآنية من غلام لم تعرفه مكة كعالم متفرغ لدراسة تاريخ الأديان عامي الفؤاد، أعجمي اللسان فيقول الله جل شأنه (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)[١١٠]

يلقون اتهامها علىٰ رسول الله كلما عجزوا فيقول الله لرسوله (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا علىٰ قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتىٰ إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين)[١١١]

وهكذا بدت تلك المقولة أيضا كسابقتها مقولة خائبة ومستهلكة، لنفس الأسباب السالفة، واستبعاد كون رسول يأكل الطعام ويمشي بالأسواق؟ (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشىٰ في الأسواق)[١١٢] (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)[١١٣] (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين)[١١٤]

وخابت تلك المقولة إذ لم يسمع عن رسول لا يأكل الطعام أو لا يمشي في الأسواق (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك نصيرا)[١١٥]

قال تعالىٰ

(إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(١٠٩)غلام نصراني قيل اسمه سبيعة وقيل اسمه يعيش وقيل بلعام
(١١٠)النحل ١٠٣
(١١١)الأنعام في الآية ٢٥-٢٦
(١١٢)الفرقان -٧
(١١٣)النحل ٤٣
(١١٤)الأنبياء ٧&٨
(١١٥)سورة الفرقان - الآية ٢٠

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) سورة النحل

(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ) سورة الأنبياء

اذ كان يقول للقائلين لمحمد ﷺ في تناجيهم بينهم: هل هذا إلا بشر مثلكم، فإن أنكرتم وجهلتم أمر الرسل الذين كانوا من قبل محمد، فلم تعلموا أيها القوم أمرهم إنسا كانوا أم ملائكة، فاسألوا أهل الكتب من التوراة والإنجيل ما كانوا يخبروكم عنهم. فاستمسكوا بأن هذا الإفك قد افتراه محمد، وهذا الزعم الباطل مردود عليه بأنه عليه الصلاة والسلام

- إذا كان ذلك صحيحاً فقد كان الأفضل لدواعي الزعامة أن ينسب القرآن لنفسه، فيكون ذلك كافياً لرفعة شأنه، والتسليم بزعامته، مادامت العرب، جميعا علىٰ فصاحتهم قد عجزوا عن معارضته (المعارضة في الأدب هو السير علىٰ علم عروضه للمضاهاة) بل ربما كان أدعىٰ هذا للتسليم المطلق بزعامته لأنه واحد منهم أتىٰ بما لم يستطيعوه (١١٦)

- ثم أن القرآن قد ذكر أن المسيح عليه السلام قد بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، ولوكان من عند محمد فلماذا لم يذكرها لهم (محمد بدلا من أحمد) إن كان يفتري القرآن

(١١٦)من كتاب (مباحث في علوم القرآن) لمناع القطان

- ولماذا يذكر معاتبات الله له العديدة ومن ضمنها علىٰ سبيل المثال عتاب الله له حينما تولىٰ عن عبد الله بن مكتوم (عبس وتولىٰ، أن جاءه الأعمىٰ) [١١٧]كما سنرىٰ في حينه. وربما كانوا علىٰ حق فيما ما ذكروه من أن رسول الله قد أتىٰ بما أتاه وافتراه وقد تعلمه علىٰ يد معلم، فهي مقولة صحيحة فقد تلقىٰ عن ملك الوحي جبريل بأمر الله وقوله (وما كان هذا القرآن أن يفترىٰ من دون الله) [١١٨]أما من هم دون الله فهم البشر أمام هذا الفشل الدعائي أحست قريش بخطورة الموقف، وهكذا كان عليها أن تعمل بجهد وبجد أكبر وفي جميع الاتجاهات فسارعت في التحرك، فيما تطوع أبو لهب الذي تولىٰ تتبع بن أخيه محمد صلىٰ الله عليه وسلم، إذ كان رسول الله يتبع الناس إذا وافىٰ الموسم في منازلهم، وفي عكاظ، ومجنة وذي المجاز، يدعوهم إلىٰ الله، وأبو لهب من وراءه يقول (لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب) [١١٩]

كان النضر بن الحارث من بني عبد الدار أحد الذين ناوأوا الدعوة، وكان أحد أغنياء مكة ووجهائها، حاول أن ينحت لنفسه دوراً حاسماً في الأحداث وكان ذا ثقافة واطلاع فذهب إلىٰ الحيرة كي يستزيد من أحاديث الفرس وأحاديث رستم واسفنديار، ولما عاد كان إذا جلس رسول الله ﷺ للتذكير بالله والتحذير من نقمته، خلفه النضر بن الحارث يحدثهم عن ملوك الفرس ورستم واسفنديار، ثم يختم قوله قائلا (بماذا محمد أحسن حديثا مني؟) [١٢٠] وقال: هذا القول الذي جاء به محمد هو إفك افتراه وأعانه عليه آخرون. آخرون.

كان يقصد عداساً النصراني مولىٰ حويطب بن عبد العزىٰ ويساراً اليهودي غلام بن الحضرمي وجبراً اليهودي مولىٰ عامر، وكان ثلاثتهم قد أسلموا بعدما سمعوا رسول الله في بيت الأرقم، وبماله الوفير اشترىٰ قينات [١٢١]، فكان النضر بن الحارث لا يسمع عن أحد الوجهاء وقد مال إلىٰ حديث محمد ﷺ إلا سلط عليه إحداهن تطعمه وتسقيه خمرا وتغني

---

(١١٧)سورة عبس:١-٢

(١١٨)سورة يونس:٣٧

(١١٩)الترمذي عن يزيد بن رومان وذكره الإمام أحمد في مسنده٣/ ٤٩٢-٤/ ٣٤١

(١٢٠)ابن هشام ١/ ٢٩٩- ٣٠٠-٣٥٨، وتفهيم القرآن ٤/ ٨، ٩، ومختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب التميمي لنجدي ص ١١٧، ١١٨

(١٢١)عاهرات

له وفيه نزل قول الله تعالىٰ (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) [١٢٢] ولم يفلح هذا الرخص والتهافت كثيراً.

لم تمض علىٰ الدعوة أشهر معدودة حتىٰ قرب موسم الحج فاجتمع الوليد بن المغيرة برسول الله ﷺ وطلب الوليد من رسول الله أن يقرأه القرآن وقد كان رسول الله يتمنىٰ للوليد - ولباقي أساطين مكة -أن يؤمن فهو كبير قومه في كل شيء وكانت شجاعته وحكمته مشهودة له في قريش فقرأه رسول الله عليه فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل وأحس بالخطر فسأله عما سمع من محمد فقال الوليد (إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلىٰ عليه)

وارتعب أبو جهل كما ارتعب كبراء قريش فاجتمعوا إلىٰ الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل والوحيد الذي كان يزعم أنه أحق الناس بالنبوة والقرآن يحثونه علىٰ رفض القرآن قبل موسم الحج، فأراد أن يجمع رأي المجتمعين.

فقال: أجمِعوا فيه رأيـًا واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضـًا، ويرد قولكم بعضه بعضـًا.

قالوا: فقل

قال: بل أنتم فقولوا فأسمع.

قالوا: نقول كاهن

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكهان ولا سجعه.

قالوا: نقول مجنون

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، وهو بخنقه ولا تخالجه وسوسته

قالوا: نقول شاعر

فقال: ما هو بشاعر، ولقد عرفنا الشعر كله رجزة وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطة، فما هو بشعر

(١٢٢)لقمان -٦

قالوا: فنقول ساحر فقال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم

قالوا: فما نقول؟

قال والله إن لفي قوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم قائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل.

فقالوا: أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه

فقال: أمهلوني حتىٰ أفكر في ذلك

وقضىٰ وقتا طويلا يفكر ويقدر، وأتىٰ برأيه فقال (إن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر جاء بسحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.) فرضوا بما قدر وتفرقوا عنه بذلك، إذ أن أولئك الذين آمنوا بالله قد انفصلوا انفصالا تاما عن الأهل والعشيرة، فأنزل الله تعالىٰ في الوليد بن المغيرة: (إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر) [١٢٣] أتىٰ القرآن بعد ذلك بتحد جديد فيقول علىٰ الوليد بن المغيرة في سورة القلم: (سنسمه علىٰ الخرطوم) [١٢٤] أي أنه سيقتل بضربة علىٰ أنفه، وبعد ذلك يأتي بغروره لبدر، وفي القتال تراه قد وسم علىٰ خرطومه، أي ضرب علىٰ أنفه فيموت، من ذا الذي يستطيع أن يجزم بموضع الضربة إلا الله سبحانه وتعالىٰ!

وأخذ كفار قريش ينشطون في تنفيذ قرارات المجلس، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا بموسم الحج، لا يمر أحد إلا حذروه من محمد، وذكروا لهم ما اتفقوا عليه وتبع رسول الله عمه أبو لهب من وراءه يقول (لا تطيعوه إنه صابئ كذاب) [١٢٥] ولا يقتصر علىٰ التكذيب بل كان يضربه ﷺ بالحجارة حتىٰ يدمي عقباه [١٢٦] وكان أول من اعتُدي عليه من المسلمين هو رسول الله وأول من تجرأ علىٰ الاعتداء الجسدي علىٰ المسلمين كان عمه، فانتشر ذكر الرسول في بلاد العرب.

(١٢٣)سورة المدثر – الآيات من ١١-١٦

(١٢٤)سورة القلم – الآية ١٦ وبالفعل فقد قتل الوليد بن المغيرة بضربة سيف علىٰ أنفه

(١٢٥)الترمذي عن يزيد بن رومان وذكره الإمام أحمد في سنده

(١٢٦)جامع الترمذي

١٣-الطفولة الحضارية ومطية المعجزات:

تحدثنا كثيراً من قبل عن تمكن الطفولة الحضارية ممن آمن بأنبياء الله من نوح حتىٰ عيسىٰ عليهم السلام من أهل الكتاب.

الحقائق التاريخية تثبت أن الله سبحانه وتعالىٰ قد أمد أنبياءه بخوارق للطبيعة وللمألوف حتىٰ من دون أن يطلبها العباد في الأزمان التي سبقت نبي الله ورسوله عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، فسفينة نوح مثلاً، والإخبار الإلهي بحدوث الطوفان لنبيه وبضرورة بنائها، وتمكينه من البناء قبل الطوفان كانت معجزة الله لنوح عليه السلام وللبشرية في طفولتها الإيمانية والحضارية وكان المطلوب من البشر أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ونبذ الأصنام.

وكذلك كانت مهمة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فأمده الله تعالىٰ بالمعجزات كي يحقق الغرض من الرسالة، وعصا موسىٰ وما أتت به أيضا لم تكن من ضمن ما طالب بها بنو إسرائيل وإنما أمد الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام بها لكىٰ يرىٰ الفرعون والناس تلك الخوارق فينبذوا عبادة الفرد، ويسهل عليهم الإيمان في زمن الطفولة الإيمانية والحضارية أيضـًا، وكان للمؤمنين الأولين برسالات نوح وإبراهيم وموسىٰ هذه المزية، لدفع الناس دفعا للإيمان بالله وبالغيب وللتضحية بالمكاسب الآنية والدنيوية من أجل حياة أكثر سموا في الدنيا وفي السماء، وجاء تدريب البشرية في طفولتها علىٰ الإيمان بغيب يجهلونه حينما دعوا إلىٰ الإيمان برب لا يرونه، والقيام بالتزامات الإيمان من أجل وعد بجنة لم يختبرها أحد فيعود للناس ليؤكد وجودها، ولما طالبه بنو إسرائيل بها من ربه الذين كانوا قد انحرفوا عن عبادة الله تقليدا للمصريين.

لم يضن الله عليهم بالعديد من الخوارق والمعجزات، فآمن البعض وبقي أكثرهم لا يؤمنون أما عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، فقد بعثه الله في بني إسرائيل الذين يعبدون الله دون سواه وتمكن منهم الرياء وتزوير التوراة فمدخله إليهم كان بالمعجزات إذ قالوا له (أرنا آية)[١٢٧] فقال لهم المسيح بوحي من الله (أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ

(١٢٧)جامع الترمذي

بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (١٢٨)

وأصبح دأبهم أن أرادوا آية كلما تحدث إليهم وإلا انصرفوا عنه (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتىٰ نؤتي ما أوتىٰ رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) (١٢٩) وإن آتاه الله بالبينات رموه بالسحر وعبثا لم يفهموا أحكام الله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ) (١٣٠)

ولم يعلموا أيضا حقيقة اشتراط إذن الله (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ) (١٣١) وحتىٰ تلاميذ المسيح عليه السلام قالوا له (يا عيسىٰ ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) (١٣٢) فقال لهم (اتقوا الله، إن كنتم مؤمنين) (١٣٣) فقالوا (نريد أن نأكل منها، وتطمئن قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا، ونكون عليها من الشاهدين) (١٣٤)

وأخلاق تلاميذ المسيح لم تبتعد كثيرا عن أخلاق الإسرائيليين الآخرين وإن كانوا مؤمنين، فهم أسرىٰ إرث حضاري قد ورثوه عن آبائهم وأجدادهم والمرتبط بإرثهم الجيني فطلب المعجزة كما ذكرنا سلفا لا يصح من العباد، فما بالكم إن جاءت من الحواريين، وكأن رسل الله إنما تقوم بعرض للمعجزات علىٰ خشبة المسرح، ففي طلب المعجزات خروج عن آداب الإيمان وفطن الفريسيون إلىٰ ذلك فأرادوا أن يطفئوا جذوة الإيمان بالتشكيك، فقالوا: نريد أن نرىٰ آية منك وما دار بخلدهم أن ما كان لنبي ولا رسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، فرنا عيسىٰ إلىٰ الجموع الغارقة في الجهالة، رنوة غضب وقال (جيل شرير

(١٢٨)آل عمران ٤٩
(١٢٩)الأنعام ١٢٤
(١٣٠)غافر٧٨
(١٣١)الرعد ٣٨
(١٣٢)المائدة ١١٢
(١٣٣)المائدة ١١٢
(١٣٤)المائدة ١١٣

وفاسق يطلب آية ولا تعطىٰ له) [١٣٥] وقال لهم (طوبىٰ لمن يؤمن ولم يشاهد)وهكذا استطاع الفريسيون أن يفضوا الناس من حوله، وبقي عيسىٰ وحيدا ومن حوله تلاميذه، وهو أمر تعرض له نبي الله ورسوله عيسىٰ بن مريم، تماما كما تعرض له نبي الله ورسوله محمد عليهما السلام إلا أن الفارق الكبير في أن المعجزات لم تطلب من المؤمنين بمحمد عليه الصلاة والسلام، وإنما من كفار مكة.

و المعجزة كما نعرفها في اللغة العربية، هي حدث خارق للعادة، وهذا الحدث مخالف لناموس الكون لا يقدر غير خالق الكون علىٰ الإتيان به.

المعجزة يعجز عنها الإنسان – ولو كان رسولا – دون إذن الله

(وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) ، وللمعجزة أجل (لكل أجل كتاب)، ومرهونة بأمر الله (فإذا جاء أمر الله قضىٰ بالحق) ، ولها غاية (وليريهم من آياته) ، فتكون النتيجة التأكيد علىٰ من آمن ودحض المبطل (وخسر هنالك المبطلون)، ولا يحق للبشر أياً كانوا التساؤل أو البحث عن الكيفية أو التوقيت.، والمعجزات الإلهية نراها في كل حياتنا، فبدءاً من خلق الإنسان (وفي أنفسهم)

ولا يسع المجال وحتماً لن يسع لاستعراض آيات (معجزات) الله ولكننا إن أردنا أن نصنف حسب مفهومنا البشري شكل ما نعلم من معجزات (والله أعلم) فهي:

أولاً: معجزات الخلق بوجه عام، والروح، والساعة وتقع في نطاق كلمة الله بكن فيكون أما الجنة والنار والغيب، وهي من أمر الله ولا يعلم عنها غيره سبحانه إلا بما يبلغنا به والقرآن يحوىٰ قصة الخلق وما هو مسموح للبشر العلم به.

ثانياً: معجزات ذات الخصوصية للأنبياء والرسل والتي اسميناها المعجزات الفارقة في الجزء الأول (كجعل إبراهيم خليلا لله – وموسىٰ كليماً له سبحانه – ومولد المسيح ورفعه إليه سبحانه– والإسراء والمعراج بمحمد) وهذه المعجزات لم يرها أحد غير النبي أو الرسول المعني، وكان غرضها موجها للأنبياء دوناً عن البشر وهي في العادة سبب للفتنة

ثالثاً: معجزات الحفظ والعصمة من الأذىٰ والانتقام ونصرة الله وفيها التدخل الإلهي لما يكفل إنفاذ أمر الله سواء كان حفظ الله للقرآن (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له

(١٣٥)الأناجيل الأربعة

لحافظون) أو حفظ حياة الأنبياء حتىٰ يوفوا مهمتم لأداء الرسالات المنوطين بإبلاغها، أو لحياة البشر لحكمة لا يعلمها إلا الله، أو النصر في معارك الإيمان ضد الكفر (وكان حق علينا نصر المؤمنين) بشرط أن يعمل المؤمن علىٰ نصر الله (ولينصرن الله من ينصره) وهي في النهاية ترتبط ببلوغ أمر الله حسب ما قدر سبحانه وتعالىٰ (إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا) ولا ترتبط أبداً بأي حال من الأحوال باتخاذ البشر - أيا من كانوا - احتياطاتهم للحفاظ علىٰ الحياة (فالله خير حافظا) ولتحقيق النصر (وما النصر إلا من عند الله)

رابعا: معجزات الاستبصار والإخبار ويمنحها الله عز وجل في شكل تنبؤ للمختارين من البشر كل البشر فتكون لازمة لجميع الأنبياء والرسل بدرجات متفاوتة وهم يخبرون بالنبوءات دون جهد، وهي تمنح أيضاً للبشر إن أراد الله لفراستهم الإصابة كمنحة إلهية، ومن البشر من يبذل الجهد الجهيد للتوقع ولا يصلون إلا لما يريد الله لهم أن يستبصروه

خامساً: معجزات البركة والرزق وهي لازمة أيضاً لجميع الأنبياء والرسل فتكون علامة عليهم كما يمنحها الله أيضاً للبشر بدرجات متفاوتة إن أراد بشرط التقوىٰ والتوكل علىٰ الله. (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً)

سادساً: معجزات الحقائق العلمية ولا يعيها إلا الراسخون في العلم (إنما يخشىٰ الله من عباده العلماء) بعدما تصل الإنسانية إلىٰ الحقائق وليس للنظريات التي قد تراجع ويتم دحضها مهما بلغ الزمن وإلىٰ يوم الدين.

سابعا: المعجزات الحسية كعصا موسىٰ ومعجزات عيسىٰ عليهما السلام التي تدفع الناس للإيمان بما يلمسون بحواسهم فيرون أو يطعمون أو يسمعون فيؤدي بهم إلىٰ الإيمان في مرحلة الطفولة الإيمانية.

والمعجزة في العصر الحالي لفظ صار الناس يطلقونه بغير حساب فيخرج الطبيب مثلاً من غرفة العمليات بعد أدائها الأداء المفترض ليعلن لأهل المريض أنه أنقذ مريضهم بمعجزة لابتزازهم، وينجح الطالب الخائب في الامتحان بعدما أدىٰ دوره في المذاكرة، فيقول نجحت بمعجزة كي لا يطالبه أهله بمداومة الاجتهاد، وتنتصر جيوشاً بعدما أدت ما

عليها من تخطيط وقتال علىٰ جيوش العدو فيخرج المنتصر ليعلن عن معجزة، فلا تطالبه الشعوب بمداومة الجدية، فكل هؤلاء قد يقومون بما هو مطلوب منهم فإن فشلوا، فليس ذلك إذاً إلا نتيجة لإرادة الله، وعنده سبحانه ما يراه من أسباب.

وطلب المعجزة الحسية من الأنبياء والمرسلين كشرط للإيمان، وإن كان طلب العاجزين عن امتلاك ملكات الفضيلة، فهو طلب في أساسه للتعجيز علىٰ أي رسول لله – أو هكذا ظنوا– فطالب أولئك العاجزين من رسول الله بمعجزات تثبت رسالته كما سنرىٰ ؛ معجزات كمعجزات موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام وربما أكبر، فما باله لا يحيل الصفا والمروة ذهباً ولا ينزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مخطوطاً من السماء ! ولم لا يبدوا لهم جبريل الذي يطول حديث محمد عنه ! ولم لا يحييٰ الموتىٰ ولا يسير الجبال حتىٰ لا تظل مكة محبوسة بينها !، أو يفجر ينبوعاً أعذب من زمزم التي فجرها إسماعيل عليه السلام خاصة ومحمد أعلم بحاجة أهل مكة للماء!.

لم يقف أمر المشركين عند التهكم بالمسائلة في هذه المعجزات، بل كانوا يزدادون تهكماً فيسألونه صلىٰ الله عليه وسلم: لم لا يوحي إليك ربك بأثمان السلع حتىٰ يضاربوا علىٰ المستقبل، وطال بهم اللجاج، فرد الوحي لجاجهم بما أنزل علىٰ رسول الله من قوله تعالىٰ (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم لا يؤمنون) (١٣٦)

١٤ - المعجزة الحسية وانشقاق القمر:

لم تتوقف أسئلة التعجيز وطلبات الخوارق والمعجزات فتطوع ثمانية من المشركين وهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث يطلبون من رسول الله ﷺ معجزة حسية بأن يشق لهم القمر إن كان صادقاً، فقال لهم: (وإن فعلت تؤمنوا؟)

قالوا: نعم فسأل رسول الله رب العزة أن ينفلق القمر وابتهل طويلا وتوسل لشدة رغبته في إيمانهم وكانت ليلة بدر وعجبوا أن شقه الله لهم فرأوا نصفه فوق جبل قبيس

(١٣٦) سورة الأعراف آية ١٨٨

ونصفه الآخر فوق جبل قعيقعان فنادىٰ رسول الله ﷺ (اشهدوا) ويبين الله تعالىٰ لهم ولنا عن معجزة انشقاق القمر في قوله تعالىٰ من سور القمر آية» اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر» [١٣٧]

ورغم ذلك الحدث الجلي، لم يؤمن من رأوه ينشق وصاحوا إن محمداً قد (سحر القمر) وآخرون قالوا (إنما سحرت أعيننا) وقال أغلبهم (بل سحر مستمر) لم تكن مشيئة الله لهم أن يؤمنوا بمعجزة حسية، وعدم تصديقهم هو أكبر دليل علىٰ أن الله تعالىٰ لم يشأ إلا للإيمان العقلي أن يسود، ولو آمن هؤلاء بهذه الطريقة لاشترطت كل مجموعة رؤية معجزة علىٰ هواها ولتمني النبي تكرار المعجزات لبلوغ الهدف ولطالب كل من يتردد في الإيمان أن يرىٰ دليلا حسيا علىٰ مر العصور، ويقول الله تعالىٰ «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتىٰ وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون» [١٣٨] فقد عاد القمر لحالته الأولىٰ ولم يستجب الله لدعاء محمد ﷺ إلا لكي يصرف نظره عن الاستجابة لهم في أمر المعجزات الحسية بدليل ما حدث، ولقد كان أمر انشقاق القمر للمشركين بعد ابتهال رسوله محمد هو نفس ابتهال عيسىٰ لمائدة الحواريين وقد قضىٰ الله بالعذاب للحاضرين لمن لا يؤمن بعدها (إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) والمحقق أن كل من رأىٰ القمر منشقاً مات مقتولا في حرب أو من أسر علىٰ كفره، فطالما طلبوا آية وجاءتهم فظلوا علىٰ كفرهم فتصبح الآية وبالا عليهم بما كذبوا.

والمعجزات الحسية التي يسر بها الله دعوة الأنبياء والرسل قبل محمد صلىٰ الله عليه وسلم، كالطوفان أو شق البحر الأحمر والغمام الذي استظل الله بني إسرائيل بها أو قيام الأموات وشفاء الأمراض ومائدة السماء، كلها لم تدم ولا أثر لها، ما عدا بئر زمزم وعليه البقاء، ولكن علماء الفلك منذ مائتي عام وعلماء الفلك والفضاء في القرن الحادي والعشرين وهم الغير عارفين بالحادث، أثبتوا أن القمر به نتوء دائري بمحيطه وهم يرون أن القمر قد انفلق في زمن ما وعاد إلىٰ حالته الأصلية، وسواء كان العلماء قد فعلوا أم لم يفعلوا، فالمعجزات الحسية لا ينبغي لها أن تدوم.

---

(١٣٧)سورة القمر

(١٣٨)الآية رقم ١١١ من سورة الأنعام

الفـصـل الخامس

(الدعوة من المساومات إلى هجرتا الحبشة
وإسلام حمزة وعمر)

من بدايات العام الثالث للنبوة
حتى العام السابع منه



هجرة المسلمين الى الحبشة 615 م
الشعيبة
مكة
قريش
جزيرة عيري
بحر القلزم
مملكة أكسوم
أدوليس
أكسوم
ArabiaWeather.com

الفصل الخامس

الدعوة من المساومات إلى هجرتا الحبشة وإسلام حمزة وعمر

رأىٰ المشركون ما هم عليه من وضع بالغ الحرج إذ انتهىٰ موسم الحج، وعلىٰ الرغم من عدم انتشار الإسلام بين القبائل كما كان يأمل رسول الله، فذلك بعد جهد جهيد قاموا به للحيلولة دون الانتشار، فتحسبوا للمواسم التالية، وفكروا في لقاء يقطع الطريق علىٰ الدين الجديد كي يصلوا مع محمد لاتفاق يتوسط جاهليتهم وهدي الإسلام، يحفظ لهم آلهتهم، فلا تفقد مكة موسم الحج الذي يدر عليهم المال فيفقدون صدارتهم الدنيوية، ويؤمِّن لها، ولهم الريادة والزعامة الدينية لانتشار ٣٦٠ إلاها حول الكعبة، ولما كان محمدﷺ في منعة أبي طالب، وأبو طالب من رجالات مكة المعدودين معظمـًا في أصله ومعظمـًا بين الناس، فما يجسر أحد علىٰ إخفار ذمته واستباحة بيضته، وكان رسول الله ﷺ يُرىٰ من آن لآخر وهو بين أصحابه، أو في المسجد مستقبلا القدس، أو يطوف حول الكعبة في إصرار علىٰ نهج استمرار الدعوة إلىٰ ما لا يرضيهم، تتكسر عنده الدعايات بما يأتيه من السماء، لا تؤثر فيه فتنهم ولا المصاعب التي تواجهه في وفاة ولده وطلاق بناته، صابر علىٰ ما يبتلىٰ به وهم لا يصبرون علىٰ ما يبتليهم به من إصرار وثبات في الدعوة، فودوا لو داهنهم بقبول آلتهم فيداهنونه بقبول ربه فربما تزيد دعوته من الترويج السياحي لمكة.

١- المساومات

اعترض رسول الله ﷺ كل من الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزىٰ المخزومي، والوليد بن المغيرة المخزومي، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي وكانوا أربعة، ثلاثة منهم قد شهدوا انشقاق القمر، وهم ذوي أسنان في قومهم فقالوا (يا محمد هلم فنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإذا كان الذي نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، وإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا حظنا منه) وكانت السذاجة ليست بعيدة عنهم بعداً شديدا لدرجة الشفقة، فترىٰ كيف عنَ لهم هذه المداهنة والمقايضة الساذجة في الدين ولكن بعض هؤلاء القوم كانوا كما ذكرنا سادة مكة، وقد استحقوا السيادة عليها لما كان لهم من مكارم الأخلاق وفي اكتمال المبادئ بقدر ما تسنت

لهم قدراتهم العقلية، والتي كانت لا تنكر علىٰ أي منهم إلا أن الكبرياء والحسد أفسد الشرف عليهم كما قلنا من قبل، فطمست علىٰ قلوبهم قبل عقولهم وعز عليهم ترك المعهود ولم يتصوروا الحياة دون الاستمتاع بمادياتها وعجزوا عن ملكات الفضيلة فأنزل الله تعالىٰ علىٰ نبيه في كتابه الكريم ما أكدته الأحداث بعدها فقال سبحانه (قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين) (١٣٩)

وحسم الله الأمر في مفاوضاتهم الساذجة المضحكة بهذه المفاضلة الجازمة، ولكنهم حاولوا بعرض تجاري آخر، فتفتق ذهنهم كما روىٰ لنا ابن جرير الطبري(١٤٠) تفيد أن المشركين عرضوا علىٰ رسول الله ﷺ عرضا أكثر طرافة، وهو أن يعبد آلهتهم عاماً ويعبدون ربه عاما وقالوا لو قبلت آلهتنا نعبد إلهك فأنزل الله (ودوا لو تدهن فيدهنون)(١٤١) وأنزل (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) (١٤٢)وقد ألفوا عبادة رب البيت أول ما ألفوا وذكرهم الله بما ألفوه منذ نشأة مكة فلماذا يظلون علىٰ ما ألفوه ويدر مالا ويرفضون ما ألفوه من عبادة (لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ *إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ* فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ*ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (١٤٣) بعد فشل كبراء مكة رأىٰ عتبة بن أبي ربيعة في نفسه سيادة وحكمة، وكان رصينا هادئاً وقد آمن برسول الله ابنه أبو خزيمة، فتفتق ذهنه التجاري إلىٰ أن فشل السفارة الأولىٰ والتي لم يشترك فيها هو أن محمداً حينما عرضت عليه المساومتان الأولىٰ والثانية لن يخرج منهما بمكسب أدبي أو مالي، فما كان منه إلا أن تطوع وبعقلية التاجر الصرف، رأىٰ أن يقدم لرسول الله ﷺ رشوة، قد ترضيه، فقال له (يا بن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة (الوسط) في العشيرة والمكان والنسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت بهم جماعتهم، وكفرت به من مضىٰ من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل منا بعضها، إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا

(١٣٩) سورة الكافرون –وفي السورة تأكيد إلهي بحسم أمر هؤلاء بأنهم لا يعبدون الله ومحمد لا يعبد ما يعبدون، وبأنهم لن يعبدوا الله أبداً ولن يسلموا أبدا، وقد ماتوا كلهم علىٰ الكفر

(١٤٠)تفهيم القرآن ٦/ ٥٠١-٥٠٢

(١٤١)سورة القلم ٩

(١٤٢)الزمر ٦٤

(١٤٣)سورة قريش

لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالاً! إن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك!!وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً (ما يرىٰ من مسه الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتىٰ تبرأ!!) حتىٰ إذا فرغ قال له رسول الله: أقد فرغت؟ قال: نعم، فقال له صلىٰ الله عليه وسلم: اسمع مني وتلا عليه الصلاة والسلام (حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون، بشيراً ونذيراً، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون)(١٤٤) ومضىٰ يقرأ حتىٰ وصل للسجدة في السورة فسجد رسول الله، فلما سمعها عتبة ألقىٰ يديه خلف ظهره مشدوها فقال له رسول الله (قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك) ونحن هنا نرىٰ في سفارة عتبة بن أبي ربيعة فقداناً لأهم ما يجب أن يتحلىٰ به المرء من ملكات الفضيلة وإمكانات العقل معاً، ففي أول عرضه الجديد رشوة واضحة، وفي ثاني عرضه الجديد نقص في معاني الشرف الذي يدعي تشريف رسول الله به وفي ثالث عرضه الجديد قصور في فهم ما ملأ مكة من هوان الملك وضياع الهيبة الفكرية بين العرب قبل الرسالة وبعدها وفي رابع عرضه الجديد جهل وجهالة في التفريق ما بين الرؤىٰ والحق، إلا أنه وإن كنت لا أرىٰ فيما عرضه سوىٰ إخلاص في الرغبة بعدم تفاقم الأمور إلا أن ذلك الإخلاص كان ممزوجا بالحسد والسطحية معاً وكم من الحساد والسطحيون في العالم أضاعوا أنفسهم ومن حولهم.

أعرض عنه رسول الله ﷺ بعد أن تلا عليه، وعاد عتبة إلىٰ القوم بوجه مختلف بعدما رأىٰ أمامه رجلاً لا مطمع له في مال ولا تشريف ولا حتىٰ في ملك، وفي كل ما سمعة دل علىٰ الحق والخير وتدفع بالتي هي أحسن، مع الإعجاز في العبارة خاصة فيما دلت عليه كلمة (لقوم يعلمون) فقد كانوا بالفعل يعلمون، وأعرض عنه رسول الله بعد التلاوة، فانصرف عتبة مأخوذا بهذا الرجل وعظمته وسحر بيان فقال لقومه (قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة فأطيعوني وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيرك وإن يظهر عليهم فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، فصرخوا فيه: سحرك والله يا أبا الوليد) (١٤٥)

---

(١٤٤)فصلت من الآية ١-٤

(١٤٥)راجع سيرة بن هشام

٢ – الإساءات:

انتهىٰ موسم الحج وبعد بداية السنة الرابعة من النبوة، وقد مضىٰ علىٰ بداية العام الرابع شهورا وأسابيع وتكررت محاولات سادة مكة إثناء رسول الله عن نشر الدين الذي قض مضاجعهم، وهم لا يزالون يقتصرون علىٰ الاستهزاء والسخرية وأساليب الحرب النفسية والدعائية ولم يصلوا بعد لما يدل علىٰ نجاح مقصد واحد من مقاصدهم، بل زاد ممن يؤمنون بمحمد، ولم يكن أمام قريش إلا سلاح الإيذاء الجسدي الذي بدأه أبو لهب ضد ابن أخيه، وكما كان الاستهتار بالدعوة، ثم السخرية منها، وبعدها الدعايات الكاذبة من أهم ًأسباب انتشار الدعوة في الربع الأول (بعد أشهر من بدايات العام الثالث) من عمر الدعوة بمكة ثم (من بدايتها حتىٰ منتصف العام الرابع) وكان أصحاب رسول الله ﷺ يجتمعون حتىٰ ذلك الوقت في شعاب مكة فيصلون فيها فرآهم رجل من الكفار، ومعه جماعة من كفار قريش فسبوهم فضربه سعد بن أبي وقاس فشجه وسال دمه وكان أول دم أريق في الإسلام[١٤٦] علىٰ يد سعد وكان في السادسة عشر من عمره ولم يكن رسول الله سعيداً بذلك فكان أن اجتمع بهم في بيت الأرقم بن أبي الأرقم حتىٰ لا تتكرر تلك الحادثة، وتصدرت مساءات قريش لرسول الله أسباب انتشارها في ربعها الثاني (من منتصف العام الرابع حتىٰ منتصف العام السادس) إذ كانت التركيبة شديدة الغرابة من جانب وشديدة الدلالة من جانب آخر.

الأولىٰ كانت شديدة الغرابة لأنه في الوقت الذي كان حماية آل عبد المطلب لبيضتهم رسول الله – رغم عدم إيمان أغلبهم – تعتبر من شيم العرب حتىٰ في الجاهلية، شديدة الاحترام والتقدير، فقد تطوع أبو لهب في دفع باقي بطون قريش إلىٰ التحلل منها، وكان استغراب الناس سبباً في استهجان موقفه واحترام موقف المعتدىٰ عليه، وبذلك خسر أبو لهب ما كان يراهن عليه ويداهن له وبه، فقد تمنىٰ أن يحل محل أبا طالب في ريادة آل هاشم وآل عبد المطلب،

والثانية كانت شديدة الدلالة، إذ شعر الناس بإفلاس الطغاة حتىٰ من شيم الكرامة وبدت ملكات الفضيلة أكثر سموا، فأيقظت عند بعض الناس الضمائر وتبارىٰ كبراء قريش

(١٤٦)الطبقات لابن سعد ج ٣ والاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٢ ص ٦٠٩

في تصغير أنفسهم بالإساءة إلىٰ رجل لا يقول إلا (ربي الله) يهجرهم هجراً جميلا، فيرد مساءاتهم إليهم بالهجر فقد كان معظماً في أصله، شهما وقوراً وهناك من عادوه وشخصوا به وهناك من عادوه وأحجموا عن ذلك. والذين تنتهي عداوتهم لرسول الله ولكن لم يشخصوا به بعد فكانوا:

أبو سفيان بن حرب بن أمية، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهم من عادوا رسول الله والدعوة الإسلامية ولكن لم يشخصوا بالنبي.

أما أهل العداوة والذين شخصوا بالنبي من كبراء قريش ومن جيرانه فهم:

أبو لهب بن عبد المطلب، والحكم ابن أبي العاص بن أمية (وهو أبو مروان بن الحكم) وأبو الحكم عمرو بن هشام، وعقبة بن أبي معيط، وعدي بن حمراء الثقفي والأخنس بن شريق الثقفي، وابن الأصداي الهذلي والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد الأسد والحارث بن قيس بن عدي، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأبي بن خلف، وأبو القيس بن الفاكه بن المغيرة، والعاص بن وائل والنضر بن الحارث، والعاص بن سعيد بن العاص، والعاص بن هاشم ومنبه بن الحجاج، وزهير بن أبي أمية والسائب بن الصيفي بن عابد، وعدي بن الحمراء واجتمعت قريش وكونت لجنة من ست وعشرين رجلاً وهم ممن سبق ذكرهم واتخذت تلك اللجنة قراراً حاسماً ضد رسول الله لإيذائه ﷺ وكان علىٰ رأس اللجنة عمه أبا لهب الذي استمر فيما يفعله محاولا الإجادة

أما امرأة أبي لهب فقد كانت عوناً لزوجها في جحوده وعناده فأطلقت لسانها علىٰ رسول الله وكانت امرأة سليطة اللسان تحمل الحطب المليء بالشوك وتضعه في طريق خروج النبي من داره وعلىٰ باب بيته فأنزل الله (وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد) ولما سمعت بما أنزل الله فيها أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فهرمن حجارة (حجارة بمقدار ملئ الكف) فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله فلم تر إلا أبا بكر، فقالت أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر فاه، أما والله إني الشاعرة وقالت: مذمَماً عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا، ثم انصرفت فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال:

(ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها عني) (١٤٧)

أما لماذا أخذ الله بصرها عنه فكان ذلك تكريماً لرسول الله الذي كان معظماً في أصله، شهماً ووقوراً، فلا يؤذىٰ بامرأة عمه ولا حتىٰ يدفع عن نفسه ضررها، شهامة ووقاراً، وأما كيف فذلك ليس إلا قبساً صغيراً للحفظ والعصمة من الأذىٰ، كما ذكرنا سابقاً، وسنرىٰ منها الكثير. قال رسول الله ﷺ (كنت بين شر جارين، بين أبي لهب وعقبة بن معيط إن كانا يأتيان بالفروت فيطرحانها علىٰ بابي) (١٤٨)

أراد عقبة بن أبي معيط أن يثبت لسادات مكة من الكفار أن محمداً لم يسحره وينفي عن نفسه أي شبهة، يثأر من محمد الذي آمنت ابنته أم كلثوم بنت عقبه به، فكان يطرح رحم الشاة في برمة نصبت له وهو يصلي، فيخرج به رسول الله علىٰ العود، فيقف علىٰ بابه ويقول: يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟ (١٤٩)

ولم يكن عقبة بن أبي معيط إلا تابعا ومقلداً فأراد أن يجاري أبا لهب وباقي سادته، وفي يوم كان رسول الله ﷺ يصلي بالبيت، وكان أبو جهل وأصحاب له جلوس علىٰ مقربه فقال بعضهم لبعض (أيكم يجيئ بسلا جذور بني فلان فيضعه علىٰ ظهر محمد إذا سجد) فوجدها عقبة فرصة ذهبية لإثبات جدارته في السفه، فتطوع وأتىٰ بسلا الجذور ووقف ينتظر، حتىٰ إذا سجد رسول الله فوضعه علىٰ ظهره وبين كتفيه صلىٰ الله عليه وسلم، فجعلوا يضحكون ويتمايلون علىٰ بعضهم البعض من الضحك مرحاً، ورسول الله ساجد وبقي طويلا في سجوده لا يرفع رأسه حتىٰ جاءته فاطمة رضي الله عنها وكانت في الحادية عشر من عمرها فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه وقال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، فارتعبوا، فأكمل رسول الله: اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط(١٥٠)

كان أيضاً أبو جهل (أبو الحكم بن هشام) يقول للناس: أيعفر محمد وجهه بين أظهركم، فقيل نعم ! فقال واللات والعزىٰ، لئن رأيته لأطئن علىٰ رقبته ولأعفرن وجهه،

---

(١٤٧)أورده صاحب الكنز عن بن سعد

(١٤٨)صاحب الكنز عن بن سعد

(١٤٩)في ظلال القرآن

(١٥٠)صحيح البخاري كتاب الوضوء ١/ ٣٧ كل من سماهم رسول الله قتلوا في بدر بقطع الرقبة (المؤلف)

وكان يجيئ أحيانا إلىٰ رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه إلىٰ أهله يتمطىٰ فخوراً بنفسه، فلا يؤمن ولا يطيع، فيؤذي رسول الله ﷺ بالقول مختالا، وفيه نزل قول الله (فلا صدق ولا صلىٰ، ولكن كذب وتولىٰ، ثم ذهب إلىٰ أهله يتمطىٰ، أولىٰ لك فأولىٰ، ثم أولىٰ لك فأولىٰ) [١٥١]

وهدد رسول الله بالقتل إن هو ﷺ قام بالصلاة وسجد بجوار الكعبة وفي يوم رآه يصلي في الحرم فيقول له: يا محمد الم انهك عن الصلاة في المسجد، وهنا أغلظ له رسول الله وانتهره فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئًا، وإني لأعز من مشىٰ بين جبليها، أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديـًا، فأنزل الله تعالىٰ (كلا إن الإنسان ليطغىٰ، أن رآه استغنىٰ، إن إلىٰ ربك الرجعىٰ، أرأيت الذي ينهىٰ عبداً إذا صلىٰ، أرأيت إن كان علىٰ الهدىٰ، أو أمر بالتقوىٰ، أرأيت إن كذب وتولىٰ ألم يعلم بأن الله يرىٰ، كلا لئن لم ينته لنسفعـًا بالناصية، ناصيه كاذبه خاطئة، فليدع ناديه، سندع الزبانية، كلا لا تطعه واسجد واقترب) [١٥٢] وبناء علىٰ الأمر الإلهي سجد رسول الله، فأتاه أبو جهل وهو يصلي فحاول أن يطأ رأسه فنكص علىٰ عقبيه يتقي بيديه خائفا من الزبانية، الذين دعاهم الله، وبجهله حسب ما حدث سحراً، كان إن سمع بأحد من أشراف قريش وقد أسلم أنبه وأخزاه، وهدده بالخسارة المالية الفادحة، وإن لم يكن به قوة وضعيفـًا فيهم، ضربه وأغرىٰ به الناس.

كان أبي بن خلف وهو الصديق الصدوق لشبيهه عقبة بن أبي معيط يفت عظامـًا رميـًا للموتىٰ وينفخه في الريح في وجه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ولما عرف أن صديقه عقبة كان يكثر من مجالسة النبي، فصنع عقبة طعامـًا يومـًا ودعا رسول الله إليه ولما قرب الطعام قال رسول الله له (ما أنا بآكل حتىٰ تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله) فشهد فأكل رسول الله وجلس إلىٰ النبي وسمع منه القرآن، فأنبه أبي بن خلف وعاتبه لما علم واشترط عليه إن أراد صحبته فليتفل في وجه رسول الله وقد فعلها عقبة!!! [١٥٣]

أخوه أمية بن خلف كان إذا رأىٰ رسول الله ﷺ همزه (أي شتمه علانية) ولمزه (يعيبه سراً) فتوعده الله عز وجل بقوله سبحانه (ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده،

---

(١٥١)القيامة ٣١ -٣٣-٣٤-٣٥

(١٥٢)القلم من٦-١٩

(١٥٣)بن هشام ١/ ٣٥٦-٣٥٧

يحسب أن ماله أخلده، كلا لينبذن في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، نار الله الموقدة، التي تطلع علىٰ الأفئدة، إنها عليهم مؤصدة، في عمد ممددة) (١٥٤) وقتله بلال في بدر فيما بعد.

والأخنس بن شريق الثقفي كان ذا مال وبنين وممن ينالون من رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فجاء وصف القرآن له في سورة القلم بتسع صفات تصفه وصفاً دقيقاً لكل من عايشوه وخبروه إذ قال تعالىٰ (ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم) (١٥٥)

الحكم بن العاص (عم عثمان بن عفان) فكان يسير وراء رسول الله ﷺ يقلد مشيته، ويلتفت التفاتاته من وراء ظهر رسول الله ليصرف أعين الناس عنه ﷺ جلباً لضحكاتهم برخص، لا يليق بمكانة كان قد اكتسبها من قبل، فيضحك الكفار له ومنه علىٰ أدائه الكوميدي، وهكذا تصاغر الكبراء فلم يبق كبير منهم إلا وقد شارك في تصرفات الصغار، وفقدوا اتزانهم فصاروا في نظر الناس كصبية، وفُقدت هيبتهم، وضاعت مصداقيتهم، ورسول الله يصارع من أجل الحق يعلو في نظر الجميع. بدت للناس الحقائق جلية، والدين الجديد يدخل بيوت الطغاة الكبار المتصاغرين أنفسهم، فرأوا أن يعودوا لما كانوا عليه من التعجيز كأسلوب مستتر للانتقال لمرحلة اكثر حسما مع محمد الذي قض مضاجعهم وأفقدهم مكانتهم،

٣-خطة قريش للخروج من المأزق بمطية المعجزات مرة أخرى:

اجتمع سادات وكبراء قريش المتصاغرون في دار الندوة وأرسلوا لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فجاء رسول الله ﷺ سريعا وفرحاً، وهو يظن أن بدا لهم فيما جهد ليكلمهم فيه القبول، كان رسول الله يعز عليه عنتهم، حريص عليهم ويتمنىٰ رشدهم رغم الإساءات، فهم قومه وأولىٰ بالإيمان، وهم عشيرته وسادات مكة والعرب، وبإيمانهم يسهل إيمان الناس من بعدهم، فطلبوا منه مطالب يعلمون مسبقاً استحالة أن يأت بها رسول الله، وإن بدت للسذج مطالب لاستحقاقات النبوة، وهم يعلمون أنها مجرد مطايا للرفض والتعجيز.

(١٥٤)الهمزة كاملة

(١٥٥)سورة القلم الآيات ١٠ إلىٰ ١٣

كانت خطتهم أن ينبغي عليهم ألا يطلبوا منه عليه الصلاة والسلام إلا مجموعة من المعجزات الحسية، تحمل سمات التحدي ولكن في قالب من المصداقية، والتي تنطلي علىٰ السذج أو سيئو النية، فمحمد إن أراد للناس الإيمان بربه، فما باله لا يحيل الصفا والمروة ذهباً!!!! ولماذا لا ينزل عليه الكتاب الذي يتحدث عنه مكتوباً من السماء! ولم لا يبدو لهم جبريل الذي يطول حديثه عنه ! أو يحييٰ الموتىٰ أو يسير الجبال حتىٰ لا تظل مكة حبيسة! ولم لا يفجر ينبوعاً أعذب من زمزم ماءً وهو يعلم بحاجة مكة إلىٰ الماء، وطال اللجاج وهم يعلمون مسبقاً بخروجها عما ألفته البشرية حتىٰ فيما سمعوا عنه من المعجزات، وكان المكر السيئ هو الحاكم في مطالبهم، في دار الندوة اجتمع عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، والأسود بن عبد المطلب والوليد بن المغيرة وأبو جهل وعبد الله بن أمية بن المغيرة وأمية بن خلف، فاختاروا له بن عمته عبد الله بن أمية بن المغيرة سفيرا لهم يدعونه لدار الندوة، فنفذوا ما اتفقوا عليه من المكر السيئ وقال أبو جهل له: يا محمد إن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك [١٥٦]، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أضيق بلداً ولا أقل ماءاً (وقالوا لن نؤمن لك حتىٰ تفجر لنا من الأرض ينبوعا) [١٥٧] ولا أشد عيشا منا فسل ربك الذي بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا وليبسط لنا بلادنا وليخرق لنا فيها أنهاراً (أوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً) [١٥٨] وليبعث لنا من مضىٰ من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخا صدقا فنسألهم عما تقول، أحق هو أم هو باطل (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتىٰ بل لله الأمر جميعاً) [١٥٩] فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول فأنزل الله «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتىٰ وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون»[١٦٠]

---

(١٥٦)يقصدون المال والملك والمداهنة في العبادة غيرها مما عرض عليه

(١٥٧)الإسراء الآية ٩٠

(١٥٨)الإسراء الآية ٩١

(١٥٩)الرعد الآية ٣١

(١٦٠)الآية رقم (١١١) من سورة الأنعام

فقال صلىٰ الله عليه وسلم،

(ما بهذا بعثت إليكم (أي ما بعث بمعجزات حسية) وإنما جئتكم من الله بما بعثني به وبلغتكم ما أرسلت به (القرآن) فإن قبلتموه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىٰ أصبر لأمر الله حتىٰ يحكم بيني وبينكم)

وأنزل الله لاحقـًا بعد المساجلة (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوُتوا العلم من قبله إذا تتلىٰ عليهم يخرون للأذقان سجداً، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعـًا) (١٦١)

قال أبو سفيان: فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، (وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) وسل ربك أن يبعث معك ملكـًا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) وسله فليجعل لك جنانـًا وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي (أو يلقىٰ إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها) (١٦٢) ، حتىٰ نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله: ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وأنزل الله عليه فيما بعد (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) (١٦٣)

قال الوليد بن المغيرة: فاسقط علينا كسفـًا من السماء كما زعمت أنَ ربك إن شاء فعل فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل، (أو تسقط كما زعمت علينا كسفـًا) (١٦٤) فقال رسول الله: ذلك إلىٰ الله إن شاء يفعله بكم فعل. وقال عبد الله بن أمية: لن نؤمن لك حتىٰ تأتي بالله والملائكة قبيلاً (أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً) (١٦٥) ومرة أخرىٰ نلحظ أنهم يصمّون آذانهم عن قول الله الحق «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتىٰ وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون»

(١٦١)الإسراء١٠٧ -١٠٨- ١٠٩

(١٦٢)سورة الفرقان أرقام ٧-٨-٩

(١٦٣)سورة الأعراف آية ١٨٨

(١٦٤)سورة الإسراء من الآية ٩٢

(١٦٥)سورة الإسراء من الآية ٩٢

إنما يعلمك الرحمن هذا الرجل باليمامة:

ثم قال النضر بن الحارث: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما طلبنا فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟، وقال عتبة بن ربيعة: إنه قد بلغنا إنما يعلمك هذا الرجل باليمامة ويقال له الرحمن وإنا لا نؤمن بالرحمن أبداً فقد اعتذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منَا حتىٰ تهلكنا فأنزل الله عليه في قولهم (كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه مئاب) [١٦٦]

قام رسول الله ﷺ عنهم أسفـًا، فتبعه عبد الله بن أبي أميه بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم، وهو بن عمته عاتكة بنت عبد المطلب فقال لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: يا محمد، عرض عليك القوم ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتىٰ تتخذ إلىٰ السماء سلمـًا ترتقي فيه وأنا أنظر حتىٰ تأتيها ثم تأتي معك بصك مع أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، ثم حدد موقفه بوضوح أكثر إذ قال: (وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك !!!!)

ما كان سادات قريش ليؤمنوا مهما حدث، ولعل الله جلت حكمته لم يعطهم الله المعجزة الحسية الوحيدة في هذه الدعوة بانشقاق القمر إلا لتقام الحجة عليهم فيقولوا لرسوله ﷺ إنما سحرت القمر، أو أعيننا كما ذكرنا في نهاية الفصل الرابع،

نعم، ما محمد إلا نذير مبين، يطالبونه بما لا يقبل العقل وهو لا يطلب إليهم إلا ما يقبله العقل ويمليه ويحتمه.

وتعالوا نتصور الله وقد استجاب لهم فآمنوا بعدما أعطاهم ما سألوا، وهو علىٰ الله يسير، فذلك سيستتبع اشتراطا مسبقا لكل مدينة أوحي أو قبيلة أو حتىٰ فرد في الحصول

(١٦٦)سورة الرعد – الآية ٣٠

علىٰ استحقاقات مادية قبل أداء ما علىٰ البشر من عبودية، ولأخذت العبودية لله شكل المقايضة اليومية مع الله، بل واللحظية في كل أمر، وسبحانه عما يصفون.

ومالهم يطالبونه إثبات رسالته بالخوارق ليترددوا بعدها أيؤمنون أم لا، أفآمنوا بعد انشقاق القمر؟، وهذه الآلهة التي يعبدونها لم تملك لهم يوما ضراً ولا نفعاً، وهم مع ذلك عاكفون علىٰ عبادتها دون أن يطلبوا إليها ما يثبت ألوهيتها، فبادأهم رسول الله ﷺ بذكر آلهتهم، وكان قبل ذلك لا يذكرها، وجن جنون سادات قريش، وبدأت مرحلة أكثر عنفاً في المواجهة

- وفد قريش (الثاني) إلى أبي طالب:

وتحقق لقريش ما أرادت علىٰ رؤوس الأشهاد وفي حضور عبد المطلب، طالبوه بخيارات عدة، ولم يحقق علىٰ رؤوس الأشهاد مطلباً واحداً، وبدلا عن ذلك ذكر محمد الآلهة بسوء.

إذا فلم تبق غير الخطوة التالية للخلاص من الدعوة الجديدة وممن قض مضاجعهم، وحسم للأمور ظنوه واجباً، خاصة بعدما بادأهم رسول الله ﷺ بذكر آلهتهم في أواخر السنة الرابعة من النبوة، فمشىٰ أشراف قريش إلىٰ أبي طالب وكان في مقدمتهم أبو سفيان بن حرب بن أمية، وقالوا له:

يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد اشتهيناك من قبل أن تنهي بن أخيك فلم تفعل، وإنا والله لا نصبر علىٰ هذا من شتم آلهتنا وآبائنا، فإما أن تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتىٰ يهلك أحد الفريقين،

وانصرفوا عنه بعدما تطورت الأمور إلىٰ تهديد صريح له ولآل عبد المطلب وإلىٰ نذر حرب أهلية، عظم علىٰ أبي طالب فراق أهله وقومه وعداوتهم له، إلا أنه أيضا لم تطب له نفسه التخلي عن ابن أخيه وخذلانه، فبعث إلىٰ رسول الله ﷺ فأتاه فقال له: يا محمد أبق علىٰ نفسك وعليَ ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق. شعر رسول الله أن عمه قد خذله وتخلىٰ عن نصرته فقال له:

(يا عماه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر حتىٰ يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته)

ثم بكىٰ رسول الله ﷺ وقام، بكىٰ الحبيب المصطفىٰ وكان قد اقترب من الخامسة والأربعين ولم يكن أبو طالب قد رآه باكيا قبل هذا اليوم، فتحركت فيه النخوة والشهامة، ولما ولىٰ رسول الله ناداه أبو طالب يطمئنه بعدما بكىٰ فأقبل رسول الله عليه وقال له أبوطالب: اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً، وهكذا أتت رياح المشركين بما لا تشتهي سفنهم.

٥- إن الله غالب على أمره:

أتت فيما بعد أيضـًا رياح المشركين بما لا تشتهي سفنهم بما هو بعيد عن توقعاتهم، إذ اجتمع يومـًا أصحاب رسول الله ﷺ يعلقون علىٰ الأحداث السابقة وشعروا بضرورة أن يُقرأ القرآن لهم جهاراً نهاراً وتساءلوا، فمن رجل يُسمِعَهم؟، فتصدىٰ عبد الله بن مسعود لهذه المهمة، وكان أقصر من في مكة قامة، خفيف اللحم دقيق الرجلين ولا عشيرة له من بينهم تحميه، فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه (أنا) قالوا: إنا نخشاهم عليه، إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه.

قال عبد الله بن مسعود وكله حماسة وفداءً: دعوني فإن الله سيمنعني. وغدا عبد الله بن مسعود حتىٰ أتىٰ المقام في الضحىٰ، وكانت قريش في أنديتها فرفع صوته بسورة الرحمن:

﴿ٱلرَّحۡمَـٰنُ ❁عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ❁خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ❁عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ❁ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ❁ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ❁وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ❁أَلَّا تَطۡغَوۡا فِي ٱلۡمِيزَانِ❁وَأَقِيمُوا ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُوا ٱلۡمِيزَانَ❁وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ❁ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ❁وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ❁ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ❁خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن صَلۡصَـٰلٍ كَٱلۡفَخَّارِ❁وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ❁فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ❁فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ❁مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ❁بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٌ لَّا يَبۡغِيَانِ❁فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ❁يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ❁ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ❁وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَـٰمِ❁ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ❁ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٍ❁ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَـٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ❁ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

تأملت قريش وأنصتت ثم جعلوا يقولون: ما يقول بن أم عبد؟ فرد أناس وقالوا بعدما حققوا: إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد، فقام القوم وعلىٰ رأسهم أبو جهل وجعلوا

يضربونه في وجهه وشق أبو جهل أذنه، والقوم علىٰ ما يقومون به، واستمر عبد الله بن مسعود يقرأ السورة حتىٰ بلغ منها ما استطاع أن يبلغ، وانصرف مجهدا إلىٰ أصحابه فقالوا له:

هذا ما كنا نخشاه عليك، فقال: ما كان أعداء الله قط أهون علىٰ منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً، قالوا له: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون، ولما أتىٰ النبي ورأىٰ ما هو عليه رق قلبه له وأطرق رأسه مغموماً.

وشعر الكفار أن قوة الحق كانت تعلو وتزداد يوما بعد يوم ولم تفلح أساليب الضرب والسب في المنع من إحقاق الحق ولقد زادت الضغوط النفسية علىٰ الكفار

٦- وفد نصارى نجران

سمعت الجزير العربية عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ولم يكن عبدة الأصنام هم وحدهم من سمعوا به صلىٰ الله عليه وسلم، بل سمعت اليهود والنصارىٰ ايضاً، فوفد إلىٰ مكة في نهاية السنة الرابعة من النبوة عشرون رجلا من قساوسة النصارىٰ في ركب حين بلغهم خبر ظهور نبي آخر الزمان الذي أخبر به المسيح عيسىٰ بن مريم ﷺ وجلسوا إلىٰ محمد صلىٰ الله عليه وسلم، واستمعوا منه، فصدقوه مما أغاظ قريش، وسبوهم فقال لهم أبو جهل عمرو بن هشام:

(خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتىٰ فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال) قال كبيرهم (لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لن نألوا انفسنا خيرا

٧- تشكك سادة الكفار فيما يعتقدون:

بدأ سادة الكفر من قريش يسائلون أنفسهم كل علىٰ حدة، ولا يجرؤ أن يصارح أحد أقرب الناس إليه عما إذا كان محمد علىٰ حق أم لا، فهم يرون مكرهم يرتد يوما بعد يوم إلىٰ نحورهم، ويفشلون في وقف زحف تزايد أتباع محمد، والأكثر من ذلك فقد كانوا دوما يرون أهل الكتاب من يهود ونصارىٰ أكثر رقياً فيما يعبدون من آلهتهم، وها هو وفد النصارىٰ تفيض عيونهم من الدمع كلما استمعوا إلىٰ محمد. فكل من أعطىٰ نفسه فرصة في

الاستماع لمحمد إما آمن به أو فاضت عيناه من الدمع أو عاد إليهم مشدوها بما سمع، آمن به من اتهموه بتلقي العلم منهم، فها هو حداد الرومي النصراني وقد صار من أتباعه.

حتىٰ يسار اليهودي غلام بن الحضرمي قد آمن به وتبعه جبرا اليهودي مولىٰ عامر أيضـًا. ومن كبراءهم أيضـًا فقد ذهب إليه الوليد بن المغيرة فعاد ليقول لهم (إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلىٰ عليه) ولكنه لم يؤمن به وذهب إليه عتبة بن أبي ربيعة فعاد يقول لهم (قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة فأطيعوني وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأً عظيمـًا فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر عليهم فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به) وهو أيضا لم يؤمن به.

وشهد عقبة بن أبي معيط أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله في لحظة ما ورجع عن شهادته. وكذلك فعل ضمادة بن ثعلبة الأسدي، وتتزايد الأعداد المؤمنة به يومـًا بعد يوم، وبقي ضمادة علىٰ إسلامه. وجعل سادة كفار مكة يتساءلون فيما بين أنفسهم، أحقا يدعو محمد إلىٰ الدين القويم الآتي من الله؟، أحقا ما ينذرهم به؟، وإذا ما خطر لهم ذلك ارتعبوا، فاتخذ كل منهم قراراً في نفسه دون أن يطلع عليه أحد أن يستمعوا إلىٰ ما يقول، ولكن كيف

صدق الله العظيم إذ قال في محكم آياته (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) (١٦٧)
وصدق إذ قال: (فَذَرْنِىٰ وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)(١٦٨)

خرج أبو سفيان بن حرب ليلا ليستمع إلىٰ محمد وهو في بيته فأخذ مجلسـًا في الظلام، وفي نفس الليلة خرج أبو جهل بن هشام دون أن يعلم ما فعل صاحبه، فاتخذ مجلسـًا هو الآخر في الظلام، الأخنس بن شريق حذا حذوهما أيضا، دون أن يعلم ما فعل صاحباه وأتخذ مجلسـًا بدوره، كان رسول الله ﷺ يقوم الليل إلا قليلا أدنىٰ من ثلثيه، أكثر من نصفه تقريبـًا يقرأ القرآن ويرتله ترتيلا بصوته الرخيم الجميل بما يأخذ الألباب، وكانت فرصة يستمعون دون أن يدري، أو يدري أحد بتلصصهم عليه، وكل منهم لا يدري بمكان

(١٦٧)سورة الحجر – الآية ٢
(١٦٨)سورة القلم ٤٤

صاحبه، فلما كان الفجر تفرق المستمعون عائدون لمنازلهم، فجمعهم طريق واحد، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمد عليكم.

لما كانت الليلة التالية شعر كل واحد منهم في مثل موعد الأمس أنه في مسيس الحاجة إلىٰ قضاء الليلة حيث قضاها بالأمس فقد أخذ الهول كل منهم والفزع، وقد استمع كل منهم إلىٰ القليل الذي يحذرهم محمد منه وينذرهم به، علموا أن هنالك بعثا ولم يكونوا علىٰ علم به، علموا بأن هنالك عقاباً بعذاب النار وكانوا في حمىٰ آلهتهم، وعدوا إن آمنوا بجنة عرضها كعرض السماوات والأرض ولم يتصوروها.

وفي طريق عودتهم تلاقوا مرة أخرىٰ فتلاوموا من جديد. وفي الليلة الثالثة ذهب ثلاثتهم في الخفاء والتقوا فجراً، وتلاوموا مرة ثالثة، تضطرب نفوسهم، يسائلون بعضهم الرأي فيما سمعوا، فتعاهدوا ألا يعودوا.

لم يمنعهم من الإيمان إلا الغرور، فيتذكرون مقولة الوليد بن المغيرة إذ قال سابقاً:

(أينزل علىٰ محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي ونحن عظيما القريتين)، ولم يمنعهم إلا الحسد، فقد ذهب الأخنس بن شريق إلىٰ أبي جهل في بيته فسأله (يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعنا من محمد) فيجيب أبي جهل (ماذا سمعت؟، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، أطعموا فأطعمنا، حملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تحاذينا الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منَا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتىٰ ندرك مثل هذا؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه)

ولم يمنعهم إلا الفزع من البعث، فقد كانوا قوما منكبين علىٰ اللهو والظلم والاستمتاع بالجاه والسلطان والإسراف فيه، وكان ما استمعوا إليه مما أتىٰ به محمد فيه النذير فتنخلع قلوبهم ويفرون إلىٰ سابق عهدهم دعة وفجوراً.

أما عن وعد المتقين بالجنة التي عرضها السماوات والأرض لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين فكانوا في ريب منها، فهم يريدون العاجلة في هذا العالم، فلم يمنعهم إلا الغفلة والغباء.

٨- رغبة وفد قريش (الثالث) إلى أبي طالب في قتل رسول الله:

العقل قد ميز البشرية وهو منبع المنطق والضمير وهما جناحا حركة الحياة وفاقد العقل فاقد لكل ما يستتبعه من رشاد، لما رأىٰ سادة كفار قريش ظهور الإسلام وجلوس المسلمين حول الكعبة أُسقِط في يدهم، وكان عليهم التصرف في الأمر الذي يزداد استفحالا يوماً بعد يوم، وأبو طالب يصر علىٰ الدفاع عن ابن أخيه عملا بالمروءة، مشىٰ رهط من سادة قريش مرة ثالثة إلىٰ أبي طالب وعلىٰ رأسهم الوليد بن المغيرة حتىٰ دخلوا عليه فقالوا له:

أنت سيدنا، وأفضلنا في أنفسنا، ولقد رأيت هذا الذي فعل هؤلاء السفهاء مع بن أخيك من تركهم آلهتنا وطعنهم علينا وتسفيههم أحلامنا وقد جئناك بفتىٰ قريش (عمارة بن الوليد بن المغيرة) وأكثرهم جمالاً ونسباً ونهاده وشعراً، ندفعه إليك فيكون لك نصرة وميراثه، وتدفع إلينا ابن أخيك فنقتله! فإن ذلك أجمع للعشيرة (ثم أضافوا في لهجة تهديدية) وأفضل في عواقب الأمور مغبة، فاحتد أبو طالب وكان قد قارب علىٰ الثمانين من عمره وقال:

والله ما أنصفتموني، تعطوني ابنكم أغذية لكم وأعطيكم ابن أخي تقتلونه؟

ما هذا بالنصف، تسومونى سوم العرير الذليل!

قالوا:

فارسل إليه فلنعطه النصف.

أرسل أبو طالب لابن أخيه فجاء رسول الله ﷺ فقال له:

يا بن أخي هؤلاء عمومتك وأشراف قومك، وقد أرادوا أن ينصفونك.

قال لهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم:

قولوا فأسمع.

قالوا: تدعنا وآلهتنا، وندعك وإلهك.

قال أبو طالب: قد أنصفك القوم فاقبل منهم.

أراد ﷺ لهم الخير طالما بدأوا في الإنصاف فقال رسول الله: أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطيَ كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم؟

قال أبو جهل: إن هذه كلمة مربحة، نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها.

قال صلىٰ الله عليه وسلم: فقولوا لا إله إلا الله

أسقط في يدهم واشمأزوا غضبا ونفروا فقالوا: اصبروا علىٰ آلهتكم، إن هذا شيء يراد.

مروءة آل هاشم وآل عبد المطلب ونذر الحرب الأهلية

ولما قاموا وقد قيل ذلك، قال عقبة بن أبي معيط [١٦٩]: (لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن يغتال محمد)

سمع رسول الله ﷺ ما قاله عقبة بن معيط، وسمعها الحاضرون، لكن هذه الكلمة قد أثارت انتباه حبيب رسول الله أبو طالب فشعر بالقلق، ولما كان مساء تلك الليلة فُقد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وجاء أبو طالب واستدعىٰ عمومته فذهبوا إلىٰ بيته فلم يجدوه، فجمع أبو طالب كل فتيان بني هاشم وبني المطلب ورجالها ثم قال:

ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة (سيفا صارما) ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتىٰ منكم وليجلس إلىٰ عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية (يعني أبا جهل) فإنه لم يغب عن شرَ إن كان محمد قد قتل، فقال الفتيان والرجال سواء الذين آمنوا برسول الله والذين لم يؤمنوا: نفعل، ومن بعيد جاء زيد بن محمد (زيد بن الحارثة) فوجد أبا طالب علىٰ هذه الحالة، وقال له أبو طالب: يا زيد أحسست ابن أخي؟

قال زيد: نعم، كنت معه آنفـًا.

لكن أبا طالب لم يرض بالاطمئنان الشفهي فقال: لا أدخل بيتي أبداً حتىٰ أراه، خرج زيد مهرولاً حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصفا ومعه أصحابه يتحدثون، فأخبره الخبر، فعاد رسول الله ﷺ مسرعـًا حتىٰ لا تتفاقم الأمور ويحدث صداما يكرهه، وأبت عليه ملكات الفضيلة حدوث الصدام فلم يكن رسول الله يحب القتل والقتال،

(١٦٩)أدت تلك المقولة والأفعال التي قام بها من قبل ومن بعد إلىٰ إهدار دمه بقطع الرقبة عند أسره في بدر

ويتمنىٰ أن تؤدىٰ الإرهاصات الفكرية التي يواجهها مع المشركين إلىٰ الوصول بهم إلىٰ بر الإيمان وبمكة لبر الأمان، لكن أبا طالب أراد أن يحسم مبكراً ما يجول بخاطر عقبة وغيره، فلما جاء رسول الله إلىٰ أبي طالب عمه وحبه قال له: أين كنت يا بن أخي؟ وبقول الأب الملهوف الذي يرىٰ ابنه صحيحا أمامه أردف: أكنت في خير؟

قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: نعم

قال أبو طالب: فادخل بيتك.

ودخل رسول الله بيته، فلما أصبح أبو طالب، غدا علىٰ النبي ﷺ فأخذ بيده ووقف به علىٰ أندية قريش، ومعه الفتيان والرجال الهاشميون والمطلبيون وقال:

يا معشر قريش، هل تدرون ما هممت به؟، قالو: لا

فأخبرهم الخبر، وقال للهاشميون والمطالبيون: اكشفوا عما في أيديكم، فكشفوا عن سيوفهم الصارمة، فقال:

والله لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتىٰ نتفانىٰ نحن وأنتم.

وانكسر القوم، وكان أشدهم انكساراً أبو جهل[١٧٠] أما ما كان من شأن ما قاله عقبة بن أبي معيط، فقد كان له أكبر الأثر في ردة الفعل التي اتخذها أبو طالب، فما اتخذه أبو طالب من قرارات حازمة كانت بمثابة دستور عمل لآل هاشم ولآل عبد المطلب في انتهاج المروءة وما عرف عن العرب عامة من شهامة ونخوة، فحفظ عقبة بن أبي معيط الدعوة الإسلامية دون أن يدري وأكدت حماية العصبية الهاشمية والمطلبية لرسول الله كما أدت فيما أدت إلىٰ انحياز حمزة (أسد الله) إلىٰ الإسلام نخوة وشهامة ومروءة دون أن يعلم في بادئ الأمر شيئا عما يدعو إليه ابن أخيه،

أما خديجة رضي الله عنها وأرضاها ففور علمها بما قيل، اتخذت هي الأخرىٰ ما قدرت عليه من حيطة فاستأجرت العبيد الأشداء يصاحبون رسول الله أينما حل، وكانت رضي الله عنها وأرضاها من قبل الدعوة ثرية كما ذكرنا، إلا أنها وبعد الدعوة تعطلت تجارتها وبدأ يصيبها البوار، فقد كان التجار من رجال قبيلتها يتاجرون لها بعدما طلبت من زوجها محمد قبل الرسالة ألا يقوم بتجارها كما أسلفنا، والتاجر يملك ماله فينميه ويدوره

(١٧٠)(قارن بالنويري ج ١٦ ص ٢٠١-٢٠٢)

في الأسواق، فتضاءلت ثروتها بمرور الوقت، وتناقصت كثيراً بما كانت تنفقه علىٰ الدعوة، ولم تشعر يوما بندم علىٰ ذلك المال، فإخلاصها لله ولرسوله كان أكبر من أي مال تصيبه، أو تخسره.

من أجل الدعوة كان جهاد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، يرفض المال والملك، يؤدي الأمانة، وينذر الأمة، يُعادىٰ من أهله وعشيرته، يسخرون منه ﷺ ويضربونه ويسيئ إليه عمه والأقربون، ويهدد بالغيلة.

ومن أجل الدعوة تفقد خديجة رضي الله عنها أثرىٰ ثريات مكة مالها وعشيرتها.

ومن أجل الدعوة يضرب عبد الله بن مسعود وأبا ذر الغفاري وتتوالىٰ تضحيات المؤمنين بها.

ومن أجل الحسد والدعاية، يفقد كبراء مكة اتزانهم، ومكانتهم بين القوم، وعقولهم التي كانت بها قريش تباهي بها القبائل.

ما بين الدعوة والدعاية

أنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلىٰ النور يهديهم الصراط المستقيم، فكان عليه الصلاة والسلام يبلغ ما أُنزل إليه للصحابة –وهم عرب خلص في أغلبهم– فيفهمونه وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات سألوا رسول الله ﷺ عنها، ثم حرصوا علىٰ العمل بالآيات والوقوف عند أحكامها، روي عن عبد الرحمن السلمي قوله (حدثنا الذين يقرئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزها حتىٰ يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فتعلمنا العلم والعمل جميعـًا) ومن فضل الله عليه صلىٰ الله عليه وسلم، أنه لم يتركه في الحياة يستهدىٰ بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة، تقوده إلىٰ الخير وترشده إلىٰ البر فحسب، بل قد هداه الله إلىٰ ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعة الله جل جلاله، ومع رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وصل المؤمنون الأولون بالتجرد أولاً ثم بالمنطق السليم وبهدي المنهجية والسببية حتىٰ وصلوا لليقين المطلوب إذ جعل الله جلت حكمته من إطلاق حرية العقل في التفكير والحث عليه أساسـًا للعقيدة السليمة، بل وأثنىٰ علىٰ أولي الألباب (يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ

ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ) وكذلك (إن في خلق السماوات والأرض لآيات لأولي الألباب) (١٧١) ونعىٰ علىٰ الغافلين (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً صم بكم عميٌ فهم لا يعقلون) (١٧٢)

وأصبحت الدعايات بما يجيئ به محمد عليه السلام من اتهامات الجنون والسحر اتهامات مدحضة وبمرور الوقت وازدياد عدد الذين آمنوا، علمت قريش واقع انتشار ذكر محمد في بلاد العرب كلها، لما لمسوه فيما يتلوه من تكامل وعلم لا يعلمونه، ووجدوه يخاطب الفطرة مباشرة، فما يعبد الناس من دون الله أصناماً وملوكاً وفراعنة وناراً وشمساً إنما هو وهم باطل غير جدير بالكرامة الإنسانية، ولا يتفق مع عقل الإنسان وما كُرِم به من القدرة علىٰ استنباط سنة الله عن طريق التفكير، كان جوهر الدعوة علىٰ ما أبلغهم به الله بالوحي بمثابة إجابات علىٰ ما يدور بخلد أغلبهم علىٰ لسان محمد في آي من البلاغة كانت ولا تزال معجزة في حد ذاتها، فجمعت الدعوة بذلك لهم كل كلمات الحق من الله العلي القدير علىٰ لسان رسوله في جمال وكمال واكتمال، وإحكام وحكمة، فعلموا أنه حسب الإنسان أن يفهم هذا وأن يعمل به وعليه، فيبلغ الذروة في مراتب الإنسانية وهانت كل التضحيات في هذا سبيل وقد سمع الشاعر لبيد بن ربيعة وكان شهيرا بالبلاغة -كان آخر من بقىٰ من السبعة أصحاب المعلقات- أن محمداً يتحدىٰ الناس بالقرآن فعلق بعض أفضل ما كتب علىٰ الكعبة، فكتب أحد المسلمين بعض آيات القرآن وعلقها وقرأها لبيد فصرخ مذهولا (والله ما هذا بقول بشر وأنا من المسلمين) وأسلم.

عبس وتولىٰ

بعد أن هدأت أعاصير التحدي قليلاً، شعر رسول الله بما قد تحمله الأيام المقبلة من أخطار علىٰ المؤمنين وعلىٰ قضية الإيمان برمتها، فما كان من رسول الله إلا أن كثف دعوته علىٰ كبراء مكة مرة أخرىٰ لعل وعسىٰ، وفي هذا الإطار انشغل رسول الله ﷺ مع هؤلاء النفر من قريش لا لنفسه ولا لمصلحته بل لصالح المسلمين أجمعين، وهو الفكر الاستراتيجي بلغة زماننا، فكان المؤمنون حينما يرون ذلك يبتعدون عن التشويش علىٰ أهداف الرسول ﷺ لعلمهم بانشغاله بهذا الأمر لكون الإسلام في عسرة، فالكبراء يصدون

---

(١٧١)البقرة ٢٦٩ & آل عمران ١٩٠

(١٧٢)سورة البقرة ١٧١

عن الدعوة بجاههم واتصالاتهم، ويحولون بين رسول الله وبين الناس في مكة وخارجها حتىٰ كادوا أن يجمدون الدعوة، وفي مكة كان هنالك عبد الله بن أم مكتوم، رجل أعمىٰ، فقد بصره صغيراً، وعرفته دروب مكة وأزقتها دؤوبا في طلب الرزق، ولما آمن برسول الله كان لا يكل عن طلب المعرفة حريص علىٰ التفقه في الدين، وكانت وسيلته في ذلك أن يسأل بلسانه ويعي بأذنيه، وكلم سمع صوت رسول الله يسعىٰ إليه ويعترضه حتىٰ يستمع منه ويسأله وبينما كان رسول الله ﷺ في يوم من الأيام يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب يعرض عليهم الآيات حرصا علىٰ إيمانهم، أقبل إليه عبد الله بن معيص(١٧٣) والمعروف بـ (عبد الله بن أم مكتوم) يستدل علىٰ مكان رسول الله من صوته وهو لا يدري أنه يناجي علية القوم من أجل صالح المسلمين فقاطع رسول الله قائلا (يا رسول الله، علمني مما علمك الله) ورسول الله منشغل بهذا الأمر، يخطط له منذ زمن وربما اعتقد أنه قد قارب علىٰ هداية هؤلاء القوم الذين يناجيهم، وابن أم مكتوم يفسد اللحظة الحاسمة في استمالة القوم دون أن يدري، فعبس رسول الله في وجه بن أم مكتوم، وانصرف عنه وكره كلامه، وأقبل علىٰ الآخرين، فلما قضىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ولما يهتدي القوم بعد، تذكر بن ام مكتوم فأخذ عليه الصلاة والسلام يتفقده وينقب عنه ويسأل عليه أهله، فأمسك الله ببعض بصر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ثم خفق برأسه فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ الآيات العشر الاولىٰ من سورة عبس (عبس وتولىٰ *أن جاءه الأعمىٰ * وما يدريك لعله يزكىٰ * أو يذكر فتنفعه الذكرىٰ * أما من استغنىٰ * فأنت له تصدىٰ *وما عليك ألا يزكىٰ * وأما من جاءك يسعىٰ* وهو يخشىٰ * فأنت عنه تلهىٰ) وهو اللوم الثاني لرسول الله من العلي القدير بعد لومه في سورة الأنعام (في أمر أن كبر عليه إعراضهم)(١٧٤) ولم يكن اللوم الأخير، فنبي الله ﷺ وهو الذي اصطفاه الله من بين عباده، بتكليف شاق منه جل وعلىٰ والتكليف منوط بحكمة الله وعلمه في الاختيار، فيقضي بان تمنح للقادر عليه فيعده الله لهذا التكليف ولئن كانت للأنبياء عصمة فهي عصمة في التبليغ، وهي ليست كعصمة الله

(١٧٣)الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج٣ ص ١١٩٨

(١٧٤)الجزء الرابع من هذا الكتاب– بند علانية الدعوة وعالميتها ص ١٠٧ وما جاء بسورة الأنعام بالآية ٣٥

فالوحي لا يلازم الأنبياء في كل عمل يصدر عنهم أوكل قول يبدر منهم. فهم وإن كانوا أنبياء أو رسل من البشر ومعرضون للخطأ ورسول الله من البشر وحتىٰ إن كان خير البشر، فقد يخطئ كما يخطئ البشر، والبشر لا يجدون من يراجعهم، أما الأنبياء فيمتازون عن باقي البشر بأن الله جلت حكمته يجعل من أخطائهم وسيلة لهداية البشرية لأنهم قدوة، فلا يقر الله الأنبياء علىٰ أي هفوة تصدر منهم أو عنهم، فلو كان الأنبياء معصومين أو ملائكة لما كانوا من البشر ولما كانوا قدوة لهم أو أسوة، وقد قال الله للبشر عن سيد الخلق (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) وأدرك رسول الله أن نجاح الدعوة منوط ليس بجهده فحسب، بل بأمر الله.

٩ - الانتقام من العبيد والضعفاء:

وإن كانت أوراق الضغط لم تنفذ من بين أيديهم بعد ما اتخذه أبو طالب من اجراءات، فلكل سيد من سادات الكفر كان الإسلام قد وصل إلىٰ بيته وقبيلته وعبيده، وإن كانت كل التضحيات في سبيل هذا الدين قد هانت، فقد تجلت تلك التضحيات في أوضح صور التجلي، فمن النساء الحرائر اللائي أسلمن ولم يعذبن سواء كن متزوجات من مؤمنين أو كفار، أو كن أمهات لرجال مؤمنين أو لكفار، أو بنات لمؤمنين أو لكفار، أو شقائق لمؤمنين أو كفار. ونذكر بعض الأمثلة:

آمنت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهي أخت عثمان بن عفان من أمه أروىٰ وآمنت سهلة بنت سهيل بن عمرو وكانت زوجة أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة الذي أسلم وأخت أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذي سنعرف قصته عند تناول عهد الحديبية.

وآمنت أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي (صارت أم المؤمنين بعد استشهاد زوجها) وقد قد كانت من قبل زوجة أبي سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن مخزوم.

وآمنت رملة بنت أبي سفيان بن حرب وكانت زوجة لعبيد الله بن جحش والذي أسلم ثم ارتد إلىٰ المسيحية في الحبشة (صارت أم المؤمنين فيما بعد) وأمنت فاطمة بنت الخطاب العدوي أخت عمر بن الخطاب وزوجها هو بن عمهما سعيد بن زيد بن عمرو العدوي. وآمنت أم الفضل زوج العباس بن عبد الطلب قبل إسلام العباس زوجها، وآمنت

فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف دون زوجها أبو طالب، وأمنت عاتكة بنت عبد المطلب دون زوجها أبي أمية وأولادها منه ومنهم عبد الله بن أبي أمية وغيرهن العشرات وما استطاع أهل الشرك مسهن ولكن وإن كان ذلك الدين قد وصل إلىٰ نساء من نسل كفار سادة قريش فلم يكن باستطاعة كبراء الكفار تعذيبهن أو إجبارهن وإلا انقلب المجتمع المكي عليهم.

****

كان الانتقام إذاً من أحرار الرجال الذين عُذبوا أو ضُيق عليهم أو حبسوا فنذكر بعض الأمثلة: فقد كان عثمان بن عفان والذي قيده عمه الحكم بن أبي العاص فأوثقه رباطاً وعذبه بالنار ليترك الإسلام ولم تلن له قناة، وكان يقول: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه. كما كان أبو جندل بن سهيل بن عمرو وأخاه قد تأثرا بأختهما أو تأثرت بهما فآمن فحبسه أبوه. وكان مصعب بن عمير وكان في السادسة عشر من عمره، وهو ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمه خناس بنت مالك المضري والتي كانت من أثرىٰ أثرياء مكة، وقد كان الوحيد الذي آمن من أسرته وكان له أخ اسمه أبو عزيز من أشد كفار مكة، وكانت أمهما تغدق عليهما من المال الكثير يلبسان أفخر الثياب ولا يعرفان من الحياة إلا الدعة والراحة، أكثر ما كان يشغلهما هو الاستمتاع بكل شيء والصيد ويوم أعلن رسول الله عن الدعوة من علىٰ جبل قبيس كان يشتري رماح للصيد من حانوت سعد بن أبي وقاس فسمع ما قاله رسول الله فالتقاه في دار الأرقم بن أبي الأرقم وشهد بشهادة الحق فوضعت أمه أقدامه في القيد كما تفعل بالدواب وبقي في القيد حتىٰ هاجر للحبشة. وكان العديد أيضا غيرهم.

****

أما الضعفاء من العبيد فقد كان قساة القلوب ينتقمون منهم أشد انتقام فلا عزوة لديهم يخشونهم وهم أيضاً ملكية خاصة يفعلون بها ما يشاؤون وكان لرسول الله دور عمليٍّ وسريعٍ فعمد إلىٰ أبي بكر كي يتصرف بأسرع ما يكون التصرف، فقد كان بلال بن رباح عبداً حبشياً لأمية بن خلف الجمحي رأس الكفر وكان بلال سباقاً للإسلام بعد أبي بكر مباشرة وكان أمية يطرحه عاري الظهر في بطحاء مكة ويأمر بصخرة عظيمة يعجز عن حملها عشرة رجال ويقول له وهو يضربه بالسوط: لا تزال هكذا حتىٰ تموت، وتدخل أبو بكر فاشتراه منه وأعتقه، وكان (آل ياسر) وهم: عمار بن ياسر (وكان ترتيب اسلامه بضع

وثلاثون بعد دخول رسول الله دار الأرقم) وأبوه ياسر بن عامر أبو اليقظان العنسي وأمه سمية عبيداً لأبي جهل عمرو بن هشام المخزومي، وكان عمار قد سمع آيات من القرآن يتلوها رسول الله في جوف الكعبة فلقي صهيب بن سنان علىٰ باب دار الأرقم ودلفا إليه واستمعا، وشهدا شهادة الحق فتسمعت قريش إلىٰ صوته وهو يتلو القرآن من داره فاقتحموا الدار وعذبهم أبو جهل ليعودوا إلىٰ عبادة الأصنام ويكفروا بمحمد ويسبونه. وهم لا يقولون إلا كلمة واحدة (أحد أحد) ولم يكن كل هذا يحدث ورسول الله بمنأىٰ عنه، كان ينفطر قلبه كلما اكتوىٰ ياسر بالنار، قتل ياسر بن عامر أمام ابنه عمار من التعذيب وبصقت سمية علىٰ وجه أبي جهل لما طلب منها سب الرسول فقتلها أمام ابنها فيقول لهم رسول الله (صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)(١٧٥) وفي صراع عمار مع الألم الجسدي والنفسي الذي لاقاه بعد مقتل والديه أمام عينه، ضعف عمار فسب الرسول ﷺ فيربت ﷺ علىٰ رأس عمار ويقول (يا نار كوني برداً وسلاما علىٰ عمار كما كنت علىٰ إبراهيم) (١٧٦) ويخجل عمار من أن ينظر إلىٰ وجه رسول الله بعد تحريره فيصر قدوة العالمين علىٰ لقائه فيقول له (وإن عادوا فعد) وقد تحملت تلك الأسرة الجزء الأكبر من تعذيب الطاغية أبو جهل للمستضعفين كما شرفت في تاريخ البشرية بالذكر العطر من أجل هذا، وأخيراً فقد كان أفضل ما حصلت عليه تلك الأسرة هو أنها بشرت كلها بالجنة كأول من بشروا بها وأوحد الأسر التي نالت هذه البشارة، وكان يسار (أو ياسر) اليهودي غلام عامر بن الحضرمي قد عذب بعدما آمن برسول الله حتىٰ قتل من التعذيب، وكان خباب بن الأرت بن سعد بن خزيمة بن كعب أخذ أسيرا في غارة من اللصوص علىٰ قبيلته وباعوه في أسواق مكة (وكان ترتيب إسلامه من السادس إلىٰ الثامن الأوائل وقبل دخول دار الأرقم) فكان بالبيع مولىٰ لأم أنمار بنت سباع الخزاعية الختانة وكان من أفضل حافظي القرآن وكان صامداً حين عذب بأسياخ الحديد المحماة وكانوا يجذبونه من شعر رأسه ويجرجرونه علىٰ الأرض ويضجعونه علىٰ الجمر ويضعون عليه حجراً ثقيلا فيعجز عن الحركة(١٧٧) وكان صهيب بن سنان الرومي أيضـاً قد أسلم في نفس توقيت عمار بن ياسر، وكان عامر بن الفهيرة عبدا للطفيل بن عبد الله والذي لاقىٰ ألوانا من التعذيب فأعتقه أبو بكر الصديق،

---

(١٧٥)طبقات بن سعد ج ١ ص٢٤٨

(١٧٦)المصدر السابق

(١٧٧)رحمة العالمين ١\٥٧، تلقيح فهوم أهل الأثرص٦٠

وكان أبو فكيهة -واسمه أفلح- مولىٰ لبني عبد الدار قد عذب أيضـاً إذ كانوا يسحلونه بربط رجله بالحبال ويجرونه علىٰ الأرض وأنقذه أبوبكر

وكانت لبيبة جارية بني مؤمل بن حبيب بن كعب وبهم حي من بني عدي فكان عمر بن الخطاب يضربها حتىٰ يتعب ويمل من ضربها فيقول لها (إنما تركتك ملالة) واشتراها أبو بكر الصيق وأعتقها وكانت زنيرة، والنهدية وكذلك ابنتها، وأم عبيس إماء أسلمن وعذبن فاشتراهن أبو بكر الصديق وأعتقهن. علىٰ جانب آخر كان المقداد بن عمرو وهو عبد حبشي للأسود بن عبد يغوث والمقداد أسلم منذ أعلن رسول الله عن نفسه علىٰ جبل قبيس ولكنه كتم إسلامه خوفاً مما قد يلاقيه وطمعا في خدمة الإسلام بالتخفي قال عثمان بن عامر (أبو قحافة) لابنه أبي بكر الصديق: يا بني، أراك تعتق رقابا ضعافاً فلو أعتقت قوما جلداً فيمنعونك فقال له أبو بكر: يا أبت إني أريد ما أريد، ومعنىٰ ما قاله أنه لا يريد منعة وإنما يريد وجه الله فلم يكن بذلك القول وتلك التضحية أقل إخلاصا ممن عُذبوا في سبيل الله.

١٠- رسول اللّه وإدارة الأزمة:

لم يكن رسول الله يرضىٰ بإهراق أي دم ولو في سورة غضب كما فعل سعد أو إهراق دم مقصود من التعذيب وإزهاق أي روح كما فعل الكفار ولا كان يرنو إلىٰ وصول الخلاف الفكري إلىٰ أي شكل من أشكال العنف، كان عليه الصلاة والسلام يتمنىٰ أن تكون الحكمة والموعظة الحسنة هي السبيل، والسبيل الوحيد وقد استدعىٰ الصدام الذي حدث بإهراق سعد بن أبي وقاس الدم في سورة غضب أن أمر رسول الله باتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم ملاذا آمنا بعيداً عن العيون لتجنب الصدامات، ولقد برع عليه الصلاة والسلام فيما يعرف الآن بفن إدارة الأزمات. فمن جانب عمل علىٰ تخليص العبيد والإماء، وهو ما تم بالشراء والعتق وكان من قبله القرار السابق الإشارة إليه باتخاذ دار الأرقم، ومن جانب آخر بدأ يستعد لإبعادهم عن متناول الكفار الذين لم ولن يترددوا في الإيذاء طالما هم أحرار وليسوا في كنف من يملكهم ولا عزوة لهم تحميهم وبدأ التفكير في هجرتهم لخارج مكة في مكان آمن لا يصلون اليهم بعد نزول سورة الكهف، ثم كشف عليه الصلاة والسلام من محاورة أئمة الكفر بالحسنىٰ، فإن آمنوا كف عن المؤمنين المشقة، لعل وعسىٰ.

١١- سورة أهل الكهف:

كثف رسول الله ﷺ دعوته علىٰ كبراء مكة، فألهمتهم بعض الآيات التي سمعوها من رسول الله طريقا للخروج من مأزقهم (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم، فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) قرروا بعد أن أعيتهم الحيل أن يسألوا أهل الكتاب (أهل الذكر) الذي طالما تحدث محمد عنهم وفي شأنهم، فأرادوا امتحانه بما لا يعلم، فطالما اتهموه في تلقيه العلم من أهل الكتاب، فلم لا يسألونه هم عما يُعلِمه له أهل الكتاب بدون أن يتلقىٰ ممن يتلق منهم ردا كحداد الرومي النصراني، أو يساراً اليهودي غلام بن الحضرمي وجبر اليهودي مولىٰ عامر، ففي منتصف العام الخامس من النبوة (٦١٥ م) فكروا في أن يبعثوا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلىٰ أحبار اليهود في يثرب وقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فإنهم أهل الذكر والكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، وفي رأينا أن ذلك الفعل منهم لا ينبع إلا علىٰ رغبة منهم في استجلاء حقيقة أمر محمد، أو تنبع من البحث عن مصداقية لهم في رفض دعوته، أو سؤال عن مصداقيه محمد الذي أعياهم وأعيتهم النجاحات الجزئية التي تحققها الدعوة، وقد كان العرب يسمعون عن قولهم بقرب ظهور نبي من آل إسماعيل، فلما فعلا قالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاثة نأمركم بهن فروا فيه رأيكم

- سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، وما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديثا عجبا
- وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وما كان نبأهُ
- وسلوه عن الروح، وما هي؟

فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فهو نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم، فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، وما كان من أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وما كان نبأه، وماهي الروح؟

فقال لهم رسول الله: أخبركم بما سألتم عنه غداً. فانصرفوا عنه.

جملة قد قالها رسول الله ﷺ وهو واثق من تعضيد الله له، وله الحق في ذلك فالثقة في الله أهم عوامل النصر، فقد كان عليه الصلاة والسلام يتلقىٰ من جبريل عليه السلام العلم

الإلهي كله وما يعتم عليه، ورسول الله قد خالف وغفل بثقته في الله جانب من الجوانب الإيمانية المطلوبة من العزيز القدير، فقال ما قال دون أن يستثن (أي يربط التنزيل الإلهي بمشيئة الله) وكانت هفوة لا يرضىٰ بها الله جلت حكمته من رسول الله ﷺ فمكث رسول الله حتىٰ الغد ولم يأته جبريل، ولم يأته جبريل في اليوم التالي أيضـًا، والثالث فالرابع، حتىٰ مضت خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له وحيـًا ولا يأتيه جبريل حتىٰ أرجف كفار مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم مضت خمس عشرة ليلة وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه.

شق ذلك علىٰ رسول الله ثم جاءه جبريل بسورة الكهف وفيها معاتبة ثالثة جديدة له فقال الله في سورة الكهف الآية ٢٣ (ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله) وجاء في السورة أيضـًا خبر ما سألوا.

فعن فتية ذهبوا في الدهر الأول، وما كان من أمرهم يقول الله تعالىٰ في سورة الكهف الآية رقم ٩ (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) وحتىٰ الآية رقم٢٦ (قل الله أعلم بما لبثوا، له غيب السماوات والأرض، أبصر به وأسمع، ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً) قد كان اليهود في شك من القصة، فتأكيدها يعتبر تعضيداً للمسيحية[١٧٨] وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها يقول الله تعالىٰ

(١٧٨) فبعد المسيح مباشرة أيقن المسيحيون (وقد كانوا يعتبرون أنفسهم يهودا آمنوا بالمسيح) أن نهاية العالم قد اقتربت، وأحسوا بسعادة غامرة لتدمير الهيكل كما تنبأ المسيح وقرب عودته كما اعتقدوا وخرجوا من المدينة وأقاموا في بلاد الوثنيين الضالعة مع روما علىٰ الضفة الشرقية لنهر الأردن وفي هذا الوقت كان الإمبراطور تراجان (٩٦-١١٧ م) يقضي بالموت علىٰ كل من يرفض الوثنية فكان يلاحق أتباع المسيح ففر أولئك الفتية بدينهم للكهف فهم فتيه آمنوا بالمسيحية من مطاردة اليهود والرومان ولجأوا إلىٰ كهف مكثوا فيه سنين مذكورة في القرآن حسابيا، ثم شاءت إرادة الله تعالىٰ أن تحول الإمبراطور قنسطنطين الأول إلىٰ المسيحية سنة ٣١٣ م فخفت مطاردة المسيحيين، ثم خلفه ابنه قنسطنطين الثاني إلىٰ أن جاء حكم تيودوسيوس الثاني وفي عهده (٤٠٨-٤٥٠) كما يعتقد أن الله أعثر الناس عليهم بعد لجوئهم للكهف بثلاثمائة عام شمسي (٣٠٩ عاما قمريا) أي بعد أن غلب المسيحيون علىٰ الأمر وبعثهم الله بمعجزة تشهد للخالق بقدرته علىٰ البعث الذي شكك فيه الملاحدة عبر التاريخ كالمؤرخ البريطاني إدوارد جيبون في كتابه (سقوط روما وانحطاطها) واعتبرها من الخرافات معلقا علىٰ مصدر مسيحي وحيد يذكرها بقصة (النائمون السبعة) ثم جاءت الكشوف الأثرية عام ١٩٥٣ بإثبات وجود الكهف في قرية الرجيب (وهي تحريف لكلمة الرقيم) من أرض البلقاء بالأردن والعثور علىٰ بقايا أهل الكهف وعظام كلبهم اسفل مبنىٰ يعتقد كونه معبدا أو مسجدا، وأول من ذكر القصة قبل الإسلام كان الكاهن يعقوب الساروغي أو الساروجي بمقاطعة ساروغ بالعراق وكتب قصة أهل الكهف شعراً باللغة السيريانية ثم نقلت القصة الشعرية إلىٰ اللاتينية في نحو القرن السادس الميلادي. (مقتبسات من المصادر المذكورة ومن مقالة الدكتور زغلول النجار بجريدة الأهرام بتاريخ الإثنين ١٩ يناير ٢٠٠٩)

في نفس السورة من الآية رقم ٨٣ حتىٰ الآية ٩٧ (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً، إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببًا) (١٧٩) إلىٰ آخر القصة. أما عن الروح فقال تعالىٰ في سورة الإسراء بالآية رقم ٨٥ (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)(١٨٠) وكثف دعوته طمعًا في إسلامهم ولكنه لا يهدي من أحب والله سبحانه وتعالىٰ يهدي من يشاء، ولما تأخر الرد، اغتبط المشركون ولما تم التنزيل علىٰ رسول الله لم يتم في يوم ولية بل كما أراد الله للآيات أن تتنزل علىٰ النسق الذي يريده الله، مما شكك الكفار في صدق الدعوة، فمثل هؤلاء لا يمن الله عليهم بنعمة الهداية، وقد مرت فترة شككوا فيها رسول الله مما أنزل إليه فأنزل الله لوما رابعا (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ) (١٨١) ثم هداه لما يقول (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) (١٨٢)

ولم يكن رسول الله يدخر أي جهد في سبيل هداية أئمة الكفر خلال تلك الفترة فكان يجالس المؤمنين فيفقههم في الدين وهو يأمل دعوة كبراء مكة فلا يجد عنده الصبر علىٰ من يجالس ويبعد أحيانا نظره عنهم طمعاً في هداية الغافلين عن ذكر الله، فأنزل الله عليه لوما خامسا في سورة الكهف ٢٨ (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه فكان أمره فرطًا)

---

(١٧٩)أخطأ المفسرون الذين قالوا مؤكدين أن ذا القرنين هو الإسكندر الأكبر المقدوني وهي أمور لا يمكن فيها التأكيد فآخرين يؤكدون أنه (الصعب بن ذي مراثد بن الحارث الرائش بن همام ذي سدد، وسواء كان هذا أو ذاك أو غيرهما فقد كان سؤال أحبار اليهود عن نبأه وليس عن شخصه، وقد أوفىٰ القرآن عن النبأ، والله لا يُمتحن، بل يمتحِن، وتفيد القصة في أن الأرض لله يورثها لمن يشاء وأن الفلاح في الإيمان وأن الله يبعث من يشاء لإنجاء الضعفاء المظلومين

(١٨٠)سؤال أحبار اليهود عن الروح وهم يظنون أنهم يعلمون أو سوف يعلمون من القرآن علماً قد خصه الله لنفسه فقد أكد الله لهم أن أي علم علموه ليس إلا علماً قليلاً وليس لأحد أن يعلم ما يعلمه الله، والدليل علىٰ ذلك ما عتمه الله جلت حكمته عن عدد أهل الكهف، ولكنه سبحانه وتعالىٰ يمن علينا بعدد السنين التي قضوها في الغار بدقة الإعجاز.

(١٨١)سورة يونس الآية ٩٤

(١٨٢)سورة يونس الآية ١٠٤

١٢- غُلبت الروم:

في هذه الفترة من الدعوة الإسلامية الوليدة كرم الله نبيه ورسوله بمعجزة من الاستبصار والإخبار لجميع الأنبياء والرسل بدرجات متفاوتة وهم يخبرون بالنبوءات دون جهد، وهي تمنح أيضاً للبشر إن أراد الله لفراستهم الإصابة كمنحة إلهية، ومن البشر من يبذل الجهد الجهيد للتوقع ولا يصلون إلا لما يريد الله لهم أن يستبصروه، فقد اكتسحت جيوش كسرىٰ عام ٦١٤ م أورشليم فنهبت كنوزها وقتلت أثناء عملية النهب ٩٠ ألف مسيحي، وأحرق الكنائس وكذلك ما كان يعتقده المسيحيون الضريح المقدس وأخذوا ما اعتقدوه الصليب المقدس إلىٰ بلاد الفرس، وتوالت انتصارات الفرس الوثنيين الأقوىٰ والأكثر عددا وعتادا علىٰ المسيحيين الرومان الأضعف المفككين وهم أهل الكتاب ودخلت مصر سنة ٦١٧ م وقتلت ٢٢٦ ألف قبطيا، ثم ترك جبهة القتال وذهب يلهو في قصره تاركا المسؤولية لقواده سنة ٦١٨ م فشمت كفار مكة في أهل الكتاب، وعندها تحمس أبو بكر بن أبي قحافة في مناظرة كلامية مع واحد منهم، فراهنه علىٰ أن أهل الكتاب من الرومان سينتصرون علىٰ المجوس في فترة ما بين السنوات الثلاث أو الأربع القادمة، وذهب لرسول الله ليخبره بأمر رهانه، فكرم الله نبيه ورسوله بمعجزات الاستبصار والإخبار والتي يمنحها الله عز وجل في شكل تنبؤا للمختارين فطلب من أبي بكر زيادة المدة إلىٰ الضعف ومضاعفة الرهان، وفعل أبو بكر، ونزلت سورة الروم من الآية ١-٥ وفيها (الم* غلبت الروم *في أدنىٰ الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون *بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) وفي الحقيقة فقد حدد القرآن أن هزيمة الروم في أدنىٰ الأرض؛ وفلسطين، وخاصة في الموقعة الفاصلة قرب البحر الميت هي أدنىٰ منسوب في الكرة الأرضية -وحدد التوقيت ببضع سنين- وبعد ثمان سنوات من الرهان فأعطىٰ نتيجة المعركة سنة ٦٢٦ م، وخرج الأمر من كونه رهان بين أبي بكر وواحد من الكفار، إلىٰ قضية إيمانية كبرىٰ فكلمات الله هي أساس الإيمان كله وعليه ينبني ولم يقبض أبوبكر الرهان وأصبحت كلمات الله للكفار في ميزان المصداقية في بضع سنين (البضع في اللغة ما بين ثلاث إلىٰ تسع سنوات) وعجب المشركون أن يعلق رسول الله مصداقية القرآن بصراع دولي يكسر به حاجز الغيب، فما العمل إذا ما انقضت السنين في حدها الأقصىٰ من البضع ولم ينتصر الروم؟ هل تحدىٰ

رسول الله الكفار واخترق حاجز الزمن؟ هل خاطر بمصداقية الدعوة؟ هل أراد أن يفرح المؤمنين بكلمات علىٰ حساب مصداقية القرآن؟ والإجابة علىٰ كل التساؤلات بـ (لا)

الحقيقة هي أن رسول الله هو رسول من الله، يبلغ ما يبلغه الله له من الحق بغض النظر عن أي نتيجة وانتصر الروم علىٰ الفرس بعد سنوات ثمان أي بعدما هاجر المسلمون إذا فقد نزل القرآن باليقين لأن قائله ليس عنده حاجز الزمن، وصدق الله العظيم في الآية السادسة التي تمعن في التحدي (وعد الله لا يخلف وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

١٣- الهجرة الأولى للحبشة:

وهي هجرة لم تدم سوىٰ شهرين، إذ بعد نزول سورة الكهف أوعزت إلىٰ رسول الله فكرة الهجرة فقد قال الله تعالىٰ في الآية رقم ١٦ (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلىٰ كهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقـًا) ثم نزلت آيات من سورة الزمر أيضـًا تشير إلىٰ الهجرة في الآية رقم ١٠ (للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، وأرض الله واسعة، إنما يوفىٰ الصابرون أجرهم بغير حساب)

بعدما بدأ رسول الله ﷺ يستعد لإبعادهم عن متناول الكفار وفي شهر رجب من السنة الخامسة من المبعث (سنة ٦١٥ ميلادية) ورؤيته الثاقبة في إدارة تلك الأزمة باستحالة حماية الرعيل الأول من المؤمنين فبدأ التفكير في هجرتهم لخارج مكة إلىٰ مكان آمن لا يصلون اليهم، قال لهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم:

لو خرجتم إلىٰ أرض الحبشة فإن فيها ملكـًا لا يظلم أحد عنده حتىٰ يجعل الله لكم فرجـًا ومخرجا مما أنتم فيه. وكان رسول الله قد علم أن أصحمة [١٨٣] بن أبجر النجاشي[١٨٤] ملك الحبشة ملكا عادلا، ولا يظلم عنده أحد، فخرج من مكة اثنىٰ عشر رجلا وأربع نسوة وكان علىٰ رأسهم عثمان بن عفان رضي الله عنه مع زوجته السيدة رقية بنت محمد فكانا أول آل بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام [١٨٥]

(١٨٣)سورة يونس الآية ١٠٤

(١٨٤)معنىٰ الاسم بالعربية (عطية)

(١٨٥)لقب كان يعطىٰ لكل من كان ملكـًا للحبشة

فخرج معهما أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة [١٨٦] ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو [١٨٧] ومصعب بن عمير، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة [١٨٨] وعثمان بن مظعون، وعبد الله بن مسعود، عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلىٰ بنت أبي هثيمة، وأبو سبرة، وحاطب بن عمرو، وسهيل بن البيضاء (وهو سهيل بن وهب) وجميعهم ممن كانوا من بطون قريش الكبرىٰ ويعذبون أو يُضيق عليهم من الكفار، فدل ذلك علىٰ مبلغ حرص وإخلاص المسلمين وتفانيهم في تحمل التضحيات فيما يصيبهم من المشقات والخسائر في سبيل الدعوة والعقيدة ولحرية عبادة الله وكانت تلك الهجرة الحذرة الأولىٰ مقدمة باقي الهجرات بعدها، وكانت هجرتهم تسللا في ظلمة الليل، حيث أنهم خرجوا إلىٰ البحر ويمموا لميناء شعيبة، منهم من كان راكباً ومنهم من كان ماشياً ووفقهم الله إذ كان بالميناء سفينتين للتجار في طريقها إلىٰ الحبشة، وعندما أدركت قريش الخبر خرجت في أثرهم حتىٰ جاءوا البحر وكانت السفينتان قد رحلتا فلم يدركوا منهم أحداً، وكان العالم المسيحي يعج بالنقاش الحاد في آثار الإرهاصات الفكرية ومحاولات تصحيح أفكار بولس التي جاء بها آريوس وحذا حذوه نسطورس بعده باعتبار مريم أم نبي الله عيسىٰ الذىٰ هو ليس إلاها ولم تكن القضية قد حسمت بعد في ضمائر العالم المسيحي والحبشة كانت جزء منه.

١٤- سورة النجم:

طلب رسول الله من المؤمنين تجنب المجابهة، أما هو عليه الصلاة والسلام فقد آل علىٰ نفسه مجابهة كل مخاطر الدعوة وحده، وفي رمضان من السنة الخامسة للدعوة (٦١٥م) خرج النبي ﷺ إلىٰ الحرم، وسط جمع كبير من قريش، وكان في هذا لجمع سادتها وكبراؤها، فقام فيهم وأخذ يتلو سورة النجم بغتة فقد كان الكفار يتخذون موقفا رسميا تعاهدوا عليه من القرآن فيقولون لبعضهم البعض

(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن وألغوا فيه لعلكم تغلبون) [١٨٩]

(١٨٦)مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٩٢ -٩٣، زاد المعاد١\٢٤، رحمة العالمين ١\٦١

(١٨٧)عتبة بن ربيعة وسهيل بن عمرو كانا أعدىٰ أعداء الإسلام

(١٨٨)صارت أم المؤمنين بعد وفاة زوجها

(١٨٩)سورة فصلت الآية ٢٦

كانوا في تلك الأثناء قد كفوا قليلا عنه، فلما باغتهم بتلاوة الآيات التي كانت قد نزلت منه هذه السورة، وقرع آذانهم كلام الله العزيز القدير وبالآيات من الروعة وجلال البيان أخذت الآيات بعقولهم وتفانوا عما هم فيه، وأنصت كل واحد منهم مصغياً إلىٰ صوت رسول الله الرخيم العميق وتلاوته التي تعلمها من جبريل، وبملكات عصمته في التبليغ* فلم يخطر ببال واحد منهم شيئا سوىٰ ما يسمع حتىٰ إذا بلغ خواتيم السورة بقوارعها التي تطير لها القلوب، ثم قرأ (فاسجدوا لله واعبدوا) (١٩٠) ثم سجد، فلم يتمالك أحد ممن سمع نفسه حتىٰ تحرك قلبه وخر ساجداً، وفي حقيقة الأمر كانت أول مرة يعطون لأنفسهم فرصة للسماع دون مواربة، وكانت للتلاوة علىٰ هذا الملأ وفي رحاب الحرم أثر روحي عظيم مما صدع العناد في نفوسهم فما تمالكوا أنفسهم فخروا سجدا.

لم يحاول رسول الله ﷺ أن يزيد من الضغط يومها، وبعد أيام سقط في أيديهم، إذ تناقلت الألسنة في مكة أن كبراء مكة قد أسلموا لمحمد، وتنامىٰ عديد المؤمنون الجدد في مكة، فتلاوموا وتعاتبوا فيما بينهم، إذ قد لووا زمامهم وقاموا بعين ما كانوا يبذلون قصارىٰ جهدهم في نفيه ومحوه، ولم يجدوا أمام من يلومونهم علىٰ ذلك ممن لم يحضروا الحادثة أن يكذبوا علىٰ رسول الله ﷺ بافتراء أنه عطف علىٰ آلهتهم بكلمة تقدير (١٩١)

وأحسب أن صادف تاجر أو تجار ممن يتاجرون مع الحبشة قد نما إلىٰ علمهم ذلك الحدث، فطير الخبر مع تجارته للحبشة من طيره أو أبلغه بنفسه في أول فرصة من فعل، وما أن علم المهاجرون للحبشة بالأمر -وقد اخلفت الصورة تماما عن الحقيقة فحسبوا أن كل قريش قد دخلت في الإسلام- حتىٰ فرحوا استبشروا خيراً فعادوا في شوال من نفس السنة، ولما كانوا دون مكة ساعة من نهار ولم يدخلوها، وعرفوا جلية الأمر فرجع منهم من رجع إلىٰ الحبشة ودخلها مكة من دخلها مستخفياً، أو في جوار رجل من قريش (١٩٢) ما عدا عثمان بن مظعون الذي عاد للحبشة من فوره،

---

(١٩٠)آخر سورة النجم

(١٩١)تفهيم القرآن ١٨٨\٥ وهو قد وافق هذا التوجيه ما جنح المحققون في هذه الحادثة ومع لا يستقيم به الأمر إلا به (ارجع إلىٰ مقدمة الجزء الأول في هذا الشأن) إذ قد تم تناول حديث الغرانيق في مقدمة الجزء الأول من الكتاب ص ١١، ١٢ ولا أرىٰ تناول ما أفك الكفار والمغرضين والغافلين من تشكيك في أمرها وهو عليه الصلاة والسلام صاحب العصمة في التبليغ وأكاد أجزم بضرورة توبة من قد يرىٰ غير ذلك.

(١٩٢)تفهيم القرآن ١٨٨\٥ - زاد المعاد ٢٤\١، رحمة العالمين ٦١\١

١٥- الهجرة الثانية للحبشة:

بعدما خر صناديد الكفر سجدا فعز عليهم ما حدث فاشتد الاضطهاد علىٰ المسلمين خاصة فيما كان من حال المسلمين العائدين من الحبشة من ثقة في رسول الله بقضاء فترة لا بأس بها في ممارسة شعائرهم، فخشوا من استفحال أمرهم فاشتدوا في العذاب عليهم مرة أخرىٰ، فلم ير الرسول ﷺ بداً من أن يشير علىٰ أصحابه بالعودة ثانية إلىٰ الحبشة في شهر المحرم من السنة السادسة من النبوة، إلا أن الهجرة هذه المرة كانت أشد من سابقتها، فقد تيقظت قريش لها وقررت إحباطها، فالحبشة تمثل لهم مصدر رزق لهم في تجارتهم، كما أن النجاشي فيما علموا عنه كان ملكـاً عادلا ومن غير المستبعد أن يبسط حمايته علىٰ المسلمين هناك، وقد ينتشر الإسلام بين جنبات هذا الحليف القوي، إلا أن قرار رسول الله بالهجرة الثانية كان أسرع، فيسر لهم الله الهجرة هذه المرة أيضا قبل أن يُدرَكوا، ولكن من هاجر هذه المرة كان أكثر عدداً فهاجر ثلاثة وثمانون رجلاً من بينهم جعفر بن أبي طالب ابن عم رسول الله وامرأته (ذلك إن صح أن عمار بن ياسر كان فيهم) وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة [١٩٣] واستمر بقاء المهاجرين في دار الهجرة أكثر من ١٥ سنة، إلىٰ ما بعد هجرة رسول الله ﷺ للمدينة المنورة وفتح خيبر، وتم خلال تلك الهجرة ما سيتم الحديث عنها في حينها.

١٦-الإساءة لرسول الله والاعتداء عليه جسديا:

من عقبة بن أبي معيط:

استمر عليه الصلاة والسلام في الجهر بالدعوة بين ظهراني المشركين، لا يصرفه عن ذلك شيء فهي مسؤوليته الأولىٰ، وبعد أشهر عز علىٰ المشركين ذلك الجلد والمثابرة منه ﷺ وتنامت فكرة التخلص الجسدي من رسول الله ﷺ ومر العام الخامس من النبوة وشهورا من العام السادس (٦١٦م) وفكرة التخلص من رسول الله ﷺ تسيطر عليهم فروىٰ عبد الله بن عمرو بن العاص بعدما أسلم، أنه قد حضر مع من كانوا مجتمعون بحجر الكعبة فذكروا رسول الله وقالوا، والله قد صبرنا منه علىٰ أمر عظيم، فعاد رسول الله إلىٰ الدعوة سراً إلا أن أبا بكر ألح علىٰ رسول الله في الظهور فقال له رسول الله: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل

(١٩٣)زاد المعاد ١\٢٤ – رحمة العالمين ١\٦١

يلح عليه حتىٰ خرج رسول الله ومن معه من الصحابة وقام أبو بكر في الناس خطيباً فثار المشركون وعلىٰ رأسهم عقبة بن أبي معيط، فضربوا المسلمين ضربا مبرحاً والملحوظ أن عقبة بن أبي معيط لم تكن مساوئه تقتصر علىٰ التهديد بقتل رسول الله ﷺ والإيعاز به ولا بما وصفناه به سابقاً فحسب، بل ازدادت نعاته سوءاً علىٰ سوء كلما صبر رسول الله عليه، فزاد من جرأته ورسول الله يصبر، مما أشعل هوجه وعدم اتزانه فلما كان الغد وثبوا علىٰ رسول الله وثبة رجل واحد وأحاطوا به وقام عقبة بن أبي معيط ووضع ثوبه في عنقه صلىٰ الله عليه وسلم، فخنقه خنقا شديدا، وسمع أبو بكر الجلبة وصراخ الناس إليه أن يدرك صاحبه من أعداء الله، فأتىٰ مهرولا وأخذ بمنكبي عقبة بن أبي معيط ودفعه عن النبي ﷺ وقال وهو يبكي: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ فتصدىٰ له عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين وتكاثر عليه المشركون حتىٰ تورم وجهه وتشوه فأقبل رجال من بني تميم يجلون المشركين عنه، ثم حملوه في ثوب إلىٰ بيته وما يشكون في موته فصاح منهم من صاح وأعلن في المسجد: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة، ولما أفاق أبو بكر بين سكرات الألم قال: ما فعل رسول الله؟ فلاوموه وعاتبوه فأبىٰ منهم أي رعاية إلا أن يحملوه إلىٰ رسول الله وبعد إصرار عنيد خرجت أمه وفاطمة بنت الخطاب يتكئ عليهما حتىٰ أدخلتاه علىٰ رسول الله في دار الأرقم فانكب أبو بكر باكياً علىٰ رسول الله يقبله،

حتىٰ عمر بن الخطاب بن النفيل وكان في الرابعة والثلاثين من عمره معروفاً بحدة الطبع وقوة الشكيمة محبا للهو وللخمر والنساء، مثل والده وكان الخطاب قد مات وقتها فشعر عمر بأن عليه أن يكمل مسيرة والده التي بدأها في اضطهاد زيد بن عمرو بن النفيل ابن عم عمر بن الخطاب بن نفيل، وقد كان الخطاب بن النفيل (عمه) صاحب غلظة فآذاه حتىٰ لا يفسد دين قريش فاضطره إلىٰ الخروج إلىٰ أعلىٰ مكة فنزل حراء، حتىٰ مات بها، فأراد عمر أن يثبت أنه ليس أقل من الخطاب غيرة علىٰ دين الأجداد، يعذب العبيد ويتوعد المسلمين، وفي يوم التجأ عمر أن يبيت خارج بيته، وفي طريق عودته مر بالحرم ودخل ستر الكعبة، فلمح رسول الله ﷺ يصلي في جوف الليل وقد استفتح سورة الحاقة فاسترق عمر السمع فأعجبته الكلمات فقال في نفسه: هذا والله شاعر كما قالت قريش. واستمر رسول الله يقرأ فكانت (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لَا تُبْصِرُونَ* إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) تعجب عمر من المصادفة فقال في نفسه إنه لكاهن، واستمر

رسول الله يقرأ فكانت ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ*تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ*وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ*لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ*ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ *فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ* وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

تعجب عمر وانتابه الذعر، وهرول إلىٰ بيته لا يلوي علىٰ شيء، ولما هدأ جعل يفكر ليس فقط فيما سمع وإنما في مجمل الأمر شعوره باختصاص الآيات وكأنها رسالة له وأيضـًا جعل يفكر في هذا الرجل وما يدعو إليه وممن يؤمنون به الذين هاجروا فيشعر أن هذا الرجل قد فرق العرب ولا يخفي إعجابه بصبر هؤلاء علىٰ البلاء الذي يلاقون، والاعتداء علىٰ رسول الله من أبي جهل أيضا

ووسط هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والبغي والطغيان مر أبو جهل برسول الله ﷺ يوما، وفي غمرة حماسته لدرء شبهة تأثير محمد عليه من قبل، رأىٰ رسول الله ﷺ عند الصفا فآذاه وسبه سبـًا شديداً ونال منه، ورسول الله ساكت ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه ﷺ فشج رأس رسول الله ﷺ حتىٰ نزف منه الدم.

١٧- إسلام حمزة بن عبد المطلب:

هو حمزة بن عبد المطلب في الثامنة والأربعين من عمره، وأمه هالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ومتزوج من سلمىٰ بنت عميس (أخت أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبي طالب في ذلك الوقت) وابنته عمارة بنت حمزة، وهو عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة فقد أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب التي كان قد أعتقها عند مولد رسول الله، وصديق طفولة رسول الله فقد كان يكبره بسنتين، هو أسد الله وسيد الشهداء بعد أن أسلم وكنيته أبو عمارة، كان يعلم بما يحدث من حوله ولكنه لم يكن يهتم أو يعبأ كثيراً بقضايا الإيمان بدين جديد أو الآلهة، فقد كان يخرج للوديان الفسيحة باحثا عن صيد يصيده ثم يعود لمكة، وفي المساء يشارك أصحابه عبث الحياة القرشية الماجنة، كان يعلم بما قرره أبو طالب من ضرورة حماية محمد من الكفار وهاله أن يلقىٰ أبا بكر ما لاقىٰ دفاعا عن محمد، فرجل مثل هذا لا تخطه المروءة أو الشهامة وفي مساء ذلك اليوم، وبعد فترة وجيزة من شج أبو جهل لرأس ابن أخيه محمد، عاد من رحلة صيده فسمع صوتـًا يناديه فلما نظر فإذا هي مولاة عبد الله بن جدعان تطلبه فذهب إليها فقالت:

يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفـًا من أبي الحكم بن هشام، فقد وجده جالسـًا فآذاه وسبه، وبلغ منه ما يكرهه.

ثم انصرف عنه ومحمد لم يكلمه، فأخذته النخوة وساءه أن يهان بن أخيه، فيُضرب ويُسب، ولا يجد من ينصره أو يعينه فغضب من أجله، ومن أجل ما أقره أبو طالب وعشيرته، فأخذته الغيرة علىٰ شرف بني هاشم، فخرج من فوره قاصداً أبي جهل الذي كان جالسـًا في الصفا مزهوا وكأنه يفخر بما فعل، فلما دخل حمزة إلىٰ المسجد نظر إليه جالسـًا في القوم، فأقبل نحوه حتىٰ قام علىٰ رأسه، ورفع قوسه فضربه بها علىٰ رأسه فشجها شجة منكرة وقال له:

أتشتمه، ؟ فأنا علىٰ دينه أقول ما يقول، فرد ذلك علي إن استطعت.

فقام رجال من بني مخزوم إلىٰ حمزة لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل:

دعوا أبا عمارة، فإني والله قد سببت ابن أخيه سبـًا قبيحـًا!

وكذلك قادت حميته في لحظة من لحظات الغضب أن يعلن إسلامه، وهو نادم علىٰ فراق دين آبائه وأجداده في ثورة غضب فليس من العقل أن يغادر المرء دين آبائه وأجداده من أجل سورة غضب، ويستقبل دينا جديداً لا يعرف عنه شيئـًا، فبات في شك عظيم فأتىٰ الكعبة وتضرع إلىٰ الله أن يشرح صدره للحق، ويذهب عنه الريب وغدا بعدها لرسول الله ﷺ يسأله عن الإسلام الذي دخله (شهامة) ودون أن يدري شيئـًا عنه

كان ذلك في ذي الحجة بالعام السادس من النبوة ولولا شهامته والدعوة الإسلامية التي بعثت كوامن العظمة فيه ما كنا قد سمعنا بحمزة رضي الله عنه وأرضاه، فسيد الشهداء لم نسمع عنه قائداً حربيـًا قبل الدعوة، ولم نعلم عنه مزية قد ميزته عن أقرانه في أي عمل قد كان به يقوم، اللهم إلا مزية القنص والصيد في الصحراء، وكأنه لم يخلق لزعامة في الجاهلية، فحمزة رغم مهابته لم يكن من أصحاب الطمع والاقتحام، ولا يندفع إلىٰ الغلبة والسلطان، ولكنه كان شهما شهامة هاشم

تبسم رسول الله ﷺ وشرح له أهداف وحقائق هذا الدين، وشرح الله هذا القلب النقي الجسور للإيمان، فكان أول من أعطىٰ المنعة المادية في المجتمع المكي لهذا الدين القويم بعد المنعة الأدبية التي منحها أبو طالب له، وأحست قريش بالخطر الداهم علىٰ مراكزهم

وحياتهم من إسلام حمزة صاحب الشخصية الطاغية والذي جمع إمكانات القوة الباطشة وملكات الفضيلة الكامنة فيه مع المنعة المادية والأدبية لهذا الدين، فأضاف الإسلام لحمزة ملكاته الكامنة وأضاف حمزة للإسلام رجلا يملك شروط الامتياز والتفرد في عرف التاريخ.

١٨- إسلام عمر بن الخطاب:

تحدثنا من قبل عن أولئك الذين ينحازون للوضع القائم ويحاربون من أجله وهم علىٰ اعتقاد راسخ بأنهم علىٰ صواب (وهم إن حاربوا الإيمان كانوا أشداء عليه وإن آمنوا صاروا أكثر شدة وفداء) ففي أكتوبر ٦١٦ م ذي الحجة بالعام السادس من النبوة وبعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة وقد كانت مكة لا تزال تعيش في صدمة إسلام حمزة والعداء يتعاظم يوماً بعد يوم لذلك التطور الحاسم، شعر عمر بن الخطاب الغيور علىٰ دين آبائه وكان في الخامسة والثلاثين والملتزم بما يلتزمه الناس من مراعاة للحرمات، وأحد صناديد قريش الأشداء، بأن علىٰ تلك الدعوة أن تنتهي اليوم قبل الغد وقد علم أن أخاه الأكبر منه زيد بن الخطاب قد أسلم، فعقد العزم علىٰ التخلص من محمد بالقتل فمحمد من منظور هذا الفذ خطر علىٰ ما يؤمن به من التزام بالمحرمات التي يقدسها وتقدسها قبيلته ومكانتها بين العرب أجمعين ومحمد هو السبب في فراق من فر إلىٰ الحبشة.

توشح عمر سيفه يريد قتل محمد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، عاقدا العزم علىٰ ذلك مهما كلفه ذلك من أمر، وفي طريقه لقيه قريبه نعيم بن عبد الله النحام العدوي [(١٩٤)] فقال له: أين تعمد يا عمر؟ قال عمر: أريد أن أقتل محمداً، فقال له: أفلا أدلك علىٰ العجب يا عمر، فإن أختك وختنك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، وبلغت تلك الكلمات كل مبلغ عند عمر فمشىٰ دامراً حتىٰ أتىٰ منزلهما وعندهما خباب بن الأرت يختلف إليهما ويقرئهما القرآن فسمع عمر همهمات القراءة، وسمع خباب صوت عمر وهو يطرق الباب عليهم فتوارىٰ خباب سريعا، وأخفت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، فلما دخل عمر عليهما قال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟ فقالا: ما عدا حديث تحدثناه، قال عمر:

(١٩٤)رواية ابن اسحق انظر بن هشام ١\٣٤٤

لعلكما قد صبوتما، فقال ختنه وابن عمه سعيد بن زيد بن عمرو بن النفيل: يا عمر أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟

فوثب عمر عليه وضربه ضرباً شديداً، فجاءت فاطمة ورفعت عمر عن زوجها فضربها عمر بيده، فأدمىٰ وجهها فقالت غضبىٰ:

نعم يا عمر إن الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله

رأىٰ عمر الدم ينزف من أخته، فندم واستحىٰ من أفعاله، وهاله ما سمع، وتذكر كل ما كان يسمع أو يلحظ علىٰ أولئك المسلمين، فراجع نفسه المفطورة علىٰ العدل وملك سورته فأراد أن يمارس ما هو مفطور عليه من العدل فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فاقرؤه.

قالت فاطمة: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم واغتسل.

قام عمر واغتسل، ثم أخذ الكتاب وقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال في نفسه: أسماء طيبة طاهرة.

وكانت سورة طه فقرأ في الآية الثامنة (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنىٰ) فعجب مما قرأ وكأن هذا الذي بين يديه يسمع ما بداخله ويحادثه، فتذكر من فوره ما كان من مفارقات شبيهة حينما سمع محمدا يتلو القرآن في جوف الليل عند الكعبة منذ شهور لما فر إلىٰ بيته فقد شعر وكأن في هذا القرآن حديث موجه له، والحقيقة أننا وحتىٰ يومنا هذا نقرأ كتاب الله بين الحين والآخر وتكون عقولنا منشغلة بأمورنا الحياتية فنجد الكلمات وكأنها موجهة لنا دون سوانا فيما نحن منشغلون به من أمور حياتنا، فنقسم أن قد قرأنا الآيات عشرات وربما مئات المرات من قبل ولم نلاحظها أو لم نفهم المعنىٰ إلا في تلك اللحظة وتلك هي إحدىٰ الدلالات في الإعجاز المستمر لأولي الألباب.

أما عمر فقد قرأ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قوله تعالىٰ (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني، وأقم الصلاة لذكري)

كانت تلك الآيات وكأنها دعوة كريمة من الله له فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه دلوني علىٰ محمد.

وصدق المولىٰ عز وجل إذ يقول «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه علىٰ كل شيء شهيد»

إن لهذا الفذ سمات قد ميزته في تاريخ الإنسانية فقل أن يتاح لأحد أن يكسب دعوىٰ للإنصاف علىٰ حسابه، فهو يكسب كل قضاياه الإنسانية إن كان للنقد الأمين مكانا في ميزان التحقق والتحقيق، فأشد أعدائه لا يبلغون القمة إن حاسبوه مثلما يبلغ القمة في محاسبة نفسه، فهذا الفذ قد أعيىٰ ناقديه بهذا النهج الفريد من محاسبة النفس إن كانوا لا يبتغون إلا إرضاء الحقيقة، والمنصف يرىٰ فيه الثراء كله إن كان البحث بميزان علم الأخلاق، فهو مفطور علىٰ العدل[١٩٥].

لما سمع خباب قول عمر خرج من مكمنه وقال لعمر: أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين عمر بن الخطاب أو بعمرو (أبا الحكم) بن هشام) ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا.

وقد يتساءل المرء، أبعد كل ما فعلا يتمنىٰ رسول الله ﷺ هدايتهما للحق فينعما بالإيمان والمغفرة؟، ولماذا يتمنىٰ هداية أحدهما، فالذي يطلب من الكريم يطلب هدايتهما معا، والاستنتاج الوحيد هو فيما أخبر به رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فقد قلنا من قبل أن الله تعالىٰ قد ترك لرسوله المختار التصرف باختياره الإنساني دون توجيه يومي أو لحظة بلحظة فيما ينبغي عليه القيام به، وذلك ما يميز عقلانية الدين الخاتم في مرحلة النضوج الإيماني للبشرية، وذلك بالتأكيد مرهون بمن اصطفىٰ للرسالة كقدوة للبشرية كما لا يمنع أن يخبره جل وعلا ببعض الخبر حسب مقتضيات الموقف ولهذا كان رسول الله يتمنىٰ هداية أحد العمرين ويطيل الدعاء لله بذلك ففيهما المنعة والقوة رغم ما كان قد بدر منهما فهي رغبة الرسول في سبيل النجاح للدعوة ولكن رسول الله لا يهدي من أحب والله يهدي من يشاء، وانطلق عمر إلىٰ دار الأرقم فطرق الباب فنظر رجل من المسلمين من الباب فرآه متوشحا سيفه فأخبر رسول الله وقال حمزة:

افتحوا الباب، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه.لما دخل عمر، خرج إليه رسول الله ﷺ فأخذ بمجامع ثوب عمر وحمائل سيفه وجذبه إليه

(١٩٥)من كتاب عبقرية عمر لعباس محمود العقاد

وقال: أما أنت منتهيـاً يا عمر حتىٰ ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة؟

قال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد(١٩٦)

كان عمر يعلم تماما أن أهل مكة كانوا إن علموا بإسلام رجل تعلقوا به فضربوه وضربهم، فلما خرج من عند رسول الله ﷺ ذهب إلىٰ بيت خاله العاصي بن هاشم وأعلمه، فدخل خاله البيت تاركا عمر لمصيره، ثم ذهب لأبي جهل وطرق عليه بابه فأعلمه فدخل أبو جهل بيته، ثم أراد أن يواجه أهل مكة جميعـًا فذهب إلىٰ جميل بن معمر الجمحي – وكان أنقل قريش لحديث– فأخبره بإسلامه فنادىٰ جميل بأعلىٰ صوته أن عمر بن الخطاب قد صبأ، وعمر من خلفه يقول: كذبت، ولكني أسلمت، فثار إليه جمع من الرجال فمازال يقاتلهم ويقاتلونه حتىٰ قامت الشمس علىٰ رؤوسهم فأعيا عمر وقال: افعلوا ما بدا لكم فوالله لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. (١٩٧)

بعد هذا الاختبار قال لرسول الله: يا رسول الله ألسنا علىٰ الحق إن متنا أو حيينا؟

قال رسول الله: بلىٰ والذي نفسي بيده، إنكم علىٰ الحق إن متم وإن حييتم

قال عمر: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن،

فخرج المسلمون في صفين حمزة علىٰ أحدهما، وعمر علىٰ الآخر حتىٰ دخلوا المسجد فنظرت إليهما قريش وأصابتهم الكآبة وكان ذلك الحدث هو ما ميز عمر صاحب الجرأة والإقدام وتوالت اقتراحات عمر لرسول الله فأسماه رسول الله ﷺ (الفاروق) وبعد سنوات من اسلامه قال عنه رسول الله ﷺ (لم أرىٰ عبقريـًا يفري فريه) فعمر شأنه شأن حمزة رضي الله عنهما، فهما وليدا الدعوة الإسلامية، وكذلك كان شأن العديدين من الصحابة، فالدعوة قد نقبت فيهما وفي العديدين من أجلاء الصحابة ملكات الفضيلة، وإن كنا في عصرنا الحالي نلحظ ما كسبته الدعوة من إسلامهما، فقد كان أصحاب إمكانات القوة من أئمة الكفر والجاهلية يعلمون تمامـًا ما فقدوه منها، وكان الخوف يدور حول ما إن

(١٩٦)تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧، ١٠، ١١ ومختصر سيرة الرسول ص ١٠٢ –١٠٣، ابن هشام ٣٤٣

(١٩٧)تاريخ عمر بن الخطاب ص، ابن هشام ٣٤٨، ٣٤٩

استمر الحال علىٰ ما هو عليه لملكت الدعوة ملكات الفضيلة وإمكانات القوة معـًا، وهو ما قد قض المضاجع عليهم، ورأت قريش إن محمدا لا يعدم وسيلة في سبيل ما هو مقدم عليه لنشر دعوته، فالأحداث كلها تثبت لهم التنامي والثبات رغم كل شيء فيرتحل أصحابه عن الوطن ولا يبالون بفراق الأهل والعشيرة، وها قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا واستقرارا، وأتباعه في ازدياد يوما بعد يوم، ولقد أصابت حمىٰ الإسلام كل بيت حتىٰ بيوت أشد المناوئين، ومحمد يرفض أي مساومة، ويجذب إليه حمزة ثم يجذب إليه عمر بن الخطاب، فاجتمعت قريش لبحث فيما يفعلونه في هذه الأمور فاستقروا مبدئيًا علىٰ أن يرسلوا إلىٰ النجاشي ليرد من عنده من المهاجرين لأرض الحبشة إليهم.

١٩- وفد قريش للنجاشي ملك الحبشة:

جاء وفد قريش والعالم المسيحي في خطر بالغ كما ذكرنا، وقرع أبو بكر بهزيمة المسيحيين فراهنه أبو بكر بعدما اشتكىٰ للنبي فبشر الله نبيه بانتصار المسيحيين في بضع سنين ونزلت سورة الروم.

ففي العام السابع للنبوة (٦١٧ م) عقب غزو الفرس لمصر وقتل عدد من أقباطها أرسلت قريش عبد الله بن أبي أمية وعمرو بن العاص ليكونا سفيرين إلىٰ النجاشي أصحمة بن الأبجر، وجمعوا لهما الهدايا له ولبطارقته، ولما قدما عليه لم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هدية قبل أن يدخلا للنجاشي فيكلمانه في أمر المهاجرين وقد قبلوا الهدايا كما قبلها النجاشي، ولما دخلا إليه سجدا بين يديه كعادة أهل البلاد معه فقالا له:

(أيها الملك، إنه قد ضوىٰ إلىٰ بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه لا نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم، فهم أعلىٰ بهم عينـًا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه) فقالت بطارقته حوله (صدقا أيهلا الملك، قومهم أعلىٰ بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلىٰ بلادهم وقومهم) قال النجاشي غاضبا

(لا والله لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني علىٰ من سواي، حتىٰ أدعوهم، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان

أسلمتهم، ورددتهم إلىٰ قومهم، وإن كانوا علىٰ غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني)

لم يكن ذلك من النجاشي إلا موقفا مبدئيا تحدده تبعات العدل والإنصاف، فليس من العدل السماع من جانب واحد في قضية تتعلق باختلاف الدين أول المذهب أو الاعتقاد تسليمهم، وكذلك بما تمليه عليه واجبات العدل كما يفهمها أي منصف، ولكن ذلك الموقف العادل قد أدىٰ به فيما بعد إلىٰ حسم قضية جدلية كانت منتشرة في أرجاء العالم المسيحي منذ ثلاثة قرون، وتتعلق تلك القضية الجدلية بطبيعة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام كما ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب وكذلك بين صفحات هذا الجزء، هذا وإن كان النجاشي لم يكن يبحث -حينما اتخذ قراره بالسماع من الطرف الآخر- لم يكن يبحث أو يظن أنه سوف يستمع إلىٰ حسم لهذه القضية، فأرسل النجاشي إلىٰ أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم وعلموا بما هو مراد منهم، فوجلوا واجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟

قال قائل منهم: نقول ما علمنا، وما أمرنا به نبينا كائن في ذلك ما هو كائن.

فلما جاؤوا، دخلوا عليه ولم يسجدوا له فقال النجاشي: ما منعكم أن تسجدوا لي؟

قالوا: إنما نسجد لله الذي خلقنا وخلقك وملكك، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان، فبعث الله فينا نبياً صادقا، وأمرنا بالتحية التي رضيها الله وهي السلام، تحية أهل الجنة.

سألهم النجاشي: وما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فرد عليه جعفر بن أبي طالب (وكان أشبه الناس خلقة وخلقاً برسول الله) وقال:

أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا علىٰ ذلك حتىٰ بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته، فدعانا إلىٰ الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول

الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا ألا نعبد إلا الله وحده لا شريك له وأمرنا بالصلاة والصيام...

وجعل يعدد عليه أمور الإسلام، وقال: فصدقناه وآمنا به؛ فاتبعناه علىٰ ما جاء به من عند الله، وحرمنا ما حُرم علينا وأحللنا ما أحُل لنا، فعدا علينا قومنا؛ فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلىٰ عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلىٰ بلادك، واخترناك علىٰ من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك، استرعىٰ ما قاله جعفر انتباه النجاشي، إذ كان يعلم بوثنية أولئك العرب وجاهليتهم، وحسب أن ما يذكره جعفر عمن يقود تفكيرهم لابد وأن يكون مفكراً فذاً حتىٰ وإن لم يكن نبيا مرسلا من الله، فأراد أن يطلع أكثر علىٰ فكر هذا الرجل الذي يقود أولئك العرب إلي نبذ الأصنام، فهي خطوة لا بأس بها في سبيل إيمانهم بالمسيحية، وأراد أن يتحقق فضرب الناقوس، فاجتمع إليه كل قسيس وراهب، وسألهم:

أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل علىٰ عيسىٰ فهل تجدون بين عيسىٰ وبين يوم القيامة نبيًا؟ قالوا: اللهم نعم قد بشرنا به عيسىٰ فقال له: هل معك مما جاء به نبيكم من شيء؟ قال حمزة: نعم فقال النجاشي: فاقرأه علي

فقرأ جعفر ما تيسر له من سورتي العنكبوت والروم، والحقيقة أن اختيار جعفر لسورة الروم كان اختياراً موفقًا، ففيها بشرىٰ بنصر المسيحية علىٰ المجوسية وكانت لتلك البشرىٰ فضل عظيم إذ فاضت عينا النجاشي بالدمع وقال: زدنا من هذا الحديث فقرأ عليه جعفر ما تيسر له من سورة الكهف، فبكىٰ النجاشي حتىٰ أخضلت لحيته وبكت أساقفته حين سمعوا ما تلا عليهم جعفر من القرآن، قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسىٰ ليخرج من مشكاة واحدة.

ثم قال لعمرو بن العاص ولعبد الله بن أبي ربيعة: انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً، فخرجوا من عنده سالمين، يهنئون بعضهم بعضًا، إلا أن داهية العرب عمرو بن العاص قال (والله لآتينه غداً عنه بما استأصل به خضراءهم، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسىٰ بن مريم عبد) كان من شأن ذلك قتلهم ربما، فقال له عبد الله بن أبي أمية (لا نفعل، فإن لهم أرحامًا وإن كانوا قد خالفونا) لكن عمرو بن العاص لم يرض بالهزيمة وغدا في اليوم التالي فقال للنجاشي:

إنهم يشتمون عيسىٰ بن مريم ويقولون عنه أنه عبد، ويقولون عليه وعلىٰ أمه قولاً عظيماً، فاستشاط النجاشي غضباً وأمر باستدعائهم علىٰ الفور، وشعر بأن ما قاله مسبقاً عن خروج ما يقوله محمد والمسيح من مشكاة واحدة ربما كان تسرعًا، فأراد أن يحسم هذا باستدعائهم وسؤالهم، وحضر المسلمون، ولما دخلوا قال لهم بحدة: ماذا تقولون في عيسىٰ بن مريم؟ قال جعفر: نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ هو عبد الله ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول، كان كل ما قيل يوافق الأناجيل الأربعة ما عدا كونه عبد الله ورسوله، فقد كانت المسيحية آن ذاك علىٰ فرق متناحرة في هذه الجزئية، ولم يستطع أحد لهذا الاختلاف حسماً، وحسم جعفر حيرة النجاشي بأن تلىٰ عليه من أول الآية رقم ١٦ سورة مريم حتىٰ قوله تعالىٰ:

«فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً، قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً، وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً»[(١٩٨)]

ولما أنهىٰ جعفر رضي الله عنه ما قرأ من آيات القرآن فاضت عيون النجاشي والبطارقة من الدمع، ووجد النجاشي أن ما أتىٰ به عمرو وعبد الله بن ربيعة من هدايا ليست إلا رشوة، فضرب النجاشي بيده علىٰ الأرض فأخذ منها عوداً وقال (والله ما عدا عيسىٰ بن مريم وما قلت هذا العود) [(١٩٩)]

فتناخر البطارقة حوله يحتجون عليه فقال لهم (وإن نخرتم والله) ثم التفت إلىٰ المسلمين ووجه كلامه لهم وقال (اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ومن سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجلا منكم) ثم توجه للبطارقة وقال لهم (ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي [(٢٠٠)] ، فآخذ الرشوة فيه وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه) [(٢٠١)]

---

(١٩٨)سورة مريم الآيات من ٢٩ إلىٰ٣٣

(١٩٩)سيرة بن هشام ج ١ص ٣٦١ البداية والنهاية ابن كثير ٣ ص٧١ الروض الأنف ج ٣ ص ٢٤٧

(٢٠٠)كان عرش النجاشي أصحمة بن أبجر قد سلب منه وأعطي لعمة وأخذ وهو طفل فبيع في جزيرة العرب فرعىٰ الغنم وتعلم العربية ولما مات عمه وجدوا ابناء ه لا يصلحون لحكم فذهبوا للجزيرة العربية بحثا عن أصحمة واتوه من جديد وأعادوا عرشه له

(٢٠١)سيرة بن هشام الروض الأنف

وأنزل الله تعالىٰ الآية رقم ٨٢ – ٨٤ من سورة المائدة وفيها:

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارىٰ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أنزل إلىٰ الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين)

بعدما استمع النجاشي والبطارقة للقرآن كانت الصورة قد وضحت للنجاشي تماماً، إذ جاء القرآن بحسم لقضية آريوس والنسطوريين اللذان لم يؤمنا بألوهية المسيح، أو بالإله الثلاثي وما المسيح إلا نبي قد خلت من قبله الرسل، وانتشرت هذه الدعوة وخاصة بين رجال الدين، إذ جاءت ردا علىٰ تهكمات الوثنيين علىٰ المسيحية، الذين لم يروا في الدين الجديد (المسيحية وقتها) إلا تقليد الديانات الوثنية، وأحرزت الآريوسية انتصارات عديدة مؤزرة في الأوساط الشعبية لدىٰ من آمن بالمسيحية في أوروبا ومصر وسوريا وشمال إفريقيا والحبشة وكل العالم المسيحي من القرن الرابع الميلادي حتىٰ القرن السابع في زمن هذه الحادثة، ولكن بطارقة الحبشة كانوا ضد الآريوسية والنسطورية.

مرت السنون، ولما مات النجاشي أصحمة بن الأبجر بعد هجرة النبي إلىٰ المدينة بتسعه أعوام وكان النجاشي قد أسلم في السنة السابعة من الهجرة فخرج رسول الله ﷺ إلىٰ البقيع الذي أبلغه جبريل بموت النجاشي فكبر أربع تكبيرات واستغفر له وقال لأصحابه (استغفروا له) وأنزل الله تعالىٰ الآية رقم ١٩٩ من سورة آل عمران وفيها، «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب» وكان جعفر بذلك سفيراً قد أجاد دون سابق إعداد لسفارته بصدقه وبعفوية المؤمن ومصداقية ملكات الفضيلة، فكذلك دأب المسلم، فحينما يفاجأ لا يحتاج لأي إعداد إن كان صادق الإيمان، ففاق جعفر داهية العرب عمرو بن العاص بكل ما أوتي من دهاء والذي أعد عدته بقوة ومال ومصالح قريش التجارية مع الحبشة وجلب معه الرشا بإمكانات القوة والدهاء والمال.

الفصل السادس

الإسراء والمعراج

(من المقاطعة للهجرة إلى يثرب)

من شهر المحرم بالعام السابع من النبوة

حتى الأول من ربيع الأول سنة اثنتي عشر منها



شبه الجزيرة العربية الشكل (٣٣)

الفصل السادس

الإسراء

(من المقاطعة للهجرة إلى يثرب)

١- المقاطعة

عادت سفارة قريش بخفي حنين عودة خائبة محملة بالرشا التي خرجت بها، وبعار الصد ومعيبة الرشا والفشل فيه، ووجد المشركون أن لا فائدة من الحديث إلىٰ محمد عليه الصلاة والسلام الذي يعاندهم كما يظنون، فهو علىٰ عهد لا يَمَّكِنهم من الحديث معه أو إليه في شأن من شئون ذلك الذي يدعو له، أو الحديث إلىٰ أبي طالب الذي يمنع القوم عنه فهو حاميه مروءة، وهو سيد قومه والمطاع بينهم، وبه اجتمع آل هاشم –مؤمنهم وكافرهم– علىٰ المنع عن رسول الله ﷺ والدفاع عنه وسط إعجاب مستتر، وقد أدىٰ ذلك المنع والإعجاب المستتر إلىٰ إيمان العديدين من آل هاشم إذ كان إسلام حمزة حدثا فارقا في مكة فكان بإسلامه نصرة لمحمد وإضافة لمركز الدعوة وعضضًا، ولم يلبث أن آمن عمر بن الخطاب أيضا من خارج آل هاشم فصار الأمر ينذر بأخطار لم تعهدها قريش، وبالأخص بعد فشل سفارتهم بعمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلىٰ النجاشي أحد أبرز حلفاء قريش الدوليين والتجاريين، اجتمعت قريش لترىٰ حلا يجبر آل هاشم ومن علىٰ رأسهم لتسليم محمد ﷺ دون الدخول في حرب أهلية، فمن جانب كان عدد المسلمين في ازدياد؛ ومن جانب آخر بعد مؤازرة النجاشي وإسلام حمزة وعمر، وإن كان ما نعلمه من أن عمر قد قال عقب إسلامه (افعلوا ما بدا لكم فوالله لو كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا) وتلك مقولة تنذر بحرب أهلية إذ كان:

- من هاجر من المسلمين في الهجرة الأولىٰ للحبشة قد بلغوا اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، وفي الهجرة الثانية للحبشة قد هاجر ثلاثة وثمانون رجلاً وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة.

- لما أسلم عمر كان ترتيبه الأربعين من أحرار الرجال والذي تسبب بإسلامه إلىٰ زيادة عدد المؤمنين، ناهينا عن العبيد والإماء والنساء والأطفال والذي قد يرفع العدد إلىٰ أكثر من مائة أو يزيدون.
- آل هاشم وآل عبد المطلب ممن لم يؤمنوا لا يقلون عن المائتي رجل غير النساء والعبيد والإماء والصبية.

فهم إذن أمام احتمالات حرب أهلية تقطع الأرحام وقد يطول مداها، والنجاشي لا يُعرف بالتحديد موقفه، فترىٰ هل لا يتعد الحماية فيُحَيّد، أم أنه قد دخل الإيمان فينصر، إذن فلا سبيل أمام قريش إلا الحصار، فاجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المحصب وتحالفوا علىٰ بني هاشم وبنىٰ عبد المطلب وكتبوا بذلك صحيفة أودعوها جوف الكعبة تبدأ كالتالي، (بسمك اللهم) وكان كاتب وثيقة المقاطعة منصور بن عكرمة بن عامر أو نضر بن الحارث أو بغيض بن عامر [(٢٠٢)]

كان فحوىٰ الوثيقة هو ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم حتىٰ يسلموا إليهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وبعد انتهاء موسم الحج حاصروهم في شُعب مملوكة لأبي طالب، ليلة هلال المحرم سنة سبع للبعثة ٦١٦ م، شددوا عليهم الحصار وقطعوا عنهم الميرة والمادة والمدد، بالغوا في العداء فلم يكن المشركون يتركون طعامـاً داخلا إليهم إلا بادروا بشرائه ولم تصمد ماشية المحاصرين ودوابهم التي جلبوها معهم إلا فترة يسيرة، فأكلوا أوراق الشجر وجلود الذبائح، وهم مع ذلك لا يفتنون ويعضون علىٰ دينهم بالنواجذ، فكان يسمع من وراء الشُعَب أصوات نسائهم وصبيانهم والرضع يتضاغنون من الجوع، فيشدون الأحجار إلىٰ بطونهم، ولم تشفع لهم أرحامهم ولا أنسابهم، وكانوا حتىٰ إن أرادوا إرسال قوافلهم بأموالهم لشراء ما يريدونه من طعام يرد المشركون هذه القوافل إليهم، ولم يسجل التاريخ ارتداد أي منهم عن دينه، ولا سجل خيانة أي من آل هاشم أو آل عبد المطلب لأمانات الصبر والصمود رغم عدم إيمانهم، ليس هذا فحسب وإنما اشتدوا علىٰ من أسلم ولم يدخل الشُعب، فاوثقوهم، وعظمت عليهم الفتنة وزلزلوا زلزالاً شديداً.

(٢٠٢) زاد المعاد لابن القيم الجوزي ٢\٤٦

كان أبو طالب وقد تعدىٰ الثانية والثمانين من العمر معهم يعاني ما يعانون، ويصبر علىٰ ما يصبرون، وكانت خديجة رضي الله عنها وأرضاها وقد تعدت الثانية والستين في بداية الحصار صابرة مستسلمة، فخسرت الكثير من مالها في شراء اليسير من الطعام بأضعاف أضعاف ثمنه، وكذلك فعل كل ذي مال منهم وما بدلوا تبديلا، واستمر الحصار شهراً بعد شهر، وسنة بعد أخرىٰ، كان أبو طالب رغم كل شيء إذا أخذ الناس مضاجعهم، أمر رسول الله ﷺ أن يضطجع علىٰ فراشه، حتىٰ يرىٰ ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع علىٰ فراش رسول الله ﷺ بدلا منه فلا يزال أبو طالب يمارس أبوته لابن أخيه الذي تعدىٰ عليه الصلاة والسلام السابعة والأربعين.

كانت هنالك بعض المحاولات التي لاقت نجاحاً من آن لآخر سدت بعض الرمق سراً وقد أبت شهامة البعض من المشركين إلا أن يخالفوا الحصار، فقد كان حكيم بن خزام يحمل القمح سراً إلىٰ عمته خديجة رضي الله عنها، وقد دأب علىٰ ذلك منذ اشتداد الحصار، وصحيح أن حمولات القمح كانت بأضعاف الثمن مما أفقد خديجة رضي الله مالها، إلا أنها كانت تسد الكثير من الرمق للمسلمين آن ذاك، ولما تكررت تلك الحمولات وعرفت قريش بما يدور، قد ترصد القافلة أبو جهل بن هشام، فأمسك بحكيم بن خزام وتعلق به ليمنعه، فما كان من أحد القرشيين الكفار ممن تؤرقهم انهيار الشهامة والمروءة (وهو أبو البختري) أن تدخل، ومكن حكيما من أن يحمل القمح إلىٰ عمته، وكان أيضا هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي يصل بني هاشم سراً في شعب أبا طالب مستخفياً ليلا بالطعام، يُعجب المرء منا بهذا الصمود أيما إعجاب، إلا أننا نعلم يقيناً أن ذلك الإعجاب إنما هو إعجاب نبديه بمن صبروا فانتصروا في نهاية المطاف، إلا أن أولئك الذين آمنوا وإن كانوا في ذلك الوقت علىٰ يقين بما يؤمنون أنه الحق، إلا أنهم لم يكونوا يعلمون بما ستأتي به الأيام المقبلة من نصرة الله لهم في نهاية المطاف، يرون أقرانهم يعانون مثلهم، فمنهم من كان يستشهد أمام أعينهم في سبيل عقيدة آمن بها، ومنهم من كان يتضور فكان الصبر علىٰ الفتنة والابتلاء صبراً من أجل الحق خالصاً، ولا مزية من ورائه، لم يعطهم رسول الله مناصب أو أموال أو إباحة لشهوات محرمة، بل تكليف بعبادات، ولم يستطع أن يمنع عنهم الأذىٰ اللهم إلا بشراء العبيد بعدما لاقوا العذاب وفقدوا الأحبة أعطاهم النصح تارة بالهجرة إلىٰ خارج الجزيرة العربية وبالصبر تارات، لا تؤيده معجزات حسية أو هبات مادية

من الله، لا يملك عليهم زعامة ولا سلطة قانونية أو مادية بل هي سلطة روحية صرفة، لم يعطهم إلا كلمات وجمل وحكم من عند الله هي آيات تتنزل عليه من السماء ولم يروا جبريلا ولم يطلبوا من رسول الله رؤيته، كانوا وبلا استثناء يخسرون ما كانوا عليه من أمان وأهل لم يؤمنوا بعد، عادىٰ أغلبهم الابناء والأزواج والآباء والأمهات والأشقاء والأصحاب، وحرموا جميعا حتىٰ من بيوتهم الآمنة فينام الشريف مع العبد في العراء بحصارهم في شُعاب مكة حتىٰ الماء والطعام كان عزيزا، تعطلت تجارتهم ومصالحهم وأصاب الأغنياء منهم العوز، ولكنهم رغم كل ذلك صدقوا ما عاهدوا الله عليه وما بدلوا تبديلا، فكيف لرسول الله ذلك وهو عليه الصلاة والسلام لا يملك عليهم إلا سلطة روحية اختيارية، إن خالفوها لم يصبهم عقاب؟ والإجابة تصبح دائماً في معجزة الله فيه.

أما أم المؤمنين خديجة بنت خويلد والتي كانت من أجمل وأثرىٰ نساء مكة، فقد لاقت من المشقة مثلهم، وهي من كانت مصونة في الجاهلية بمالها ومال آبائها وأزواجها وعزوة قبيلتها، قد صارت في مشقة وكبد، فأنهكتها تبعات الإيمان وما بدلت تبديلا وكانت قد قاربت بعد سنوات الحصار علىٰ الخامسة والستين ودنت من الإفلاس.

لم يكن أبو طالب بن عبد المطلب أحسن حالاً من خديجة رضي الله عنها وأرضاها، فقد كان قد تعدىٰ الخامسة والثمانين، وعلىٰ حافة الإفلاس، إلا أن صموده كان بدواعي الأبوة والمروءة، ففقد الجائزة الكبرىٰ.

٢- انتهاء المقاطعة ونقد الوثيقة:

كان ذلك الوضع غريباً علىٰ أخلاق العرب، يتعارض مع ما عُرف عنهم من سمات النخوة والشهامة وخاصة حينما يسمع الرجل منهم من وراء الشُعَب أصوات نساء وصبيان، ورُضّع بني هاشم من المسلمين وغير المسلمين يتضاغنون من الجوع ويشدون الأحجار إلىٰ بطونهم لدرء الإحساس به، كان شعورهم بالعار يؤرقهم.

قرر هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي أن يفعل شيئا في هذا الأمر فذهب إلىٰ من يعلم برفضهم ذلك العار فبدأ بزهير بن أبي أمية المخزومي -وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب وهي عمة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم- وقال هشام لزهير: يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث

تعلم؟، فاستنفر النخوة فيه فقال زهير: ويحك ! فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، وكرر هشام ما فعله وكان رد كل من توسم فيهم المروءة والشهامة كرد زهير، وهكذا انضم إليهما المطعم بن عدي، ثم أبو البختري بن هشام، فزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فاجتمعوا عند الحجون وتعاهد الخمسة علىٰ أن يبدأوا علىٰ العمل في نقض صحيفة المقاطعة من الغد علىٰ أن يبدأ زهير الحديث فيكون أول من يتكلم.

في تلك الليلة أُخبر رسول الله ﷺ أن الله قد بعث علىٰ صحيفة المقاطعة الأرضة (٢٠٣) فلم تترك اسماً لله إلا لحسته، وبقي ما في الصحيفة من شرك وظلم وقطيعة وجملة (بسمك اللهم) وفي اليوم التالي ذكر رسول الله ﷺ ذلك لأبي طالب ما أُخبر فقال له مصدقاً: لا والثواقب ما كذبتني، وانطلق أبو طالب يمشي بمجموعة من بني عبد المطلب متوجهاً إلىٰ المسجد وهو حافل من قريش.

كان زهير بن أبي أمية المخزومي قد أقبل علىٰ الناس ومعه الأربعة الذين اتفق معهم فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكىٰ، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتىٰ تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، صرخ أبو جهل: كذبت والله لا تشق

قال زمعة: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت.

قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضىٰ ما كتب فيها ولا نُقر بهِ.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ الله منها ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحو ذلك.

صاح أبو جهل غاضباً: هذا أمر قضي بليل قد تشاوروا فيه بغير هذا المكان.

كان أبو طالب قد أتىٰ ومعه مجموعة من آل عبد المطلب، فلما رأوهم ظن من بالمسجد أنهم قد حضروا من شدة الحصار وقد أتو ليسلموهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وتكلم أبو طالب فقال:

قد حدث أمراً، لعله أن يكون بيننا وبينكم صلحا، فأتوا بصحيفتكم.

(٢٠٣) وهي دودة بيضاء تشبه النملة (تاج العروس – مختصر سيرة بن هشام للتميمي)

حبس الناس أنفاسهم وفرح أبو جهل، فها هو كبير آل عبد المطلب وهاشم وقد استسلم فيطلب الصحيفة ويسلمهم ابن أخيه ليخرج من مشقة الحصار، وقالوا: قد آن لكم أن تفيئوا وترجعوا خطراً لهلكة قومكم.

والحقيقة أن الصحيفة كانت مطوية ومحفوظة في جوف الكعبة، فإن قال لهم ما عنده ثم طلبها ربما أبوا الأتيان بها بعدما ينظرون إليها، وأتوا بها سعداء ومعجبين، وقبل أن تفتح قال لهم أبو طالب:

لأعطينكم أمراً فيه نصف، إن ابني قد أخبرني _ولم يكذبني_ أن الله برئ من هذه الصحيفة التي في أيديكم، وأنه محا كل اسم له فيها، وترك غدركم، وقطيعتكم، فإن كان ما قال حقـًا، فوالله لا نسلمه إليكم حتىٰ نموت عن آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحييتم.

بالطبع فرح الكفار بما قاله أبو طالب، فقد قرب الخلاص من محمد وهم عازمون علىٰ ألا يستحوا، فقالوا: رضينا فقد أنصفت.

فتحوا الصحيفة ووجدوها كما أُخبر محمد ﷺ من الله، فقال المشركون: هذا سحر من صاحبكم، وتم نقض الصحيفة في شهر المحرم من السنة العاشرة للنبوة بعد ثلاث سنوات كاملة.

خرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب، ونجح المسلمون في الاختبار ونجوا من الفتنة، وكانت تلك الفتنة واحدة من الفتن الصغرىٰ قياسا لما يجب عليهم مواجهته، وصدق الله العظيم الذي يقول لهم (أفحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) فبعض الناس _وربما حتىٰ اليوم_ يظنون أن للإيمان مردود مادي وفوري، والحقيقة غير ذلك تمامـًا، أما ما يناله المؤمن فهو حلاوة الإيمان فحسب وهي في حد ذاتها نعمة لا يقدرها إلا أولو الألباب، وقد كان أغلب الرعيل الأول كذلك، وكيف لا يكونون ورسول الله بمعجزاته الأخلاقية بين ظهرانيهم، إن الله جل وعلا _وخاصة في بداية الدعوة_ وكأنه سبحانه وتعالىٰ عن التشبيه، ينتقي المؤمنين الذين يحيطون برسوله صلىٰ الله عليه وسلم، فيجري لهم المولىٰ اختبار صلاحية للتأكيد علىٰ اختيار الرعيل الأول المختبر والصالح والمدرب علىٰ حمل الأمانة باقتدار، ولن تتوقف المحن والابتلاءات عليهم، فيختبر الله

إيمانهم ويقوم رسول الله ﷺ بالخروج بهم من المحن والابتلاءات واحدة بعد الأخرىٰ، حتىٰ إذا ما انتهت حياته ﷺ بينهم يكونون قد تعلموا مما علمهم الرسول من الصبر في فن الخروج من الأزمات والفتن فيمارسون الصمود الذي تعلموه منه صلىٰ الله عليه وسلم.

٣- عام الحزن (وفاة أبا طالب وخديجة):

خرج بنو هاشم وخرج المسلمون من الشُعب وخالطوا الناس من جديد في سنة عشر من النبوة، وانزاحت الغمة، وعاد رسول الله ﷺ من جديد يذيع دعوته في مكة وفي القبائل التي تجيئ إليها في الأشهر الحرم، وعاد أمر الدعوة يشتد بين القبائل، وعاد أصحابه لا يسلمون من إيذاء قريش، وهو عاجز عن منع الإيذاء ومضت الشهور علىٰ هذا الوضع، وكان التربص برسول الله من المشركين ظاهراً،

وفاة أبا طالب

في شهر رجب من السنة العاشرة للنبوة، ألح المرض علىٰ أبىٰ طالب بعد الخروج من الشعب بسبعة أشهر تقريباً وتوفي، لما حضرته الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ وكان يعوده أبو جهل وعبد الله بن أمية فكانا عنده، فجلس رسول الله إليه وقال له: أي عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله، قال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وجعلا يكلماه حتىٰ قال: علىٰ ملة عبد المطلب، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، ومات بعدها أبو طالب عم رسول الله وحاميه علىٰ شركه، حزن – كإنسان – رسول الله ﷺ علىٰ عمه وأبيه البديل، وحزن أكثر وأكثر – كنبي – علىٰ شرك وإخفاق أبو طالب في الالتحاق بركب المؤمنين وجعل يستغفر له ويستغفر له المؤمنون فأنزل الله جل وعلا (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربىٰ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) (٢٠٤) لا وساطة ولا مجاملة،

فحزن رسول الله أكثر وأكثر عليه، فقد أحبه وأحب أن ينعم الله عليه بالمغفرة بعدما جاهد معه وله أبو طالب، إلا أن أبا طالب كان قد جاهد وصبر دفاعا عن قيم الشهامة

(٢٠٤)التوبة ١١٣&١١٤

والنخوة ومسؤوليات الرهط والعشيرة والأبوة، وأخفق في الالتحاق بركب الإيمان، وكان يعلم بصدق ابن أخيه، فكل مواقفه وكلماته دلت على ذلك منذ دعاه رسول الله للإيمان أول مرة وحتى أبلغه بأمر الأرضة التي محت ما محت من صحيفة المقاطعة، حتى أن أبا طالب يقول (إن ابني قد أخبرني - ولم يكذبني – أن الله بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، وأنه محا كل اسم له فيها، وترك غدركم، وقطيعتكم) إذن فهو على يقين بصدق محمد ولكن أبا طالب قد أغلب ميراث الآباء والأجداد على الحق، ففاق حزنه ﷺ على ذلك كل مبلغ، ولكن هل يهدي رسول الله من يحب فنزلت (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) (٢٠٥)

كفر أبو إبراهيم، وابن نوح، زوجة نوح عليهم السلام وكذلك معظم أعمام رسول الله، وعجز كل أولئك الأنبياء عليهم السلام عن هداية من أحبوا، فلا وساطة في الإيمان ولا مجاملة من الله فيه مهما حاول الأنبياء والرسل

وفاة خديجة رضي الله عنها

بعد مدة وجيزة (٢٠٦)ماتت خديجة بنت خويلد حبيبته وملاذه، نصيرته وتحنانه، حاميته وزاده، أول من آمنت به وثبتته، وهي من عوضته حنان الأم، والوحيدة التي منحته الولد والبنت، رفيقة الكفاح والإيمان، ماتت فاشتد عليه البلاء كإنسان، وما كان رسول الله ﷺ إلا رجل مثلنا قد اختاره الله واصطفاه ليكون لنا قدوة، يشعر كما نشعر، ويحب كما نحب، يغضب كما نغضب ويفرح كما نفرح، يتعب كما نتعب ويمرض كما نمرض ويبكي كما نبكي ويضحك كما نضحك، هو بشر فيه كل ما في البشرية من مشاعر، فيحزن ويحزن ويحزن على فراق شبيهه الأب في الحماية وشبيهة الأم في التحنان،

هو عام الحزن بجدارة إذن، هو عام الألم الشخصي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، هو عام المحنة والإحن، هو عام الابتلاء الشخصي لرسول الله، وهو عام الصبر الذي ميز الأنبياء، والثبات الذي تعوده رسول الله، وهي الحياة التي اختارها الله له وهو المثل المُحتذى وهو الرضا واكتمال الخُلق الذي عليه رسول الله، قدوة العالمين.

(٢٠٥)ا القصص ٥٦

(٢٠٦)بضعة أسابيع

لما ألمت برسول الله هاتان المصيبتان لزم عليه الصلاة والسلام بيته ولما بلغ ذلك أبا لهب، أشفق علىٰ بن أخيه، وكان قد تولىٰ مكانة أبي طالب فجاءه وقال له: يا محمد امض لما أردت وما كنت صانعا إذ كان أبوطالب حياً فاصنعه، لا واللات لا يوصل إليك حتىٰ أموت.

٤- الصدق والأمانة وراء عودة الإيذاء لرسول الله وللمؤمنين:

مثل أبو لهب بمقولته الأخيرة قمة المروءة والشهامة الجديدة عليه، فسعد به رسول الله ﷺ، ولم لا، فأبي لهب شقيق أباه عبد الله وشقيق حاميه أبو طالب، وأبو لهب هو من أعتق جاريته ثويبة الأسلمية التي جاءته بالبشرىٰ حبا لأخيه الفقيد عبد الله حينما ولد محمد، ولم لا فقد تقوده مروءته وشهامته إلىٰ تقبل ما جاء به الله.

استمر رسول الله في التبشير بالدين وخرج من عزلته، وفي يوم من الأيام سب أبو الغليطة وهو أحد المشركين رسول الله ﷺ علانية فسمعه أبو لهب فأقبل عليه أبو لهب فنال منه، فولىٰ أبو الغليطة وهو يصيح: يا معشر قريش صبا أبو عتبة ! فأقبلت قريش حتىٰ وقفت علىٰ أبي لهب فقال:

ما فارقت دين عبد المطلب ولكني أمنع ابن أخي أن يضام حتىٰ يمضي لما يريد.

كان موقفه مبدئياً قد مارسه أبو طالب من قبل وقبلت به قريش فما استطاعوا أن يعارضوه فيه فقالوا أحسنت وأجملت ووصلت الرحم

مكث رسول الله كذلك أياما يذهب ويأتي لا يعترضه أحد فما كسبت قريش أنمله بوفاة أبا طالب وهابوا أبا لهب، فما الحيلة إذن، أعدوا العدة جيداً لما كانوا يعرفون صدق وأمانة رسول الله فتطوع عُقبة بن أبي معيط وأبو جهل بن هشام وسألا محمد ﷺ عن منزلة أبي طالب أفي الجنة أم النار بعدما مات ولم يؤمن به، فقال لهما الصادق الأمين بلا تردد: في النار.

فسألاه وهما يعلمان الإجابة: فما منزلة عن منزلة عبد المطلب فقال: في النار.

وسألاه عن منزلة أبي لهب فقال: في النار ما لم يؤمن

وخرجا من عنده وقد حصلا علىٰ ما أرادا وذهبا إلىٰ حاميه أبو لهب، فقالا له: أخبر ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ فسأله أبو لهب فقال له: مع قومه، فرجع إليهم فقالا: يزعم أنك وأنت تذود عنه وأبا طالب من كان يحميه مع عبد المطلب في النار، فغضب أبو لهب فذهب إلىٰ رسول الله ﷺ فسأله فقال له رسول الله بصدقه المعهود:

نعم ومن مات علىٰ مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار

فقال أبو لهب: والله لا برحت لك عدواً أبداً، وأنت تزعم أنهم في النار.

فاشتد عليه أكثر من قبل واشتدت عليه سائر قريش (٢٠٧)

لم يكن أمام رسول الله بصدقه وأمانته أن يتلاعب بما كلف به من تبليغ، فهو كنبي صاحب عصمة في التبليغ، وهو المختار بصفاته التي التزم بها منذ حداثته ولا سبيل للمجاملات أو المداهنات فيما شرع الله، فلا وساطة ولا مجاملة، وهو الصادق الأمين، وكانت ضرورات الصدق والأمانة قد حتمت ذلك التصريح مهما كان الثمن.

ونجحت محاولة الوقيعة بين أبي لهب ورسول الله، وتمكنت قريش من عزل رسول الله وفي منظور التاريخ المقارن نجد في قصة نبي الله يحيىٰ خسة مشابهة مورست عليه، فقد وصلت شهرة يحيىٰ كنبي كل آفاق فلسطين وخارجها، مما اضطر الملك أن يفكر في احتمال تطور شعبية يحيىٰ وتستحيل إلىٰ ثورة جديدة، فما كان من أعضاء السنهدرين أن سألوه عن رأيه في شأن زواج هيرودس من هيروديا امرأة أخيه وزوجها علىٰ قيد الحياة فأعلن حرمة ذلك بلا مداهنة، فألقىٰ هيرودس القبض عليه خوفا من ثورة دينية، ولما رقصت ابنة هيروديا (سالومي) لهيرودس علىٰ أن يجيب لها أي طلب، طلبت رأس يحيىٰ انتقاما من موقفه، وفي نفس الفترة الزمنية عمدوا إلىٰ المسيح في الهيكل أن يضطروه إلىٰ مقاومة الحكم الروماني أو إنكار للشريعة فدفعوا إليه بامرأة زانية سألوه عما يفعلون بها، فإن قال ارجموها تقع الخصومة مع دولة الاحتلال التي عطلت حد رجم الزانية ويتخلص الفريسيون والصديقيون منه، وإن قال اطلقوها فهو يبطل شريعة موسىٰ فيرجم من العامة، فرد عليهم رياءهم بأن قال (من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر)

---

(٢٠٧) النويري: نهاية الإرب ج ١٦ ص ٢٧٩ نقلا عن بن سعد وبتصرف

وهكذا لم يكن أمام المشركين إلا الاسترخاص في العداوة والضرب تحت الحزام، والصراع هنا جلي بين الحق بملكات الفضيلة فيه، وبين الباطل بإمكانات القوة ولو كانت الخسة والرخص من أمضىٰ أسلحته.

نرىٰ ذلك حتىٰ اليوم في حياتنا، فتُهزم الفضيلة دائما في جولاتها الأولىٰ ولكنها تكسب المصداقية والاحترام في ضمائر العقلاء، وتكسب الخسة دائما في تلك الجولات ولكنها تخسر المصداقية والاحترام في ضميرها، وعلىٰ الإنسان أن يضع كل الاعتبارات في حسبانه وهو يطلق الأحكام، فهذه القيم يجب أن تحتفظ بحقائقها ولا تبتذل أو تمتهن لأن الابتذال والامتهان يخرجان بها عن الحقيقة.

عودي رسول الله ﷺ وليس له من يذود عنه، وكثرت مساءات قريش حتىٰ ضاق بهم ذرعا، واشتدت الوطأة عليه ﷺ وعلىٰ أصحابه، إلىٰ الحد الذي دفع رفيقه أبو بكر رضي الله عنه إلىٰ محاولة الهجرة عن مكة يريد الحبشة ' فخرج حتىٰ بلغ الغماد، فأرجعه ابن الدغنة وهو زعيم الأحابيش (٢٠٨) في جواره (٢٠٩)

ونال الأذىٰ رسول الله من قريش مالم تطمع به في حياة أبي طالب من الجميع وحتىٰ السفهاء، فقد نثر علىٰ رأسه الشريفة أحد سفهاء مكة ترابا مرة ومرة رحم الشاه، ويدخل رسول الله بيته والتراب والأقذار علىٰ رأسه، فقامت إحدىٰ بناته الثلاثة إليه، فجعلت تغسل التراب والأقذار عنه وهي تبكي، ورسول الله يقول لها: لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك. وقال: والله ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتىٰ مات أبو طالب(٢١٠)

ليس أقسىٰ علىٰ الرجل ولو لم يكن نبيـًا أن يسمع بكاء أبنائه، وليس أقسي منه إلا لوكان البكاء من البنات، والأكثر قسوة هو بكاء البنات علىٰ الأب الذي يهينه السفهاء، فما بالنا وهو رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فكل أنه حزن تثير في الحشا وفي الكبد أنات قاسية فتختنق لها حلوقنا وقد كان رسول الله أبر أب ببناته وأحناه عليهن.

---

(٢٠٨)الأحابيش هم بنو الحارث من كنانة وهم من خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق بن خزاعة وقد تحالفوا جميعًا بواد يقال له الأحبش ببطن مكة فقيل عنهم الأحابيش – من كتاب هذا الحبيب – لأبو بكر جابر الجزائري ص ١٠٦

(٢٠٩)تاريخ الإسلام ١\١٢٠ –ابن هشام ١\٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤ – صحيح البخاري ١\ ٥٥٢، ٥٥٣

(٢١٠)ابن هشام ١\٤١٦

والبنتان طلقت واحدة وهي أم كلثوم رضي الله عنها، والأخرىٰ يحجم الناس عن الزواج بهن مثل فاطمة رضي الله عنها وأرضاها وقد كانت في العام العاشر للنبوة قد بلغت الخامسة عشر من عمرها وكانت البنت تتزوج ما بين الحادية عشر للثالثة عشر في هذا الزمان بدون استثناء، فمحمد علىٰ دين لا يقبل زواج المسلمة بالمشرك، ناهيك عن المشقة في حياته والاستباحة للمؤمنين بوجه عام، وعلىٰ كل حال فقد كان أمر فاطمة في تفكير رسول الله أمراً مقضياً بالنسبة إليه، يعلم كيف السبيل إليه فقد اختار لها زوجاً يعلم بمشاعر الأب من اختار لها، ولقد تقدم لها أجلاء الصحابة ولكنه كان يؤثر من يؤثر، أما ابنتاه اللائي قد طلقن فلقد تقدم عثمان بن عفان إلىٰ رقية ووافق رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وهاجر معها للحبشة في الهجرة الثانية.

أما أبو بكر فقد كانت له هو الآخر رضي الله عنه وأرضاه مما يؤرقه فابنه عبد الحمن يعاديه ويعادي الإسلام وتؤرقه أيضا ابنته الصغرىٰ أيضا، فقد كبرت عائشة رضي الله عنها وأرضاها وكان المطعم بن عدي قد خطبها لابنه لكن زوجة مطعم كانت تقول (لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تصبيه وتدخله في دينك الذي أنت عليه) فشعر أبو بكر بغضب علىٰ ابنته وسأل المطعم بن عدي قائلا (وأنت ماذا تقول) فرد مطعم (أقول الذي تقول) فهو فسخ للخطبة إذن في نظر أي أب عاقل وكانت تعدت الحادية عشر من عمرها ولا أمل له في زواجها تحت هذه الظروف، وعوقب أبوبكر علىٰ إسلامه وكذلك ابنته.

٥- زواج رسول الله من سودة بنت زمعة بعد خديجة:

لئن تتابعت المصائب علىٰ رسول الله، فهي عزاء لكل مؤمن فيما يصيبه في الحياة من بلاء مهما عظمت البلايا، فقد قاد قدوة العالمين المسيرة بعزم الأنبياء، فبعد وفاة خديجة رضي الله عنها وأرضاها وأسكنها فسيح جناته وفي الأواخر من شهر رجب أو منتصف شهر شعبان بالسنة العاشرة من النبوة، كان رسول الله قلما يبيت في بيته، شعر رسول الله ﷺ بوجوب استمرار الحياة علىٰ نسق من الانتظام حتىٰ يتفرغ للدعوة دون إبطاء فكان زواجه ﷺ إجراءً سوف يسهل حياته التي أصبحت مجدبة بعد رحيل خديجة، ينظم بيته ويرفع عن كاهله القلق من الاستقرار.

سعت (خولة بنت حكيم السلمية) إلىٰ بيت رسول الله وسعت فيما لم يستطع الرجال أن يفاتحوه فيه وقالت:

يا رسول الله، كأني أراك قد دخلت خلة لفقد خديجة، فقال لها ﷺ (أجل كانت أم العيال وربة البيت) فاقترحت عليه أن يتزوج، فقال رسول الله في نبرة ألم (ومن بعد خديجة؟) قالت خولة (إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً يا رسول الله) فقال (فمن البكر ومن الثيب؟) قالت (أما البكر فعائشة، وأما الثيب فسودة) سودة بنت زمعة (أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها) كانت شهامة رسول الله سبب زواجه من سودة

سكت رسول الله، فعائشة يعرفها منذ طفولتها ويعلم ما قد جرىٰ في أمر فسخ خطبتها من بن مطعم بن عدي وهي في الحادية عشر من عمرها وبقيت دون ان يطلبها احد ثلاث سنوات للمقاطعة، وسودة رضي الله عنها وأرضاها، تحتاج إلىٰ الأنيس مثله تماماً وكانت من عادات العرب ألا تترك المرأة الثيب دون زواج وكانت سودة بنت زمعة بعدما تنصر ومات زوجها السكران بن عمرو بأرض الحبشة فعادت إلىٰ مكة بلا كافل لها ولأولادها، ولو عادت لأهلها -بعد وفاة زوجها- لأكرهوها علىٰ الشرك بعد أن هداها الله، أو لعذبوها ليفتنوها، وكان لزاماً علىٰ هذه العصبة المؤمنة أن تتكفل بها فكرمها رسول الله ﷺ بأن تولىٰ كفالتها بالزواج (كانت الزوجة الثانية لرسول الله) وهي تكبره بخمس سنوات شهامة منه وتكريماً لها علىٰ إخلاصها وصدق إيمانها بالله، فكان وقد سن سنته بكفالة أيتام المسلمين وراعيا لنسائهم.

وكان هَديه ﷺ في الشعور بالتكافل بين المسلمين وادخال البهجة في حياتهم رغم الشقاء الذي يعانيه، في عام الحزن.

عائشة بنت أبي بكر

وأيضا كانت شهامة رسول الله وراء زواجه من عائشة إذ كان حال أبو بكر علىٰ ما هو عليه فرأىٰ رسول الله أن يزيد الأواصر بينه وبين السابقين إلىٰ الإسلام متانة، فخطب إلىٰ أبي بكر ابنته عائشة (وكانت قد ولدت قبل النبوة بأربع سنوات) - وكان المطعم بن عدي قد خطبها لابنه وهي في الحادية عشر من عمرها لكنه فسخ الخطبة لما كانت في الثانية عشر من عمرها في العام السابع من النبوة. ثم قاطع المشركون المسلمين ثلاث سنوات فصارت في الخامسة عشر من عمرها فخطبها رسول الله ولم يبن بها إلا بعد سنتين فبقيت عند أبيها،

حتىٰ هاجر الرسول وأبي بكر ليثرب واستقر المقام فيها، وكانت مصاهرة رسول الله لأبي بكر أعظم مكافأة لأبي بكر في الحياة الدنيا خاصة بعدما فسخت خطبتها عقاباً له علىٰ إسلامه، وعزوف الناس عن مصاهرته بسبب إسلامه كما نصت بنود وثيقة المقاطعة، وسعد رسول الله بخطبة عائشة، فكان يتردد علىٰ بيت صاحبه في أوقات متقاربه.

٦- رحلة الطائف:

التمس رسول الله النصرة من العديد من القبائل أثناء مواسم الحج، وقد ردته جميعها رداً غير جميل في السنوات السابقة أثناء موسم الحج، وكان الكفار وعلىٰ رأسهم أبو لهب يفعلون الأفاعيل لحجبهم عنه كما أسلفنا، وقد مضت عشر سنوات علىٰ الدعوة ولم يكن عدد المسلمين يزيدون عن بضع مئات أغلبهم من الضعفاء والعبيد والنساء، وقد كانت النوات الثلاث الأولىٰ قد أتت بثمار جيدة من المؤمنين، أعقبتها سنوات أربع شهد فيه الإيمان رواجاً رغم الصعاب، إلا أن السنوات الثلاث الأخيرة والحصار المفروض قد جعل من المستحيل أداء الرسالة كما يتمنىٰ رسول الله فقد تعدىٰ ﷺ الخمسين من العمر، ورسول الله ﷺ يتهم نفسه الشريفة بقلة الحيلة والضعف، وهو عليه الصلاة والسلام يظلم نفسه بهذا الاتهام، فقرر بعزيمة قوية أن ينحو نحواً أكثر عملية، بعرض الإسلام علىٰ أهل الطائف فهي أكبر المجتمعات تأثيراً في الحياة العربية ورجال ثقيف يناظرون المجتمع المكي القرشي، ودون التأثير السلبي الذي تمارسه قريش علىٰ الدعوة، وأبو لهب علىٰ الأخص، واحتاط رسول الله لنجاح المسعىٰ الشريف فتكتم الأمر، وفي شوال سنة عشر من الدعوة (أواخر مايو وأوائل يونية سنة ٦٢٠ ميلادية) في شدة القيظ، خرج رسول الله ومعه زيد بن الحارثة، وذلك حتىٰ لا يلفت الأنظار، فإن اصطحب حمزة أو عمر أو كلاهما تعضيدا له وحماية للفت الأنظار بغيابة وبغيابهما أو بغياب واحد منهما معه، فآثر أن يخرج مع زيد إمعاناً في التخفي، ولم يبلغ رسول الله ﷺ أحداً بالرحلة والمسافة بين مكة والطائف ٨٨ كيلو متر علىٰ منحنيات مزدوجة وأرض وعرة صخرية وقاسية، وبدون راحلة تقله إمعاناً في التخفي سيرا علىٰ الأقدام، ورسول الله ﷺ كان قد بلغ الخمسين من عمره، يصطحب زيدا ذلك الشاب الذي لم يكن قد تجاوز الثلاثين !!

وصل رسول الله الطائف وهو راجٍ أن يقبل أهل الطائف منه ما جاءهم به، يطلب النصرة من ثقيف، فيعينوه علىٰ إبلاغ دعوته وما جاء به من الله عز وجل، فأقام بينهم عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا كلمه، فقصد في النهاية ثلاثة أنفار من سادة ثقيف وأشرافها، وكانوا قد علموا بقدومه وما يرنو إليه، وهم الأخوة الثلاثة:

عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير

فجلس إليهم ﷺ ودعاهم إلىٰ الله، وكلمهم بما جاء به من عند الله، فقال عبد ياليل هازئـًا منه: هو يمرط(٢١١) ثياب الكعبة إن كان قد أرسلك

وقال له مسعود ساخراً: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟

وقال حبيب متحديـًا: والله لا أكلمك أبداً، فلئن كنت رسول الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب علىٰ الله ما ينبغي أن أكلمك !

فدل رد عبد ياليل علىٰ الغباء وضيق الفكر، ودل رد مسعود علىٰ الغرور وانعدام الفراسة، ودل رد حبيب علىٰ احتقار نفسه فلا يرىٰ في نفسه شرفا يمكنه من الحديث إلىٰ رسول لله، وهي نفس الطينة الفكرية الضحلة التي عليها مشركي قريش فلا فائدة إذن من المحاولة من الأصل، فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يائس من أي خير في ثقيف، فطلب منهم ألا يذكروا ما دار بينهم إلىٰ قريش وقال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني، ولما كانت القسوة ثمرة الغباء والغرور وضيق الفكر وفقدان الثقة في النفس والزهو الأجوف، فلم يكن ردهم إلا أن أبلغوه أن الخبر سيصلهم لامحالة !!!وقالوا له: يا محمد اخرج من بلدنا والحق بمجابك من الأرض،

الإهانة:

وفي طريق خروج رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، كانت الاستعدادات التي أعدوها جاهزة له صلىٰ الله عليه وسلم، فقد أغروا سفاءهم - وما أكثرهم في هذا العالم قديما وحتىٰ الآن - والسفهاء هم حثالة المجتمعات، وهم أولئك الذين لا وزن لهم ولا دور، يتيهون طربـًا إن طالبهم الأسياد بممارسة السفاهة، فيجدون لأنفسهم دوراً، ويجدون لما دأبوا عليه منفذا شرعه لهم الأسياد، فيمارسونها

(٢١١) يقصد أن الله ينزع ثياب الكعبة أي شرفها بالدعوة بعبادة الله وحده ونبذ الآلهة

باجتهاد وبلا تحفظ، طائعين سعداء، وكان رسولنا الأكرم من يمارسون عليه دأبهم المقيت، فسبوه ﷺ وهم يصيحون به، حتىٰ اجتمعوا عليه الناس، ووقفوا سماطين (صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة، ويدفعونه بأيديهم حتىٰ إذا ما سقط عليه الصلاة والسلام علىٰ الأرض أقاموه ودفعوه ثانية ليسقط من جديد، وزيد بن الحارثة يبكي ويقيه بنفسه وجسده، ففر منهم رسول الله ﷺ وقد شجت رأسه الشريفة وجرح في عراقيبه فاختضب نعلاه بالدماء، فلما ابتعد عنهم (خمسة كيلو مترات تقريبـًا) لجأ إلىٰ حائط (بستان) لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فرجعوا عنه، يعجب المرء منا عما حدث، ويسأل نفسه (بلماذا؟) وتعجز عقولنا القاصرة عن التفسير

لماذا مكنهم الله من إيذائه صلىٰ الله عليه وسلم؟؟

لماذا لم يخبره الله بفشل هذه الرحلة ويثنيه عنها؟؟

لماذا لم يؤمن به مشرك واحد؟

ويبقىٰ السؤال الأهم، (بكيف؟) ويعجز تصورنا عن الاستنتاج،

فكيف كان ما حدث من عزيمة محمد رسول الله؟،

وكيف كانت رعاية الله له؟،

وكيف ستكون عليها الدعوة فيما بعد؟،

درس في العبودية

ولقد سألنا تلك الأسئلة، ألمـًا وعجبـًا لما حدث، وحبـًا في رسول الله،

لكنه قدوة العالمين صلىٰ الله عليه وسلم، لم يسأل ولم يعجب، بل نحا النحو المألوف للأنبياء وتضرع إلىٰ الله، يلقي اللوم علىٰ نفسه متهما إياها بما ليس فيها، بالضعف وقلة الحيلة والهوان، يتذلل لله ويثني عليه ويخضع له ويسأله ويستسلم له ويرجوه ويستعين به في مناجاة ترد تساؤلاتنا وتعلمنا جميعـًا الأدب مع الله سبحانه وتعالىٰ، أتىٰ رسول الله ﷺ إلىٰ حبلة من عنب، وجلس تحت ظلها إلىٰ الجدار من عناء القيظ والإرهاق، فلما جلس دعا بالدعاء المشهور قائلا وهو يبكي في أروع مناجاة لله عرفتها البشرية:

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني علىٰ الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب [٢١٢] المستضعفين، وأنت ربي [٢١٣] إلىٰ من تكلني؟ إلىٰ بعيد يتجهمني [٢١٤] ؟ أم إلىٰ عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك [٢١٥] هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بك[٢١٦]

لقد حاول قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام إيذائه بحرقه في النار وكانت النار برداً وسلامـًا عليه، بمعجزة من معجزات الحفظ.

وحاول الفرعون قتل موسىٰ عليه الصلاة والسلام، فأغرق الله الفرعون ومن معه، أيضـًا بمعجزة من معجزات الحفظ.

وحاول بنو إسرائيل الفتك برسول الله عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام عدة مرات فحفظه الله تعالىٰ بمعجزات الحفظ، ولما مكروا لمحاكمته وصلبه، شبه الله لهم خائنه كما ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم بمعجزة من معجزات الحفظ، فأين تلك المعجزات لرسول الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم؟

وصحيح أن ذلك كان للأنبياء المرسلين، ولكن علىٰ الجانب الآخر فقد كان الأنبياء من غير المرسلين يؤذون ويقتلون، إن تأملنا دعاء رسول الله ﷺ وهو يتضرع إلىٰ الله، للفت انتباه العاقل منا سمو العبودية لديه ﷺ التي تخرج الكلمات منه بعفويه العبد دون تكلف أو إعداد، فقوله:

(اللهم إليك أشكو) فيه تقديم بالاعتراف بالعبودية قبل الشكاية، فهو لم يقلها أشكو إليك يا الله.

---

(٢١٢)ينادي الله مستضعفا ويضع نفسه مع المستضعفين تأدبا مع الله

(٢١٣)يخص نفسه بالاستضعاف

(٢١٤)يتساءل عمن أوكل الله إليهم أمره وملكه فهو في دائرة مغلقه ولا يشكو من ضربوه ولكن يشكوا التجهم ومن يملك أمره من عشيرته

(٢١٥)يطلب عفو الله خوفا من أن يكون قد أغضبه إن كان عليه غضب لا يعلم كنهه، أما إن لم يكن غضبا فهو يقبل ما كتب عليه

(٢١٦)يرجو الله ألا ينزل عليه غضبه أو يحل عليه سخطه ويلتزم بالرجاء حتىٰ يرض الله عنه ويؤكد قدرة الله

(ضعف قوتي) فيه إرجاع الفشل لسبب فيه ألا وهو ضعف قوته، وإن تأملنا الواقع، فمن الإنصاف أن نذكر أن المسافة بين مكة والطائف ٨٨ كيلو متر علىٰ منحنيات مزدوجة وأرض وعرة صخرية وقاسية، وبدون راحلة تقله إمعانـًا في التخفي ورسول الله ﷺ كان قد تجاوز الخمسين من عمره فأي قوة جسدية مكنته من هذا المجهود في قيظ الصيف وطول المسافة ووعورة الطريق، والسن الذي جاوز الخمسين.

يصطحب زيدا ذلك الشاب الذي لم يكن قد تجاوز الثلاثين فلا يستقوىٰ بحمزة أو عمر أو جميع رهط المؤمنين إن أراد بل يذهب وحده، فأي قوة نفسية قد أوتيها، ويتهم نفسه بالضعف وهو يناجي ربه (قلة حيلتي)

رفضته مكة، وردته القبائل ومات عنه الأحبة، فبادر بالنضال من جديد في مكان لا يتصوره من حوله، فأي قوة عزيمة تحلىٰ بها، (وهواني علىٰ الناس) حتىٰ من أساءوا إليه لا يشكوهم، فلا يقول أهانني الناس، بل أيضا يرجع السبب في هوانه هو ﷺ الهين، فلا والله ما أنت بالهين يا رسول الله ولكنهم قوم لا يعقلون. لم تعرف البشرية عبودية بهذا الفهم العميق لكنهة العبودية، ونبي الله ورسوله محمد ﷺ كما سنرىٰ فيما سيأتي، وأثناء سرد سيرته العطرة يحفظه الله جلت قدرته بمعجزات الحفظ، لنا وللدعوة، فالله بالغ أمره، أما عن الأذىٰ الذي تحمله منذ ميلاده وبداية الدعوة وإلىٰ نهايتها، فهي هدي لنا، ونبراس للمؤمنين، فيتخذونه قدوة، يتعلمون من عزمه وصبره من أجل الحق، بعدما جلس رسول الله تحت ظل جدار البستان، كان علىٰ مسافة يجلس عتبة ابن ربيعة، وشقيقه شيبة بن ربيعة وهما أصحاب البستان ورأيا ما لقي رسول الله من سفهاء ثقيف، وتابعاه ﷺ وهو يناجي ربه باكيـًا، فرقا له، وأرسلا غلامـًا لهما نصرانيا يقال له عداس النصراني، وقالا له: خذ قطفـًا من هذا العنب واذهب به إلىٰ هذا الرجل ليأكل منه،

ذهب عداس بالعنب إلىٰ رسول الله ﷺ ووضعه بين يدي رسول الله فسأله رسول الله إن كان ما قدمه له صدقة فلما قال عداس أن ما يقدمه هدية قبلها رسول الله ووضع رسول الله يده وقال (بسم الله) فاسترعىٰ ذلك انتباه عداس النصراني فهو يعلم أن أي نبي يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ومنذ أتوا به أسيرا لجزيرة العرب لم يسمع من أحد منهم ذكر لله فقال: هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد رد عليه رسول الله بأن سأله:

ومن أهل أي بلد أنت يا عداس وما دينك؟

قال عداس: أنا رجل نصراني من نينوىٰ، فقال له رسول الله:

من قرية الرجل الصالح يونس بن متىٰ،

فقال عداس: وما يدريك بيونس بن متىٰ؟ فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم:

ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي، فعلم عداساً أنه في حضرة نبي، فأكب عداس بكل الشوق علىٰ رأس رسول الله ﷺ يقبلها ويقبل يديه ورجليه، رأىٰ ابنا ربيعة هذا الذي جرىٰ فقال أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده هذا الرجل عليك، ولما جاء عداس قالا له: ويحك ما هذا؟ تقبل يديه ورجليه!

قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، فقد أخبرني بما لا يعلمه إلا نبي، قالا: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

بعدما شعر رسول الله ببعض الراحة قام عائداً في طريقه الشاق إلىٰ مكة كئيباً محزوناً وكسير الفؤاد، ولكنه كان علىٰ يقين من نصرة الله له خاصة حينما يتذكر انقطاع الوحي وفتوره في مرحلة من مراحل الدعوة الأولىٰ، وهو ما حول رسول الله سكينة صامتة وفي وحدة من الناس ومن نفسه، وقد طمأنه الله إذ قال له (ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ) ولما وصل لمكان اسمه قرن المنازل، أرسل الله إليه بجبريل عليه السلام يواسيه ويقول له: يا محمد، ذلك ما شئت، إن شئت، أطبقت عليهم الأخشبين (الجبلين) لفعلت فقال رسول الله ﷺ

(بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً)

لا يبحث بسموه الروحي عن انتقام، بل يبحث عن سلام وإسلام، وأمام هذه البشارة بمؤازرة الله له، أقشعت سحابة الحزن واليأس، التي أطبقت عليه منذ خرجه من الطائف مطروداً ومهزوماً، فازداد عزمه ﷺ علىٰ مواصلة كفاحه في إبلاغ الرسالة بنشاط وجد مهما كلفه ذلك من أمر، ولما بلغ وادي نخلة (مكان بين مكة والطائف) وأقام في هذا الوادي بضعة أيام، قام في جوف الليل كعادته يصلي في الليلة الأولىٰ فبعث الله إليه نفراً من الجن فاستمعوا لتلاوته ﷺ للقرآن في جوف الليل فآمنوا بالله، وذهبوا إلىٰ قومهم ينذرونهم، ولم يكن رسول الله يعلم بما يدور حتىٰ أطلعه الله عليه بعد ذلك بنزول سورة الأحقاف بالآيات:

(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضي ولوا إلىٰ قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسىٰ مصدقاً لما بين يديه يهدي إلىٰ الحق وإلىٰ طريق مستقيم، يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم) (٢١٧)

وأنزل سبحانه وتعالىٰ من سورة الجن (قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً، يهدي إلىٰ الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحداً) (٢١٨)

لا يشترط أن يعلم رسول الله بجوائز السماء، ولكنها آتية لا محالة.

سار رسول الله ﷺ حتىٰ إذا دنا من مكة ومكث بجبل حراء، وكانت قافلة من خزاعة مارة فطلب من أحد رجال القافلة أن يأت الأخنس بن شريق فيسأله إن كان يقبل بأن يجير محمد فقال الأخنس للرجل

(أنا حليف والحليف لا يجير)

فبعثه إلىٰ سهيل بن عمرو، فقال سهيل

(إن بني عامر لا تجير علىٰ بني كعب)

فبعثه إلىٰ المطعم بن عدي فأجاره ولما دخل رسول الله مكة، دخلها في حماية وجوار مشرك !!

****

تجربة قاسية علىٰ أي نفس بشرية، فأنت إن خشيت أن تعود لدارك خشية الأذىٰ وتضطر ألا تعود إلا في حماية مناوئيك، تطلب منهم الحماية فيتحججون، وبعد جهد جهيد ترجع في حماية أحدهم، أولئك الذين قالوا له بالأمس القريب، (إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتىٰ تكون أكثرنا مالاً، !!إن كنت تريد تشريفاً سودناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك، !!وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا)

(٢١٧)الاحقاف ٢٩-٣٠-٣١

(٢١٨)اقرأ سورة الجن حتىٰ الآية ١٥

كانوا بالأمس القريب علىٰ أتم استعداد أن يسودوه عليهم فلا يقطعون أمراً دونه، أوأن ينصبونه ملكًا عليهم بشرط أن يترك الأمانة التي لا ولم ولن ينل منها المال بل يبذله، أو الراحة بل العنت، أو السيادة بل الإساءة وطلب الحماية!، يعرضون عليه إبرائه مما يعتقدونه رئيًا، ولكنه يتمنىٰ لهم الإبراء من الشرك والضلال، هو وضع لا يقبله البسطاء من الناس مثلنا بداعي الكرامة، أولم يأن للناس الأوان أن يفهموا أن قبوله لأي إساءة، ليس لأنهﷺ مستعد لقبولها فيقبلها، بل لأنه رسول الله، وليس هذا القبول إلا جزء من تضحياتهﷺ، أما عن الكرامة فهو الذي يمنحها للآخرين إن هم آمنوا.

٧- الإسراء والمعراج:

المعجزة لا منطق للعقل البشري فيها، ولو كان فيها احتمال للفهم العقلي لتدنت من الإعجاز إلىٰ الكفاءة، ومكرمة الله للأنبياء تكون دومًا هبة من الإعجاز، فيمنحهم جل وعلا معجزات خاصة بهم يخصها الله لهم، وهي المعجزات ذات الخصوصية للأنبياء والرسل وهىٰ معجزات فارقة، لا يمنحها الله للأنبياء ليراها الناس تحدث أمامهم فيؤمنون، بل هي لإعمال إرادات الله العليا وغالبًا ما تكون سببًا في الفتنة اللهم إلا لمن يؤثرون ألا يكون إيمانهم بالله باليقين الكامل وبثقة البديهة، والمعجزة التي لا يراها الناس تصبح فتنة، فمولد المسيح دون أب ولم ير أحد الملك الذي أرسله الله لمريم هي فتنة، وتكليم الله لموسىٰ دون أن يراه قد فتنه وفي سورة الأنعام -١٤٣

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخليل الله لإبراهيم وبلع الحوت ليونس ثم نجاته كلها معجزات لم يرها البشر وحتىٰ الرسل يفتنون إن لم يروا، كان رسول الله ﷺ قد فقد عمه الناصر الحميم، وفقد خديجة أم المؤمنين وكان بما ناله من آلام من ثقيف في حالة قد استدعت أن يكافئ الحبيب حبيبه بالكرم الإلهي، فيخلع عليه حلل الرضا ما ينسيه ما قد لاقاه وكان محمد ﷺ في بيت ابنة عمه هند ابنة أبي طالب، وكنيتها أم هانئ، فصلىٰ العشاء الآخرة، ثم نام ونام من بالبيت، فجاءه جبريل عليه السلام ومعه البراق

الذي أسرىٰ به من مكة حيث المسجد الحرام إلىٰ بيت المقدس حيث المسجد الأقصىٰ، فصلىٰ فيه، وصعد به إلىٰ السماوات العلا، وكان رسول الله ﷺ يلقىٰ في كل سماء من الحفاوة والترحيب والتكريم من الملائكة والمرسلين ما تقر به عينه وينشرح صدره له وتطيب نفسه به - وهو لذلك أهل - ثم رفعت له سدرة المنتهىٰ فرأىٰ رسول الله ﷺ في هذا المكان جبريل عليه السلام علىٰ هيئته (٢١٩) ورأىٰ بعضاً من آيات ربه الكبرىٰ، فمن يكون هؤلاء الذين سبوه وآذوه في ثقيف !!! من يكونوا وما هو وزنهم؟، ثم جاء أجمل ما أكرمه الله به إذ قربه الله العلي القدير بعد ذلك وناجاه وتلقىٰ منه جل وعلا الحديث القدسي، والتكليف بالصلوات الخمس، وكانت الصلاة قبل ذلك ركعتين في الصباح وركعتين في المساء، لقوله تعالىٰ

(فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار) (٢٢٠)

نزل رسول الله ﷺ بعد ذلك بصحبة جبريل عليه السلام ثانية إلىٰ بيت المقدس وركب البراق وعاد إلىٰ مكة، وقد ذهب عنه كل كرب وعاد أوفر ما يكون ثقة وطمأنينة وعزم في سبيل إعلاء كلمة الله، ولما كان قبيل الفجر استيقظ ﷺ فرحاً وراضياً، فلما صلىٰ الصبح وقال بسعادة تملك عليه وجدانه

(يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادي، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم قد صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين)

فقالت له: يا نبي الله لا تحدث به الناس، فيكذبوك ويؤذوك، فقال صلىٰ الله عليه وسلم: (والله لأحدثنهموة)

---

(٢١٩) وقال دانيال عليه السلام بعد غزو بختنصر لبلاد اليهود (إن الله يقول لي: أبعث فيهم نبيا من بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، أسري به إلي من سماء إلىٰ سماء حتىٰ يعلق فأدنيه، وأسلم عليه وأوحي إليه، ثم أرده إلىٰ عبادي بالسرور والغبطة، حافظا لما استودع، صادعا بما أمر، يدعو إلىٰ توحيدي باللين من القول، والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن علىٰ من عاداه فيدعوا قومه إلىٰ توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأىٰ من آياتي فيكذبونه ويؤذونه) عد إلىٰ الجزء الأول – آخر الفصل الثالث

(٢٢٠)(سورة غافر الآية ٥٥)

فتعلقت بردائه وقالت (أنشدك الله يا بن عم ألا تحدث بها قريش فيكذبك من صدقك) فضرب ﷺ بيده علىٰ ردائه فانتزعه منها، فخرت أم هانئ ساجدة فلما رفعت رأسها كان قد خرج

٨- الصادق الأمين، والصديق

خافت أم هانئ فأمرت جاريتها الحبشية (نبعة) أن تتبع رسول الله ﷺ وأمرتها أن تنظر لما يقول، فهي تعلم علية عِلة الصدق - إذ أن المبادئ في نظر الناس علة منذ ذلك الوقت وقبله وحتىٰ الآن - وتعلم اسلوبه في الوضوح عند الحق، وهو عليه الصلاة والسلام لا يعلم إلا الحق ولا يتكلم إلا به، قد أخبرها رسول الله بما لا يمكن لعقل بشري أو منطق أن يصدقه فخشيت مغبة دأب رسول الله فيما تعلمه عنه من الصدق في هذه القصة، فهو عليه الصلاة والسلام قد خرج لتوه من آلام عظام لا يصمد لها الرجال، فمن وفاة عمه إلىٰ وفاة زوجه إلىٰ ما لاقىٰ من أكابر الطائف وسفهائها كان عظيماً علىٰ أي نفس ولا تحتمله نفسه.

كان دأب الصدق عند رسول الله هو ما جعله ﷺ يصر علىٰ إبلاغ الناس بما أكرمه الله به، وكانت الأمانة هي من ألحت عليه هذا السبيل، لم يأمره الله بإبلاغ الناس بالإسراء والمعراج، ولم يكن من الإبلاغ آمنا في ظل تلك الظروف، ولم يكن رسول الله بغافل عن تلك الحقائق، تماماً كما لم يكن من مصلحته الشخصية التصريح بمآل النار لأبي طالب ولأبي لهب، ولكن ضرورات الصدق والأمانة قد حتمت ذلك التصريح مهما كان الثمن،

انتهىٰ رسول الله في الحطيم إلىٰ مطعم بن عدي، وأبو الحكم بن هشام (أبو جهل) الذي بادره بسؤال تهكمي وبنبرة ساخرة عما إن كان يحمل للناس جديداً اليوم، فرد رسول الله ﷺ بالإيجاب فقال له (هات ما عندك)

وقص رسول الله ﷺ عليهما ما أكرمه به الله ليلة الأمس، فضحك عالياً وقال أبو جهل بتحدٍ: أتقدر أن تبلغ الناس بهذا بدار الندوة؟، قال رسول الله ﷺ (نعم)

وأمام الجمع دخل عليهم أبو الحكم فقال: اسمعوا ما جاء به محمداً اليكم اليوم، وتوجه لرسول الله فقال له: قل لهم ما قلت لي للتو، فقص رسول الله عليهم خبر الإسراء والمعراج علىٰ الملأ، ولما انتهىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ضجت دار الندوة بالاستنكار والضحك بعضهم يصفق عجباً وبعضهم يضع يده لىٰ رأسه تعجباً وقال مطعم

وهو أول من اعترض: إن أمرك قبل اليوم كان أمراً يسيراً غير قولك اليوم، هو يشهد أنك كاذب، فنحن نضرب أكباد الإبل إلىٰ بيت المقدس مصعداً شهراً ومنحدراً شهراً، أفتزعم أنك أتيته في ليلة واحدة؟! واللات والعزىٰ لا أصدقك وما كان هذا الذي تقوله قط.

وساور أتباع رسول الله ﷺ بعض الريب فيما سمعوه وارتد كثير ممن أسلموا وقالوا قولا شبيها لما قاله مطعم: هذا والله الأمر البين والله إن العير لَتطَرد شهراً من مكة إلىٰ الشام مدبرة وشهراً مقبلة، أيذهب في ليلة واحدة فيرجع إلىٰ مكة؟!

فهؤلاء الكفار هم نسخة مكررة من حبيب الثقفي الذي قال لرسول الله في الطائف وهو يبلغه الرسالة متحدياً: والله لا أكلمك أبداً، فلئن كنت رسول الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك، ولئن كنت تكذب علىٰ الله ما ينبغي أن أكلمك ! فهو موقن بهوان نفسه، هؤلاء نسخة مكررة ممن كذبوا المسيح عليه السلام فتوقفوا أمام معجزاته وهؤلاء نسخة مكررة ممن اتهموا المسيح في أمه واتهموا أمه مريم البتول في يوسف النجار فتوقفوا أمام معجزة خلقه دون أب فلم يروها فكانت معجزة ميلاد المسيح فتنة لضعاف العقول وهي من معجزات الله الفارقة والخاصة للأنبياء، هؤلاء نسخة مكررة من الفرعون الذي طلب من هامان أن يبني له صرحا فيكلم الله الذي يكلم موسىٰ فتوقف أمام معجزة تكليمه لله فكانت معجزة التكليم التي لم يرها فتنة لضعاف العقول وهي من معجزات الله الفارقة والخاصة للأنبياء، هؤلاء نسخة مكررة من النمرود الذي كذب إبراهيم عليه السلام وحاول حرقه فتوقف أمام معجزة كونه خليل الله فكانت معجزة كونه خليل الله فتنة لضعاف العقول وهي من معجزات الله الفارقة والخاصة للأنبياء.

أما عمن آمنوا برسول الله ثم ملكتهم الريبة فيما أخبرهم به فقد وثقوا به أن آتاهم بخبر السماء وافتقدوا ثقة البديهة، فتوقفوا أمام الإسراء والمعراج وهي من معجزات الله الفارقة والخاصة للأنبياء.

الإيمان الحق فيه ثقة البديهة وانتصار اليقين علىٰ المنطق هو المطلوب من المؤمن فالذي يعلم قدراً من العلم، يمكنه قياس متطلباته وقوانينه بما علم ولو لم يكن مطابقاً لما يعلم من علم، فالمهندس مثلا أقدر ممن لم ينل أي قدر من العلم علىٰ قبول ما يأمره به الطبيب فيما يختص بالبحوث الطبية التي لم يدرسها المهندس بثقة البديهة، والعكس صحيح والحقائق الكبرىٰ لا تستغنىٰ أبداً عن ثقة البديهة والمؤمنون بالله لابد لهم من ثقة

البديهة كفرض محتوم، وإدراك الحقيقة المطلقة هو عمل إنساني يجب علىٰ المرء أن يعالجه بما لديه من الوسائل، في ثقة البدية يقول المسيح عليه الصلاة والسلام (طوبىٰ لمن يؤمن ولم ير)

والغريب فيمن أتىٰ بعد هؤلاء من البشر، في عصرنا الحالي الذين يقرون بكل ما توصل إليه العلم من قدرات وأسرار، ولا يقرون بما في الكون وخالقه من قدرات وأسرار، وهو خالق الكون بما فيه من علم.

إن ضعاف الرأي وضعاف العزيمة، ليسوا من أولي الألباب وهم من يفتقدون الإحساس بالثقة في النفس فهم علىٰ يقين بهوان أنفسهم وصغر شأنهم إذاً، فلا يشعرون بعظمة خالق الكون وقدراته، لم يكن العرب من أهل مكة سواء كانوا مسلمين أو كفاراً ليستطيعوا إدراك هذه المعاني لذلك ما لبثوا أن توقفوا عند الصور المادية من أمر هذا الإسراء والمعراج والغريب أن الاعتراض أساسا كان علىٰ الإسراء، ولم يتناول أحد المعراج بنقد، !

وصدق الله العظيم القائل (وما جعلنا الرؤية التي أريناك إلا فتنة للناس) (٢٢١)

في هذه الأثناء كان أبو بكر بن أبي قحافة راجعاً من رحلة تجارية قصد فيها الشام ولما علموا بقدومه، هرول مطعم بن عدي وأبو جهل إليه للإجهاز الفكري علىٰ من تبقىٰ ممن يؤمنون بمحمد، وتجمع الناس حولهم وكان فيهم المشركين والمسلمين، فسألاه من أين أتىٰ فقال الشام، ثم سألاه عن الزمن الذي قضاه في الطريق ما بين القدس ومكة فقال شهراً، فقالا له: يقدر أحد أن يقضي المسافة في يوم؟ قال لا، فسألاه عن إمكانية لأحد أن يسافر للقدس والعودة في ليلة، قال لا، فقالا له: فإن صاحبك يقول قد فعل !!!

فقال أبو بكر لهم غاضبا وهو لا يصدق أن رسول الله قد قال ذلك: أنتم تكذبون عليه،

قالوا: بلىٰ، ها هو في المسجد يحدث الناس، وأومأ المسلمون بأن قد فعل، ولما أيقن أبو بكر بأن رسول الله قد قال ذلك تيقظت فيه ثقة البديهة، فالذي يدرك أن ليس من المنطق أن يتم الذهاب للقدس والعودة بالقدرة البشرية في ليلة، فهو يدرك ذلك بمنطق البشر، أما من صدق أن يأتي رسول من السماء بالقدرة الإلهية، فمن المنطق تصديق الصادق الأمين

(٢٢١) سورة الإسراء الآية ٦٠ – كانت الفتنة لكل الناس مؤمنين وكفار وكانت غي زمانها فتنة حتىٰ آمنوا بها وستظل

في الإسراء بالقدرة ذاتها، فإن إنكار المنطق المادي علىٰ البشر، لا يسري علىٰ منطق الإعجاز علىٰ الله، فانبرىٰ أبوبكر يملأه الغضب فقال: والله لئن قد قالها فقد صدق، إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلىٰ الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، ثم أكذبه في تلك! فهذا والله أعجب مما تعجبون منه، والتفت إلىٰ مطعم وقال له (يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبته وأنا أشهد أنه صادق) وذهب لرسول الله وهو لا يزال يحادث الناس لإقناعهم وقال له (صدقت يا رسول الله) ومن يومئذ دعاه رسول الله (الصديق) فمعجزة الإسراء كانت أيضا في تحقق النضوج الإيماني، وقدرة رسول الله في تحقيق تلك المرحلة للبشرية، وأدرك كل من خالجه الشك من المسلمين في رسول الله أن الصادق الأمين لا يكذب ولا يصح أن يُكَذّب، بصدق البديهة وصدق الإيمان.

٩- الفتنة والمعجزة في الإسراء والمعراج والنضج الحضاري

قلنا من قبل أن عدد الذين آمنوا برسول الله ﷺ كان جد قليل بالمقارنة بالمدة الزمنية التي انقضت علىٰ الدعوة، فقد انقضت أكثر من السنوات العشر علىٰ الدعوة وقد تجاوز من آمنوا بها -بمن هم في الحبشة- مئتين ببضعة عشرات علىٰ أفضل تقدير، وقد أدىٰ إعلان رسول الله للإسراء والمعراج علىٰ الملأ إلىٰ فتنة للناس كل الناس، ولا تزال ولسوف تظل تلك الرؤية التي رآها رسول الله فتنة للناس والحقيقة الجازمة هي أن الإسراء والمعراج قد ذكرها القرآن وليس لنا تأويل الإسراء والمعراج إلا بما نصت عليه الآيات القرآنية، أما ما ذكره الرواة، والمتصوفة، فذلك ما قد يجعلني ويجعل غيري عرضة للفتنة، والطريق الأوحد هو الالتزام بالنص القرآني فلو كان الله سبحانه وتعالىٰ قد ذكر لنا -ليذكرنا محذراً- في سورة الإسراء أنه سبحانه وتعالىٰ قد جعلها فتنة للناس فليس أمامنا سوىٰ محاولة تجنب تلك الفتنة بالصمت عن التفاصيل، والالتزام بما سمح الله لنا به أن نعلمه عنها، لعلنا نلحق بما فاز به أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، ولا نتحدث إلا عن أثرها والمقصود منها، فعلىٰ سبيل المثال هل كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد، أم أنه كان بالروح فحسب، إن ذلك ما لا يصح لنا البحث فيه، إذ أن الحدث في حد ذاته لم يكن لنا ولم نكن نحن من وراء القصد منه، هي خصوصية من خصوصيات الله الفارقة التي يخص بها الله

الأنبياء والرسل شأنها شأن اتخاذ الله إبراهيم خليلا وتكليم الله لموسىٰ وكلمة الله لمريم بخلق عيسىٰ عليهم السلام، فتلك المعجزات الفارقة لم تحدث أمام بشر فيرونها ويؤمنون بالله ورسوله كنتيجة للرؤية، وإلا لصارت معجزة حسية ندركها بحاسة الرؤية، أو السمع فنؤمن، ولكن المعجزات الفارقة هي شأن إلهي، لا تدفع الناس إلىٰ الإيمان، بل إلىٰ الفتنة في قلوب معدومي العقل وفتنة لضعاف الإيمان.

لنا أن نتعلم مما علمه الله لنا من القرآن، فالعبودية الحقة تقتضي بنا إلىٰ التسليم والتلقي بما يسمح لنا الله به أن نعرف، والقياس هنا لحديث فتية أهل الكهف فالسؤال عن عددهم ومحاولة الاستنتاج قد نهانا الله عنه ولكننا لم نسأل أنفسنا لماذا قال الله (قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً)[٢٢٢] والإجابة هي أن هناك من الأمور التي ليس لنا أن نعرفها دون السؤال عن السبب، فأنت تتلقىٰ من الله وأنت عبد لله ولست له نداً، وعلينا أن نفهم بالقياس ألا نبحث فيما حجبه الله عنا إن هناك الكثير من الحقائق تتفجر من ينابيع تلك الرحلة، فمهما كان عدد من أمن ضعيفًا

فذلك العدد لا يجعلا الحفاظ عليه سبباً في تعطيل إرادة الله فسنة الله للذين آمنوا هي الابتلاء، فهل أراد الله اختبار المؤمنين، أم أراد الله غربلتهم فلا يبق فيهم ممن يعلن إسلامه وهو لا يملك الثقة الكاملة في رسول الله، أم أراد الله سبحانه وتعالىٰ أن يستعدوا بعد هذا الابتلاء، فيصبح إسلامهم هو التسليم الكامل لله، أم أراد كل ذلك معـًا، ولنا أن نقطع بما أراد الله في قلوبنا، وسنة الله للأنبياء هو أن يروا آيات الله وملكوت السماوات والأرض.

قال الله تعالىٰ في سورة الأنبياء بالآية ٧٥

(وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين)

وقال سبحانه وتعالىٰ لموسىٰ عليه الصلاة والسلام في سورة طه بالآية رقم ٢٣

(لنريك من آياتنا الكبرىٰ)

فالخلة إذاً لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، والتكليم لموسىٰ عليه الصلاة والسلام، وروح الله وكلمته لعيسىٰ عليه الصلاة والسلام، أما الإسراء والمعراج فلمحمد عليه الصلاة والسلام، وفيها كانت له الخلة، وكان له فيها التكليم، أما إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد

(٢٢٢)سورة الكهف الآية ٢٢

استمتع بالخلة كثيراً فكان خليله، وموسىٰ عليه الصلاة والسلام قد كلمه الله كثيراً فكان كليمه، وفي سورة الإسراء التي تصف الإسراء يقول الله تعالىٰ في أول آية (سبحان الذي أسرىٰ بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)

وسورة النجم من الآية١١ إلىٰ الآية ١٨٣ التي تصف المعراج يقول الله تعالىٰ: (أفتمارونه علىٰ ما يرىٰ، ولقد رآه نزلة أخرىٰ، عند سدرة المنتهىٰ، عندها جنة المأوىٰ، إذ يغشىٰ السدرة ما يغشىٰ، ما زاغ البصر وما طغىٰ، لقد رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ)

وفي المعراج رأىٰ رسول الله جبريل بهيئته الحقيقية، رأىٰ الملائكة والسماوات العلا ورأىٰ سدرة المنتهىٰ وعندها جنة المأوىٰ وما زاغ بصره وما طغىٰ فرأىٰ بذلك بعض من آيات ربه الكبرىٰ ولم ير الله فالله (لا تدركه الأبصار) {الأنعام١٠٣} ولما كلم الله كلمه من وراء حجاب (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيـاً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً) {الشورىٰ٥١}

بقي أن نعلم فيم كانت المعجزة في الإسراء والمعراج بالنسبة إلينا، المعجزة ببساطة هي في تصديق الناس لحدوثها وهي أبعد ما تكون عن استيعابهم لها فهي دليل علىٰ قدرة رسول الله ﷺ علىٰ أن يملك قلوب المؤمنين وسموهم الوجداني ومقياسـاً لقدر التضحيات التي سوف يبذلونها من أجل الدعوة تسليما و قد فقد كل ناصر ومعين، ومال وعزوة من الأهل والعشيرة والمعجزة إذن تكمن في شخصية رسول الله عندما آمن الناس ولأول مرة في تاريخ البشرية بإيمان النضوج الحضاري والنضوج الإيماني والذي تحدثنا عنه طويلا في أجزاء هذا الكتاب.

١٠- عرض الإسلام على القبائل والأفراد من غير أهل مكة:

١-القبائل

كان رسول الله يعرض الإسلام علىٰ القبائل منذ العام الرابع للنبوة إلىٰ آخر موسم قبل رحلته إلىٰ الطائف ولم يستجب أحد للدعوة، فقد كانت الدعاية والتخويف من المشركين ومن أبي لهب عمه تلقي بظلال الشك علىٰ قلوب رؤساء القبائل، فمن القبائل التي رفضت الدعوة كانت قبائل: حارب بن خصفة، وفزازة، وغسان، ومرة، وسليم، وعبس، وبنو نصر،

وبنو البكاء وكندة، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة. ولقد باشر عليه الصلاة والسلام ما كان يقوم به بهمة أكبر من ذي قبل، فقد جاء شهر ذو القعدة سنة عشرة من النبوة (يوليه ٦٢٠ ميلادية) فاستأنف عرض الإسلام علىٰ قبائل:

بنو كلب: فلم يقبلوا منه ما عرضه عليهم

بنو حنيفة: فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه منهم رداً، وهم قوم مسيلمة الكذاب.

ثم أتى إلى بني عامر بن صعصعة: فدعاهم رسول الله إلىٰ الإسلام وعرض عليهم نفسه للمبايعة، فقال رجل منهم (بحيرة بن فارس) لمن حوله (والله لو أني أخذت هذا الفتىٰ من قريش لأكلت به العرب) ثم قال لرسول الله ﷺ بما يشبه الشرط: أرأيت إن نحن بايعناك علىٰ أمرك، ثم أظهرك الله علىٰ من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟، كانت تلك بارقة أمل يحتاجها رسول الله في نشر الدعوة وتأمين الحماية، إلا أن الإسلام لا يمكن أن يستخدم للرياسة والسيطرة فقال رسول الله ﷺ بصدقه وأمانته: الأمر إلىٰ الله، يضعه حيث يشاء، فقال له بحيرة: أفتهدف نحورنا دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، أبوا عليه إذن وتركوه قائما

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلىٰ شيخ لهم لم يوف الحج لكبر سنه فقصوا عليه ما حدث من فتىٰ من قريش من بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلىٰ أن بمنعه، ونقوم معه، ونخرج به إلىٰ بلادنا ورفضنا، وقلنا له كذا وكذا

وضع الشيخ يديه علىٰ رأسه ندما وحسرة ثم قال:

يا بني عامر هل لها من تلافِ لذنابها من مطلب؟ (يقصد هل نستطيع إصلاح ما حدث) والذي نفسي بيده ما تقَوَلها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين كان رأيكم عنكم؟[٢٢٣] وندمت عامر.

٢-الأفراد

أبو ذر الغفاري وصيحة الإسلام الأولىٰ هو جندب بن جنادة والمعروف بأبي ذر الغفاري. رجل عاش علىٰ الفطرة يحمل طبيعة فوارة وجياشة وقبيلته معروفة بالسطو وقطع

(٢٢٣) ابن هشام ١\٤٢٤-٤٢٥

الطريق علىٰ قوافل التجارة كلها في طريق الشام وأهلها مضرب الأمثال في السطو غير المشروع، أما جندب فكان ممن يرفضون آلهة الكعبة جملة وتفصيلا، لا يؤمن إلا بما يرضي عقله وفطرته الأبية، تعلم من صراحة الصحراء المجاهرة بالمشاعر والصدق مع النفس، يبغض أسلوب الحياة المرفهة والمظالم والفساد والربا والاستعباد والتسري والزنا ووأد البنات من عادات المجتمع الجاهلي، وقد سمع برجل من مكة يزعم أنه نبي، فشد الرحال إليه ومضىٰ يتسمع الأخبار من بعيد حتىٰ أتاه وقال لرسول الله (نعمت صباحا يا أخا العرب) فأجاب رسول الله (وعليك السلام يا أخاه) فقال أبو ذر (أنشدني مما تقول) فقال له رسول الله (ما هو بشعر فأنشدك ولكنه قرآن كريم) فقال أبو ذر (فاقرأ علي) فقرأ عليه رسول الله ﷺ بعض الآيات من القرآن فهتف أبو ذر (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله) فسأله رسول (ممن أنت يا أخا العرب؟) فأجاب أبو ذر (من غفار)

ابتسم رسول الله ﷺ ابتسامة يملأها الدهشة والعجب وضحك أبو ذر كذلك، فغفار قبيله معروفة بالسطو وقطع الطريق، وجعل رسول الله ﷺ يرفع بصره ويصوبه تعجبـًا لما كان من غفار، ثم قال (إن الله يهدي من يشاء)

ولما كان جندب بن جنادة يحمل طبيعة فوارة وجياشة، ومتمرد بطبعه علىٰ الباطل الذي حوله سأل رسول الله من فوره (يا رسول الله بم تأمرني) فأجابه ﷺ (ترجع إلىٰ قومك حتىٰ يبلغك أمري) ولكن طبيعته غلبته فقال (والذي نفسي بيده لا أرجع حتىٰ أصرخ بالإسلام في المسجد) ودخل المسجد ونادىٰ بأعلىٰ صوته:

(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله)

أحاط به المشركون حتىٰ صرعوه فهرول إليهم العباس بن عبد المطلب رجل المال المكي الذكي وأنقذه منهم قائلا (يا معشر قريش، أنتم تجار، وطريقكم علىٰ غفار، وهذا

رجل من رجالها ؛إن يحرض عليكم قومه، يقطعون الطريق علىٰ قوافلكم) فتركوه، إلا أن أبا ذر عاود الكرة في اليوم التالي ووقف يسفه صنمي أُساف ونائلة، ولا يقدر أحد أن يرده وعاد بعدها إلىٰ قبيلته ينشر الإسلام بها ثم ينتقل لقبيلة أسلم فتستجيب.

فكما كان سعد بن أبي وقاس (وقاص) أول من أهرق دمـًا كان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن وكان أبو ذر الغفاري أول من جهر بالشهادة في المسجد والطفيل بن عمرو

الدوسي سيد قومه ورئيس قبيلة دوس وكانت لقبيلته إمارة في بعض نواحي اليمن وقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي في العام الحادي عشر من النبوة لمكة وكان كبير قومه وكان شريفًا وشاعراً لبيبًا، فخشيت قريش أن يلتقي بمحمد فلا شغل لأهل مكة إلا الحديث عنه فمشت إليه قريش في كوكبة من رجالها يحذرونه من محمد ويبلغونه أن محمداً ساحر بقوله، فكلماته تفرق بين المرء وأهله، وأنهم يخشون عليه وعلىٰ قومه مثل ما أصابهم بمكة، وأن الخير هو في تجنبه ولا يكلمه ولا يستمع إليه.

بقي الطفيل بمكة ملتزما في بادئ الأمر بنصائح سادات مكة، حتىٰ جاء يوم ذهب فيه الطفيل إلىٰ الكعبة.

وكان رسول الله ﷺ هناك، فأطرق سمعه لما يتلوه ﷺ فإذا هو كلام حسن ؛ فقال في نفسه (واثكل أمي ! والله إني رجل لبيب شاعر ما يخفىٰ علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته)

انتظر الطفيل حتىٰ فرغ رسول الله ﷺ وانصرف إلىٰ بيته فاتبعه ثم أظهره إلىٰ أمره وما دار بنفسه ؛ فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام وتلا عليه القرآن، فأسلم الطفيل من فوره وشهد شهادة الحق، ورجع إلىٰ قومه يدعوهم للإسلام فلبىٰ البعض وأبطأ البعض سنين متعاقبة حتىٰ أسلم أغلبهم قبل فتح مكة.

وهكذا كانت إرادة الله الغالبة، وهم يرون أنه سبحانه وتعالىٰ يأبىٰ إلا أن يتم نوره.

وها هو ضمادة بن ثعلبة الأزدي وقد كان أحد أصدقاء رسول الله في الجاهلية وكان من أزد شنوءة باليمن وهاله ما يسمع عن جنون صديقه محمد كما كان يشيع الكفار، فذهب لصديقه محمد عارضا عليه أن يرقيه فقد كان علىٰ اتصال بالكهنة والسحرة ويدأب علىٰ الرقية وقال لرسول الله ﷺ قائلا: يا محمد إني راق فهل بك من شيء فأرقيك؟، أجابه رسول الله قائلاً (الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده وسوله، أما بعد)

قاطعه ضمادة لما سمع تلك الكلمات قائلا: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادها رسول الله ﷺ ثلاثًا وهو منصت، فقال دون أن يكمل رسول الله ما أراد فقال له: والله لقد سمعت قول الكهنة، وسمعت قول السحرة، وسمعت قول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء

الكلمات ولقد بلغت قاموس البحر (أي غاية الغايات) ومد يده لرسول الله وقال مد إلي يدك أبايعك علىٰ الإسلام.

ومد له النبي ﷺ يده فبايعه ضمادة وحسن إسلامه،

سويد بن الصامت[٢٢٤]

وكان شاعراً هو الآخر ولبيبًا من سكان يثرب، يسميه قومه الكامل، لجلده وشعره وشرفه ونسبه، جاء إلىٰ مكة في أوائل العام الحادي عشر للنبوة (٦٢١م) حاجـًا أو معتمراً فدعاه رسول الله ﷺ إلىٰ الإسلام فقال له: لعل الذي معك مثل الذي معي، فقال رسول الله (ما الذي معك) قال حكمة لقمان، فقال (اعرضها علىٰ) فقال له رسول الله ﷺ بعدما سمع منه (إن هذا كلام حسن، والذي معي أفضل منه فهو كلام الله، قرآن أنزله الله تعالىٰ علي، هو هدىٰ ونور) وتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن فأسلم سويد بن الصامت من فوره، وعاد ليثرب ولكنه قتل يوم بعاث، بعد أشهر من وصوله ليثرب.

إياس بن معاذ[٢٢٥]

كان غلاما حدثـًا من سكان يثرب وكان قد قدم في وفد من الأوس، جاؤوا وعلىٰ رأسهم أبو الحيسر أنس بن رافع من بني عبد الأشهل يلتمسون الحلف من قريش علىٰ قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بعاث مباشرة، وهي حرب من سلسلة حروب كانت تنشب بين القبيلتين، وتلك الحروب كانت تنشب بين القبيلتين بإيعاز من اليهود لبسط سيطرتهم علىٰ يثرب بالتدريج (تماما كما يحدث الآن في عالم السياسة) وكان ذلك في أوائل السنة الحادية عشرة من النبوة (٦٢١ م) وكانت الأوس أقل عددا من الخزرج، ولما علم رسول الله بمقدمهم -وهو عليه الصلاة والسلام الذي يتهم نفسه بقلة الحيلة- ذهب إليهم وقال لهم (هل لكم في خير مما جئتم له؟) قالوا: وما ذاك؟

قال لهم رسول الله ﷺ (أنا رسول الله، بعثني إلىٰ العباد، أدعوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل علي الكتاب) ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فصاح إياس بن معاذ قائلا: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع -رجل

(٢٢٤)ابن هشام ١\٤٢٤، ٤٢٥

(٢٢٥)ابن هشام ١\٤٢٧، ٤٢٨ وتاريخ الإسلام للنجيب آبادي ١\١٢٦

كان بالوفد- حفنة من تراب فرمىٰ بها وجه إياس وقال له: دعنا عنك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، وصمت إياس، وساد الصمت، فقام رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وبعد أيام وجيزة انصرف الوفد إلىٰ يثرب من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش

العباس بن عبادة العوفي(٢٢٦)

وهو الوحيد الذي ظفر بلقب مهاجر أنصاري، فالصحابة كلهم إما مهاجري أو أنصاري إلا هذا الرجل، فقد خرج إلىٰ رسول الله ﷺ بمكة وأقام بها، وعند الهجرة ليثرب هاجر مع المهاجرين فكان يقال له مهاجر أنصاري، واستشهد بأحد، وفقد الأوس مزية السبق إلىٰ الإسلام، وهلك إياس في حرب بعاث، وكان يهلل ويكبر ويسبح عند موته ولا يشكون أنه مات مسلماً.

١١- بيعة العقبة الأولى (الصغرى) و (بيعة النساء)(٢٢٧)

نسمات من يثرب

في أوائل السنة الحادية عشر من النبوة (أواخر يوليه سنة ٦٢١ ميلادية) من النبوة خرج رسول الله يعرض نفسه علىٰ القبائل كما اعتاد في موسم الحج، وفي طريقه إلىٰ منىٰ لقي رهطاً من الخزرج عند مكان يدعىٰ جمرة العقبة، وقد سمع أصواتهم يتكلمون بصوت عال ومسموع، فقد كان حديثهم بمثل ما يتحدث الناس الآن وما نسميه حديث في السياسة وكم فيها دائما من انفعالات، فقد كانوا يرفضون الواقع الذي يعيشون فيه عن حروبهم الداخلية خاصة بعدما أنهكتهم حرب بعاث التي تدفعهم إلىٰ الانقسام بسبب ما يحدث من وراء ظهورهم من مؤامرات يحيكها يهود يثرب الغرباء والمسيطرين علىٰ اقتصاد البلاد فيندفعون في قتال بعضهم البعض من أوس وخزرج أصحاب البلاد وكانوا في هذه الأوقات علىٰ شفا حفرة من نار الاقتتال مرات ومرات ولكن الله جل وعلا كان قد أعد لهم

(٢٢٦)هذا الحبيب – محمد – يامحب للكاتب أبو بكر جابر الجزائري ـ ص١٢١

(٢٢٧)المراد ببيعة النساء هو أنهم بايعوا علىٰ عدم الشرك بالله ولم يذكر فيها القتال، والحقيقة أن الناس حتىٰ ذلك الوقت كانت تبايع علىٰ هذا ولم يبايع أحد رسول الله علىٰ قتال إلا بعد البيعة العقبة الثانية

ما ينقذهم من هه الحفرة، وكان الحديث يدور يأساً من قدرتهم علىٰ الخروج من أوضاعهم السياسية الميؤوس منها وكانوا من عقلاء يثرب وهم:

- أسعد بن زرارة (من بني النجار)
- عوف بن الحارث بن رفاعة ويعرف بابن العفراء (من بني النجار)
- ورافع بن مالك بن العجلان (من بني زريق)
- وعامر بن عبد حارثة (من بني زريق)
- قطبة بن عامر بن حديدة (من بني سلمة)
- عقبة بن عامر بن نابي (من بني حرام بن كعب)
- جابر بن عبد الله بن رئاب السُلَمِي (من بني عبيد بن غنم)

لما لحقهم رسول الله ﷺ سألهم (من أنتم) قالوا نفر من الخزرج فقال (من موالي يهود؟) أي حلفاءهم، قالوا نعم فقال: (أفلا تجلسون فأكلمكم؟)

قالوا: بلىٰ، فجلسوا معه فعرض رسول الله نفسه عليهم بأنه رسول الله وعرض عليهم الإسلام، ثم تلا عليهم القرآن، فتهامسوا فيما بينهم وقال بعضهم لبعض:

تعلمون والله يا قوم، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فاسرعوا إلىٰ إجابة دعوته، فأسلموا جميعاً وقالوا لرسول الله: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسىٰ أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، وندعوهم إلىٰ أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله لك فلا رجل أعز منك ورجع هؤلاء إلىٰ يثرب، وبدعوتهم لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها ذكر لرسول الله.

البيعة

لما كان العام المقبل في ذي الحجة سنه اثنا عشر من النبوة (منتصف يوليه ٦٢٢ ميلادية) وافىٰ موسم الحج اثنا عشر رجلا، فلقوا النبي ﷺ كما وعدوا فجاء خمسة ممن التقوا به في العام السابق ومعهم سبعة آخرون، خمسة من الخزرج وهم:

- معاذ بن الحارث (من بني النجار)
- ذكوان بن عبد قيس (من بني زريق)

- عبادة بن الصامت (من بني غنم)
- يزيد بن ثعلبة (من حلفاء بني غنم)
- العباس بن عبادة بن نضلة (من بني سالم)

واثنان من الأوس وهما:

- أبو الهيثم بن التيهان (من بني عبد الأشهل)
- عويم بن ساعدة (من بني عمرو بن عوف)

ويظهر تأثير رسول الله؛ فللمرة الأولىٰ الذي يجتمع فيه الأوس الخزرج علىٰ أمر واحد منذ الحروب بينهم التي نشبت منذ مائة وعشرين سنة، كان ذلك بعد مقدم يهود في القرن الثاني الميلادي في هجرتهم الثالثة إلىٰ الجزيرة العربية، إذ كانت هجرتهم الاولىٰ عام ٥٨٧ق م بعد الفتوحات البابلية والآشورية وتدمير هيكل سليمان وهجرتهم الثانية عام ٦٣ ميلادية بعد ثورة باركوكيبا (ثورة اليهود السادسة) واحتلال الدولة الرومانية لفلسطين أما الهجرة الثالثة فكانت بعد اعتناق الدولة الرومانية للمسيحية علىٰ أمل أن يبعث الله النبي الموعود من نسل إسماعيل(٢٢٨) فاتصل هؤلاء الأوس والخزرج برسول الله عند العقبة بمنىٰ فقال لهم رسول الله: (تعالوا، بايعوني علىٰ أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفىٰ منكم فأجره علىٰ الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلىٰ الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه) فبايعوه علىٰ ذلك(٢٢٩)

(٢٢٨)أنظر الجزء الأول بالفصل الثالث باب بشارات النبوة ص ٦٣ (أبعث فيهم نبيا من بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، وأوحي إليه وأعلمه الأسماء وأزينه بالتقوىٰ، أجعل البر شعاره، والتقوىٰ ضميره، والصدق قوله والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه، وناسخ لبعض ما فيه، أسري به إلي من سماء إلىٰ سماء حتىٰ يعلق فأدنيه، وأسلم عليه وأوحي إليه، ثم أرده إلىٰ عبادي بالسرور والغبطة، حافظا لما استودع، صادعا بما أمر، يدعو إلىٰ توحيدي باللين من القول، والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن علىٰ من عاداه فيدعوا قومه إلىٰ توحيدي وعبادتي ويخبرهم بما رأىٰ من آياتي فيكذبونه ويؤذونه)

(٢٢٩)صحيح البخاري

وتحقق لرسول الله ﷺ ما كان يتمناه ويصبو إليه واستبشر خيراً، وكان عليه أن يفكر في مرحلة جديدة من مراحل الدعوة إلىٰ الله وكان عليه أن يبعث معهم من يفقههم في الدين ويُقرئهم القرآن، فيتعلمون الإسلام فبعث معهم مصعب بن عمير.

١٢ - بعثة مصعب بن عمير:

ومصعب بن عمير بن هشام بن عبد مناف كما ذكرنا سلفًا كان من حيث النسب من أشرف بيوتات قريش ومن حيث الثراء من أثرىٰ تلك البيوتات لولا كونه من أوائل المؤمنين وقد هاجر للحبشة فراراً من حبسه التي حبسته فيه أمه، وقد وقع اختيار رسول الله عليه ليكون أول سفير له ﷺ لدماثة خلقه ورجاحة عقله، وحسن بيانه إذ منحه الله موهبة الإقناع فأوكل رسول الله له هذه المهمة، ونزل مصعب علىٰ سعد بن زرارة وبدأ مصعب ومعه سعد في مهمتهما الشاقة.

استمر مصعب في أداء واجبه إلىٰ أن حدث أمر كان فاتحة خير للدعوة، إذ تنقلا بين الناس فكان يؤمن البعض ويعرض البعض، حتىٰ جاء يوم وقد توجها إلىٰ ديار بني عبد الأشهل وديار بني ظفر، وجلسا علىٰ بئر يقال له بئر مرق، فاجتمع إليهما رجال، وعلىٰ مقربة منهم كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير _سيدا قومهما من بني عبد الأشهل وهما يومئذ علىٰ الشرك – فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلىٰ هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإن أسعد بن زرارة بن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

أخذ أسيد حربته وأقبل إليهما غاضبًا وشتمهما وقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا؟

اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. قال مصعب: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، وكلمه مصعب بالإسلام وتلا عليه القرآن، فعرف مصعب في وجهه الإسلام في إشراقه وتهلله ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أرتم أن تدخلوا في هذا الدين؟، قالا تغتسل وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وصلىٰ ركعتين ولما عاد لسعد بن معاذ قال له: ما

فعلت؟ فقال له: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسـاً، فقال سعد مغضباً وأخذ حربته وشتم أسعد بن زرارة فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ وكرر ما قاله لأسيد، فحدث نفس ما حدث مع أسيد، ولكن سعد بن معاذ كان كبير بني عبد الأشهل فذهب إليهم بعدما أسلم وصلىٰ وقال لهم:يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيباً.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتىٰ تؤمنوا بالله ورسوله.

فما أمسىٰ فيهم رجل أو امرأة إلا مسلماً ومسلمةً، إلا رجل واحد وهو الأصيرم، فلم يؤمن إلا يوم أحد، فأسلم وقاتل واستشهد، ولم يكن قد سجد سجدة واحدة فقال عنه رسول الله (عمل قليلا وأجر كثيراً)

وقبل حلول موسم الحج التالي -أي السنة الثالثة عشر للنبوة- عاد مصعب بن عمير إلىٰ مكة، يحمل البشرىٰ لرسول الله.

١٣- بيعة العقبة الثانية (الكبرى)

في موسم الحج في ذي القعدة من السنة الثالثة عشر من النبوة (أواخر يونية سنة ٦٢٣م) حضر لأداء الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين حديثاً من أهل يثرب ضمن حجاج قومهم من المشركين، وحرصوا علىٰ الاتصال برسول الله ﷺ سراً واتفقوا علىٰ الاجتماع به في أواسط أيام التشريق عند العقبة حيث الجمرة الأولىٰ من منىٰ سراً وكان معهم عبد الله بن مسعود بن حِرام وهو سيد من ساداتهم وشريف من أشرافهم، وكان لا يزال علىٰ شركه ما سمع عن الإسلام بعد فقالوا له (إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه من شرك أن تكون حطباً للنار غداً) فدعوه إلىٰ الإسلام فاستجاب وشهد معهم العقبة وكانوا به ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وهما (نسيبة بنت كعب) والمعروفة بأم عمارة المازنية[٢٣٠] وهي من بني مازن بن النجار، و (أسماء بنت عمرو) المعروفة بأم منيع وهي من بني سلمة وقد انتظروا رسول الله في الشعب.

---

(٢٣٠)وهي زوجة زيد بن عاصم وقد أثبتت أم عمارة في غزوة أحد التي هزم فيها المسلمين بأنها أمينة علىٰ البيعة فقد دافعت عن رسول الله ببسالة

كان رسول الله يثق في عمه العباس بن عبد المطلب علىٰ الرغم من شركه، إلا أنه كان لا يزال علىٰ عهد المروءة مع ابن أخيه، فقال له: ما أدري ما هؤلاء القوم الذي جاؤوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب، فأحب العباس الاطمئنان علىٰ رسول الله فجاء معه ﷺ ولما نظر في وجوههم قال: هؤلاء قوم لا نعرفهم، هؤلاء أحداث، وكان أول من تكلم فقال:

(يا معشر الخزرج -وكان العرب يسمون أهل يثرب خزرجاً- إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو علىٰ مثل رأينا فيه (يقصد أنهم لم يؤمنوا به وعلىٰ الرغم من ذلك منعوا عنه الأذىٰ) فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبىٰ ألا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلدة)

في هذا الذي قاله العباس وضع الأمور في نصابها رغم ما في الكلمات من إشارات بخطورة ما هم مقدمون عليه ونتائج خطيرة قد تصيبهم، فلا يدعون بعدها الجهل بما قد عقدوا عليه العزم، فيضعهم أمام مسؤولياتهم فإن رغبوا أكملوا وإن وهنوا تركوه،

قال له كعب بن مالك الأنصاري:

(قد سمعنا ما قلت، فتكلم يارسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت) (٢٣١)

وهنا ألقىٰ رسول الله بيانه فتلا القرآن ودعا إلىٰ الله ورغب في الإسلام ثم ألقىٰ عليهم شروط البيعة فقال: (أبايعكم علىٰ أن تبايعوني علىٰ السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلىٰ النفقة في العسر واليسر، وعلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلىٰ أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم وعلىٰ أن تمنعوني -إذا قدمت عليكم- مما تمنعون منه نساءكم وابناء كم وأن لا ننازع الأمر أهله) (٢٣٢)

كانت شروط البيعة واضحة لا لبس فيها وعلىٰ الرغم من ذلك قام العباس بن عبادة بن نضلة وهو ممن أسلموا وحضروا البيعة الأولىٰ (من الرعيل الأول ليثرب) فقال: هل

(٢٣١)ابن هشام ١\٤٤٠، ٤٤١

(٢٣٢)رواه الإمام أحم بإسناد حسن، وصححه الحاكم وبن حيان وأضاف له ابن اسحق الجملة الأخيرة – أنظر مختصر سيرة الرسول للنجدي ص ١٥٥

تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا نعم فقال: (إنكم تبايعونه علىٰ حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، أو أشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا ولآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه علىٰ نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة)

قالوا:

فإذا نأخذه علىٰ مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟

قال رسول الله ﷺ كلمة واحدة (الجنة)

قالوا: أبسط يدك يا رسول الله

فأخذ أسعد بن زرارة بيد رسول الله ﷺ حتىٰ لا يبسط لهم يده وكان أصغر الثلاثة والسبعين سناً وكان هو الداعية الكبير والذي آمن علىٰ يديه هو ومصعب بن عمير العديدين وقال: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة للعرب كافة، وقتل خياركم، وإن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون علىٰ ذلك فخذوه، وأجركم علىٰ الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله[٢٣٣]

قالوا: يا سعد، أمط عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها[٢٣٤]

كان أول من بايع (البراء بن معرور) فقال: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع أُزرنا فبايعنا يا رسول الله.

أما (أبو الهيثم بن تيهان) فقال: إن بيننا وبين الناس حبالاً، ونحن قاطِعوها، فهل عسيت -إن أظهرك الله- أن ترجع إلىٰ قومك وتدعنا؟

تبسم رسول الله وقال: لا والله بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم.

---

(٢٣٣)رواه الإمام أحمد من حديث جابر

(٢٣٤)المصدر السابق

وبدأت البيعة العامة، وقام إلىٰ رسول الله رجلا رجلا يبايعونه بمصافحة اليد، أما بيعة المرأتين فكانت بالقول دون المصافحة، وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله انتخاب اثني عشر نقيبـًا، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة فقال لهم: أخرجوا إلىٰ منكم اثني عشر نقيبـًا، ليكونوا علىٰ قومكم بما فيهم، فتم انتخابهم في الحال فكانوا تسعة من الخزرج وهم:

- اسعد بن زرارة نقيبـًا لبني النجار
- سعد بن الربيع بن عمرو نقيبـًا لبني الحارث بن الخزرج
- عبد الله بن رواحة بن ثعلبة نقيبـًا لبني الحارث بن الخزرج
- رافع بن مالك بن العجلان نقيبـًا لبني زريق
- البراء بن معرور بن صخر نقيبـًا لبني سلمة
- عبد الله بن عمرلاو بن حرام نقيبـًا لبني سلمة
- عبادة بن الصامت بن قيس نقيبـًا للقوافل
- سعد بن عبادة بن دليم نقيبـًا لبني ساعدة
- المنذر بن عمرو بن خنيس نقيبـًا لبني ساعدة

وثلاثة من الأوس:

- أسيد بن خضير بن سماك نقيبـًا الأوس
- سعد بن خيثمة بن الحارث نقيبـًا لبني عوف
- رفاعة بن المنذر بن زبير[٢٣٥]أو أبو الهيثم بن التيهان، نقيبـًا الأوس (اختلفت المصادر)

ولما تم انتخاب هؤلاء قال لهم رسول الله: أنتم علىٰ قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسىٰ بن مريم وأنا كفيل علىٰ قومي.

(٢٣٥) تختلف المصادر في هذه المعلومة

كانت بيعة صادقة، ولم تمض لحظات إلا واختبرت البيعة اختباراً عملياً.

الشيطان يصرخ

وصاح مجهول بأنفذ صوت قائلا (يا أهل الأخشاب (المنزل) هل لكم في محمد والصباة معه؟ قد اجتمعوا علىٰ حربكم) فقال رسول الله ﷺ (هذا أزب العقبة، أما والله يا عدو الله لأتفرغن لك)

فقال العباس بن عبادة بن نضلة في أول بادرة بالاستعداد لتنفيذ بنود المعاهدة (والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن علىٰ أهل منىٰ غداً بأسيافنا)

فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم:

(لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلىٰ رحالكم) فرجعوا.

لما أصبح الصبح غدت عليهم جِلة قريش فقالوا: إنه قد بلغنا أنكم جئتم صاحبنا البارحة، تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه علىٰ حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم وقد قيل ذلك في حضور من بايع ومن لم يسمع عن الأمر ولم يبايع وكانوا الأكثرية بينهم فانبرىٰ من لم يبايعوا وحلفوا بالله أن ما كان من هذا شيء. وقال كبير القوم عبد الله بن أبي بن سلول وكان علىٰ شركه ويستعد أن يتوج ملكـاً علىٰ يثرب (هذا باطل، ما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا عليَ بمثل هذا)

فاطمأن المشركون وانصرفوا، ولكن بعد رحيل الأنصار، صح الخبر عند قريش، فخرجوا في طلبهم، فلم يدركوا إلا سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو الذي أعجزهم أما سعد فقد سقط في أيديهم فسألوه: أأنت علىٰ دين محمد قال: نعم فربطوا يديه إلىٰ عنقه وسحلوه من شعره وهم يضربونه حتىٰ أدخلوه إلىٰ مكة، فجاء المطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم بين، وفي هذه الأثناء علم الأنصار فهموا أن يكروا إليه، فإذا هو قد طلع عليهم فتابعوا المسير إلىٰ يثرب، كانت كل تلك الأحداث تمثل المؤشر الإيجابي لقرار رسول الله بالسماح والتخطيط بالهجرة حفظـاً للدعوة وللمسلمين فالأنصار قد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وتسير الدعوة قدمـاً فيهم وكأن رسول الله يسقي في أرض جدباء متعطشة فيغرس فيها محبة الله ويجني مجد الإسلام من ثمراتها.

١٤- بداية هجرة المسلمين والتآمر لقتل رسول الله

• بداية هجرة المسلمين

أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلىٰ يثرب أثناء الحجيج، ففرح المسلمون لقرب الفرج فكان أول من هاجر إليها أبو سلمة بن عبد الأسد وزوجته أم سلمة (التي صارت أم المؤمنين فيما بعد) رضي الله عنهما، وقد حبسها أهلها من بني مخزوم وهي في الطريق مع زوجها سنة، إذ قال أصهار أبو سلمة له: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ فعلام نتركك تسير في البلاد بها، فأخذوا منه زوجته أما ولدها فقد غضب آل أبي سلمة وتجاذبوا الغلام مع أهلها حتىٰ خلعوا يدهوأخذوه منها، فكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها ليثرب وضياع ابنها عند أهل زوجها وحيدة، تخرج كل غداة تبكي بالأبطح حتىٰ تمسي، فرق لها أحد أقربائها وقال: ألا تخرجوا هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها، فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت ثم خرجت بعد ذلك هي وولدها إلىٰ المدينة وقد لحقها طلحة بن أبي طلحة فأوصلها لمشارف يثرب وهو علىٰ شركه مروءة، وخرج المسلمون بعد أبي سلمة أرسالا، يتبع بعضهم بعضاً في تكتم شديد بسبب ما لاقىٰ أبو سلمة وأم سلمة ولما أراد صهيب الهجرة قالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك؟ والله لا يكون أبداً فقال لهم إني قد جعلت لكم مالي، فتركوه ولما علم رسول الله بذلك قال: ربح صهيب، ربح صهيب. وتسرب مئتان من المسلمين من مكة مع الحجيج العائد خلال بضعة أسابيع إلىٰ يثرب، واستيقظت قريش علىٰ تلك الحقيقة الواقعة المؤلمة بالنسبة إليهم، فاليثربيون علىٰ بعد جغرافي آمن للمسلمين، وهم في نفس الوقت علىٰ قرب جغرافي خطر علىٰ القرشيين، وهم في كثرة عددية تفوق قريش، وهم كمجتمع إنتاجي مزارعون فيكتفون طعاما، وقريش كمجتمع برجوازي يعيش علىٰ الاقتصاد الريعي من التجارة والسياحة الدينية في وضع خطر، وقريش مجتمع متماسك علىٰ الشرك ففي الشرك مصالحهم والكسب المادي منه ولقد عجز رسول الله من اختراق هذا التماسك اختراقاً مؤثراً، ويثرب مجتمع مفكك يتحكم فيه اليهود ويتعطش الأوس والخزرج للوحدة ولسوف يوحدهم محمد، وهم مقاتلون ويتحكمون في طرق تجارة قريش مع الشام، وهم فوق هذا وذاك أخوال قريش علموا أن الدعوة الإسلامية نجحت في الانتشار بين أرجاء أهلها عن طريق فتىٰ كان معتاداً علىٰ

الرفاهية وهو مصعب بن عمير، فكيف سيكون الحال لو اكتمل المسلمون هناك؟ وما هو المصير إن وصل محمداً إليهم بشخصيته الفذة وتأثيره الآسر والمعتاد على الكفاح والصبر؟ وأين ستؤول الأمور إن اجتمع مؤمنوا مكة مع مؤمني يثرب في دين واحد؟ قررت قريش أن تمنع الهجرة للمدينة وغلبوا من تبقى من المسلمين على البقاء، كان من بين المهاجرين نماذج عدة تغلب نعمة الإيمان على محنته فجندب بن ضمرة كان قد بلغ من الكبر عتياً وقد سمع قول الله تعالى في سورة النساء (الآية ٩٧) (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض) فقال لأولاده (أنا لست من المستضعفين) سأهاجر للمدينة، فحاول أولاده أن يمنعوه ولكنه ركب راحلته متجها للمدينة، فمات في الطريق من المشقة فقال الصحابة لما سمعوا ليته مات بالمدينة ليظفر بثواب الهجرة فأنزل الله الآية ١٠٠ (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما) وهاجر حمزة بن عبد المطلب تاركا زوجه وابنته في مكة، وفي نهاية السنة الثالثة عشر من النبوة لم يكن عمر بن الخطاب قد هاجر بعد، فتحداهم عمر بقوته وجرأته وقدرته على البطش بمن قد يحاول إثنائه عن الهجرة، فقد تلقى أوامره من رسول الله بالهجرة وعليه التنفيذ، فهي ليست كالهجرة للحبشة فراراً بالدين، بل هي هجرة لنشره ولحمايته وهنا مكمن دوره فتقلد عمر بن الخطاب سيفه، وتنكب قوسه وانتقى من يده أسهما ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ينظرون، فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلى وبعدها وقف على جماعتهم واحدا واحداً فقال: (شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يثكل أمه، أو يوتم ولده، أو يرمل زوجته، فليلقاني وراء هذا الوادي) وتبع عمر قوم من المستضعفين وكان قد تواعد مع عياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي بن وائل موضعا يلتقون فيه عنده، ولكن المشركين استطاعوا أن يحبسوا هشام بن العاصي، وبعد أن وصل عمر وعياش إلى قرب يثرب وعند قباء لحق بهما أبو جهل وأخوه الحارث بن هشام، فخاطبا عياش وهو أخوهما الغير شقيق فقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك فرق قلب عياش، ولكن عمر فطن أنها مكيدة له فقال: يا عياش إنه والله أن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، والله لو آذى القمل أمك لامتشطت، ولو اشتد عليها الحر لاستظلت. ولكن عياش قد غلبته

مشاعره، وذهب معهما وفي الطريق أوثقاه ودخلا به مكة وقالا: يا أهل مكة هكذا نفعل بسفيهنا، فافعلوه بسفهائكم، ولم يبق في مكة من رجال المسلمين القادرين علىٰ الهجرة إلا رسول الله وأبو بكر وعلي وتتابعت هجرة المسلمين ورسول الله مقيم حيث هو لا يعرف أحد هل اعتزم الإقامة أم الهجرة واستأذن الصديق في الهجرة فقال له رسول الله (لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبـًا) ولم يزد علىٰ ذلك.

- **تآمر قريش الخامس مع الشيطان لقتل رسول الله**

أعد رسول الله جهازه ينتظر، وتجهز أبو بكر فقال له رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم:

(علىٰ رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي) فقال أبو بكر الصديق: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ قال له رسول الله: نعم، فرح أبو بكر وأعد عدته، وفطنت قريش أن دار هجرة المسلمين دار منعة، وهم يعلمون تمامـًا كما ذكرنا أن القوم في يثرب أهل حلقة وبأس، ولو خرج محمداً إليهم مهاجراً يشتد أمره عليهم فبادروا في نهار يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر في السنة الرابعة عشر من النبوة الموافق الثاني عشر من سبتمبر عام ٦٢٣ م [٢٣٦] إلىٰ الدعوة للاجتماع السري في دار الندوة (برلمانهم) لإعداد ما ينبغي عليهم القيام به ضد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وكان حرصهم أن يكون الاجتماع سريا يحضره أولو الرأي والمشورة منهم علىٰ ألا يدعون له أحد من آل عبد المطلب، والمتأمل يلحظ تمثيل البطون السبعة وغياب تمثيل بني تيم المنتسب أبو بكر لها وبني عدي والمنتسب عمر لها أيضا، فجاءوا دار الندوة فكان الأربعة عشر الحضور

- أبو جهل بن هشام عن قبيلة مخزوم
- جبير وطعيمة ابنا مطعم بن عدي، والحارث بن عامر عن بني نوفل
- شيبة وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب عن بني عبد شمس
- النضر بن الحارث عن بني عبد الدار
- أبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود وحكيم بن خرام عن بني أسد
- نبيه ومنبه ابنا حجاج عن بني سهم
- أمية بن خلف عن بني جمح

(٢٣٦) محمد سليمان المنصور المنصورفوري – رحمة للعالمين ١\٩٥، ٩٧، ١٠٢، ٢\ ٤٧١. ولكننا نستدل علىٰ أنها كانت في الشتاء لأن الغطاء بالبردة قد دل علىٰ هذا الفصل وربما كان الجو بارداً في الليل والله أعلم

ولما جاءوا إلىٰ دار الندوة حسب الميعاد السري وجدوا شيخا واقفـًا علىٰ الباب، فقالوا من الشيخ فقال لهم: من أهل نجد سمع بالذي اتعتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسىٰ أن لا يعدمكم منه رأيـًا ونصحـًا، قالوا: أجل، فادخل فدخل معهم سمحوا له بالدخول معهم طالما يعلم بالأمر دون أن يعلموا من يكون، فلئن منعوه لا يطمئنوا إلىٰ إفشاء الأمر، لم يعلموا أنه هو الشيطان الذي صاح ليلة العقبة الكبرىٰ، وإن علموا بأنه الشيطان أو صرح لهم بذلك لأدركوا أنهم علىٰ ضلال، وحيل الشيطان عديدة وواهية

وهكذا فعل مع باقي الأنبياء والرسل من أولو العزم، حتىٰ المسيح عليه الصلاة والسلام فبعدما تصرمت أربعون ليلة وعيسىٰ في مناجاته وهو علىٰ قمة الجبل صائما متفردا بالمناجاة إلىٰ الله، حاول الشيطان غوايته بملك الدنيا علىٰ أن يعبده، وأرجعه نبي الله عيسىٰ خاسرا مذموما قائلا له (مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد) فقال له الشيطان (سأضل بك يا عيسىٰ بشرا كثيرا، وأبث فيهم أهواء مختلفة وأجعلهم شيعا، ويجعلونك وأمك إلهين من دون الله) [٢٣٧] ، وحينما كان يعظ المسيح عليه الصلاة والسلام قال (إن الشيطان يحاول تعطيل الشريعة دائما، هو وحزبه من المرائين والأشرار، ذلك بتعاليم المرائين، وخلاعة الأشرار ومجونهم حتىٰ ضاع الحق)

وهكذا التقىٰ شياطين الأنس من المرائين والأشرار من قريش مع شياطين الجن علىٰ التآمر علىٰ دين الله ورسوله محمد صلىٰ الله عليه وسلم.

ولما اجتمعوا، تداولوا وقلبوا وجوه الرأي، فاقترح زمعة بن الأسود أن يخرجوا رسول الله نفيـًا، ورد الشيطان (علىٰ هيئة الشيخ النجدي) هذا الرأي خشية أن يحل علىٰ حي من العرب فيتابعوه ويطأهم في بلادهم، واقترح أبو البختري أن يحبسوه في الحديد حتىٰ يموت كما فعلوا بزهير والنابغة (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) [٢٣٨] ورد الشيطان هذا الرأي فهذا الحبس لن يبطل خروج أمره للناس فينزعوه من أيديهم فيغلبونهم، وهنا تقدم أبو جهل [٢٣٩] باقتراحه فقال:

---

(٢٣٧)الأنفال ٣٠

(٢٣٨)ارجع إلىٰ الجزء الأول {بيئة المسيح]

(٢٣٩)كلهم قتلوا بقطع الرقاب

والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرىٰ أن نأخذ من كل قبيلة رجلاً، ثم نعطي كل منهم سيفاً صارماً فيعمدوا إليه، فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فيتفرق دمه بين القبائل فلا يقدر بنو عبد المطلب علىٰ حرب قومهم جميعاً فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم،

تفكير شيطاني آثم خرج به شيطان الإنس، فقال الشيطان (علىٰ هيئة الشيخ النجدي) : القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، والتقىٰ شيطان الجن مع شيطان الإنس، ووافق برلمان حزب الشيطان علىٰ الاقتراح بالإجماع، وخططوا علىٰ التنفيذ في منتصف الليل.

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك، ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين) [(٢٤٠)]

لكن الله غالب علىٰ أمره فأنزل سبحانه وتعلىٰ جبريل عليه السلام بوحي منه فأخبر رسول الله ﷺ بذلك وقال له: لا تبت هذه الليلة علىٰ فراشك الذي كنت تبيت عليه [(٢٤١)] وجاء رسول الله ﷺ في منتصف النهار إلىٰ بيت أبي بكر متقنعا وقال له: إن الله قد أذن لي في الخروج، فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله

قال عليه الصلاة والسلام: نعم فقال أبوبكر: فخذ بأبي أنت وأمي إحدىٰ راحلتي هاتين. فقال عليه الصلاة والسلام (بالثمن) واختار القصواء.

علي بن أبي طالب أول فدائي في الإسلام.

عاد رسول الله إلي بيته وفي المساء وأمر علياً بن أبي طالب أن ينام علىٰ فراشه ويتغطىٰ ببردته الحضرمية الخضراء وأمره أن يؤدي عنه ودائع الناس التي أودعها الناس عنده ومنهم الكفار! وكان علي رضي الله عنه وأرضاه بذلك يؤكد ما أقسم به عند بدء الدعوة حينما قال في صباه (أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب علىٰ من حاربت) وكان شديد الشبه برسول الله ولما توجه رسول الله إلىٰ خارج الدار كان المجرمون قد اختاروا أحد عشر رجلاً منهم فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا علىٰ بابه يرصدونه متىٰ نام وهم:

---

(٢٤٠)الأنفال ٣٠

(٢٤١)بن هشام ١\٤٨٢ وزاد المعاد ٢\٥٢

- أبو جهل بن هشام
- والحكم بن العاص
- وعقبة بن أبي معيط
- و النضر بن الحارث
- وأمية بن خلف
- زمعة بن الأسود
- وطعيمة بن مطعم بن عدي
- جبير بن مطعم بن عدي
- وأبي بن خلف
- ونبيه بن الحجاج
- ومنبه بن الحجاج

كانوا علىٰ غرور من نجاح المؤامرة حتىٰ أن أبا جهل وقف بخيلاء يخاطب أصحابه المطوفين ببيت رسول الله ويقول (إن محمدا يزعم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من موتكم فجعلت لكم جنان كجنات الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم جعلت لكم بعد ذبحكم ناراً تحرقون فيها) ولما خرج رسول الله ﷺ وجدهم أمامه فكانت معجزات الحفظ والعصمة من الأذىٰ والانتقام ونصرة الله وفيها التدخل الإلهي لما يكفل إنفاذ أمر الله ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ۝وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَٰلِدِينَ ۝ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [٢٤٢]

فيحفظ الله الأنبياء حتىٰ يوفوا مهمتهم لأداء الرسالات المنوطين بإبلاغها، ولو أننا تأملنا الأحداث التي انقضت علىٰ الدعوة نلحظ أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، لم يكن اعتماده في نشر الدعوة علىٰ خوارق حسية في صورة المعجزة، وإنما علىٰ قدرته الشخصية في الحث علىٰ إيقاظ الضمائر وملكات الفضيلة إلا أن الله تعالىٰ كان يدخر له من معجزات

(٢٤٢)الأنبياء من ٧-٩

الحفظ الكثير يراها كل من يقترب منه ﷺ بأي محاولة في الأذىٰ فتتجلىٰ قدرة الله في الحفظ بما يحقق الإيفاء بتبليغ الدعوة وجد رسول الله ﷺ أحد عشر رجلاً خارج باب بيته في انتظار الانقضاض عليه بسيوفهم حسب الخطة الموضوعة، فمر من بينهم، واخترق صفوفهم ولم يروه !!!وبقدرة خير الحافظين جعل الله من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً ولم يبصروه بأبصارهم وكأنهم عميانا فقد أخذ بأبصارهم عنه وأغشاهم وأنزل الله سورة يس تحصنه (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وجعل رسول الله ﷺ يتلو الآيات العشر الإولىٰ من سورة يس وهو يخترق صفوفهم، وبقي المحاصِرون ينتظرون لحظة التنفيذ، يتطلعون من آن لآخر من صير الباب فيرون علياً رضي الله عنه وعليه بردة رسول الله الخضراء فيحسبونه رسول الله فلا يبرحون مكانهم في انتظار ساعة الصفر، وتكررت معجزات الحفظ لجميع رسل الله كما نعلم، ولئن استعرضنا معجزات الحفظ لرسول الله عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بما أوضحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب لوجدنا منها الكثير، ففي حادثة واحدة منها نرىٰ اليهود انطلقوا في حماس إلىٰ عيسىٰ كي يمسكوا به ويحاكموه بتهمة خرق السبت ولما هموا به ليمسكوه حفظه وعصمه الله منهم وكف بني إسرائيل عنه وقول الله تعالىٰ في سورة المائدة الآية ١١٠ (وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) وكذلك حفظ الله له واشتباههم ليهوذا وصلبه بدلا من عيسىٰ عليه السلام، وقد أخذ قدوة العالمين بالأسباب وأمعن ﷺ في الحيطة – رغم يقينه بحفظ الله له – إذ بعدما توجه إلىٰ أبي بكر الذي أخذ جميع ماله معه وكان ستة آلاف درهم، وخرجا من خوخة في ظهر بيت أبي بكر إمعانا في الاختفاء، وخرجا في موعد غير مألوف للسفر وكان أبو بكر قد أعد عدته بالاتفاق مع (عبد الله بن أريقط الليثي) كدليل لهما في الطريق وهو علىٰ شركه وكان ماهراً بالطريق، وانطلق الركب جنوباً إلىٰ غار ثور نحو اليمن، أي في اتجاه غير مألوف لا يرد ببال من قد يأتي من ورائهما فليس لدىٰ رسول الله شك في أن قريش ستتبعهما فالاتجاه ليثرب إلىٰ الشمال أما الاتجاه لليمن نحو الجنوب يعطي الانطباع بأن الهجرة قد تكون للحبشة أو لأي مكان آخر كذلك لم يعلم بمخبئهما سوىٰ عبد الله بن أبي بكر وأختيه عائشة وأسماء ومولىٰ أبي بكر (عامر بن الفهيرة) وكلهم من المسلمين ولما وصلا الغار عاد بن أريقط بالراحلتين علىٰ أن يعود إليهما بعد ثلاثة أيام، وبدأ رسول الله رحلة الهجرة من أحب بقاع الأرض إلىٰ

نفسه بشعور أيْ وطني يحب موطنه والوطنية من مكارم الأخلاق ولا تتعارض مع الدين مع رسول الله ولا لأي مؤمن ويتذكر رسول الله ما قاله ورقة (هذا الناموس الذي نـزَل الله علىٰ موسىٰ، يا ليتني فيها جَذعـًا، ليتني أكون فيه حيـًا إذ يخرجك قومك)

كانت مهمة عبد الله بن أريقط هو ما يؤجر عليه، وكانت مهمة (عبد الله بن أبي بكر) الصديق هو الاستماع إلىٰ ما يحدث بمكة ليقصه علىٰ النبي وعلىٰ أبيه، يبيت معهما وهو غلام طيلة الليالي فيعود قبيل الفجر فيصبح مع قريش، أما (عامر بن الفهيرة) فكان يرعىٰ الغنم فيحتلبها ويذبح ما يذبح منها حتىٰ إذا ما عاد عبد الله، فتأخذ (أسماء) الحليب والطعام لهما وتعود، ثم يعود عامر بن الفهيرة بالغنم فيمحي أثر سير عبد الله وأسماء بحوافر الغنم، خطة بشرية دقيقة ومحكمة.

في ساعة الصفر مر بهم رجل فسألهم: ما تنتظرون؟ قالوا: محمد، فقال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم. فاقتحموا الباب فقام علي من فراشه فسقط في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ فقال: لا علم لي به

١٥- المطاردة:

استشاط الكفار غضبـًا من فشلهم الفاحش وأغلظوا علىٰ علي رضي الله عنه وما حصلوا منه علىٰ شيء، فهرولوا إلىٰ بيت أبي بكر، وقرعوا الباب، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر فقالوا لها:أين أبوك؟، قالت: لا أدري فلطمها أبو جهل فطرح منها قرطها، وكان جدها (أبو قحافة) سعيدا بما يحدث لحفيدته ولما خرج القوم عايرها بن باها ما ترك لها مالا، وكان أعمىٰ، فجمعت حصىٰ ووضعته في صرة لإيهامه بالمال.

واجتمعت قريش في دار الندوة علىٰ عجل للبحث في فشلهم، فقرروا وضع جميع الطرق النافذة خارج مكة تحت المراقبة الشديدة، ورصدت مكافأة قدرها مائة ناقة لمن يعيد رسول الله وأبا بكر حيين أو ميتين.

١٦ - غار ثور

أقام رسول الله ﷺ مع أبي بكر ثلاثة أيام في الغار، وطلبهما المشركون طيلة الأيام الثلاثة، ووصل المطاردون إلىٰ باب الغار فقد أكد لهم مقتفي الأثر أنهما بالغار، وقد كان

أبرع من يقتفي الأثر، وإمعانا في التحقق سألوا راعياً للغنم يرعىٰ بالقرب من الغار فقال (قد يكونا بالغار ولكني لم أر أحداً قد أمه) فصعدوا الجبل ووقفوا علىٰ مقربة من الغار، وتصبب أبو بكر عرقاً فأمسك أنفاسه وأسلم أمره لله ليس خوفا علىٰ نفسه ولكن خوفا علىٰ الدعوة ورسول الله، وأمعن رسول الله في الصلاة ويقترب أبو بكر من رسول الله يلتصق به خوفا، وقفوا علىٰ باب الغار فنظروا فقال أبو بكر لما شعر بدنو الباحثين هامساً لرسول الله (لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا) فقال له رسول الله (يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما) وكان أبو بكر في شدة الحزن فقال له رسول الله ﷺ بين مخاوفه وقلقه (لا تحزن إن الله معنا) وتظهر أخلاق الأنبياء وتتطابق مع ما أكده موسىٰ عليه الصلاة والسلام حينما قال بثقة البديهة (إن معي ربي سيهدين) إلا أن موسىٰ كانت لديه العصا، أما محمد فلديه اليقين بمعية الله.



وكان التدخل الإلهي، فكانت معجزات الحفظ والعصمة من الأذىٰ إذ قد أيده الله بجنوده ولم يرها ليجعل الله كلمة الذين كفروا السفلىٰ وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم.

وفي ذلك أنزل الله تعالىٰ فيما بعد في سورة التوبة بالآية رقم ٤٠

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها

وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلىٰ وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)

ورأىٰ أبوبكر كل هذا [٢٤٣]، وكانت معجزة الحفظ تلك هي أول ما رأىٰ بأم عينه، ذلك إن استثنينا ما حدث من أم جميل زوجة أبي لهب ومعها.

١٧- سراقة بن مالك بن جعشم

في اليوم الثالث، أتت أسماء بالطعام فلما ارتحلا لم تجد ما تعلق به الطعام والماء في رحالهما غير نطاقها فشقته وعلقت الطعام لهما بنصفه وانتقطت بالنصف الآخر فسميت ذات النطاقين منذ ذلك الحين، امتطىٰ رسول الله القصواء وامتطىٰ أبو بكر ناقته يحمل معه كل ماله وسلك لهما الدليل طريقا ممعنا في التخفي إلىٰ الجنوب، ثم إلىٰ تهامة في اتجاه البحر الأحمر، فهو طريق أيضا لم يألفه الناس محاذياً لشاطئ البحر، فأقبل علىٰ قريش رجل كان قد رأىٰ ركبة من ثلاثة يعتقدهم محمد وبعض أصحابه، وهنا سمعه سراقة بن مالك بن جشعم وكان حاضراً، فطمع في الجائزة والتي تبلغ مائة ناقة وحده فقال ليضلل من سمع فيستأثر بالجائزة وحده: إنهم بنو فلان، ومكث سراقة مع القوم قليلا ثم عاد إلىٰ بيته فتدجج بالسلاح وأمر جاريته أن تخرج فرسه، فركبه متخفياً وانطلق وهو يجهد فرسه إلىٰ حيث مراده وكبي جواده مرتين، ثم زجرها فنهضت فلما استوت ركب فرسه، ولما اقترب من رسول الله وصاحبه ورأىٰ أنه وشيك النجاح وأنه مدركهما فرادهما إلىٰ مكة أو قاتلهما إن قاوماه، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله ! هذا سراقة بن مالك قد رهقنا، فدعا عليه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فساخت يدا فرسه في الأرض حتىٰ بلغت ركبتيها فسقط عنها سراقة، وتطير فألقي في روعه أن الآلهة مانعته، وأنه معرض للهلاك، فصاح سراقة: أنا سراقة بن مالك بن جشعم، انظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيئاً تكرهونه وقد علمت أن الذي أصابني بدعائكما، فادعوا الله لي ولكما أن أرد الناس عنكما، فدعا له رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فخلصت يدا فرسه فانطلق، وهنا سأل رسول الله أن يكتب له كتاباً، فكتب له أبو بكر بأمر الرسول له في جلد مدبوغ وكان الكتاب معه إلىٰ يوم فتح

(٢٤٣)رأىٰ أبوبكر أقدام المطاردين، ولو نظر أحدهم أسفل قدميه لرأىٰ من في الغار، وإن كان أبو بكر لم ير كيف أغشىٰ الله عصابة التآمر علىٰ رسول اله بقيادة أبي جهل فجعل من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فقد رأىٰ كيف أغشاهم الله عند الغار، أما قصة العنكبوت والحمامتان والشجيرة فلا سند حقيقي لها، وما هي إلا تهافت لإلصاق المعجزات بدليل النص القرآني وأيده بجنود لم تروها

مكة، ولما رجع لمكة جعل يقول للناس: قد استبرأت لكم الخبر وقد كُفيتم ها هنا، وهكذا كان أول النهار جاهداً عليهما، وكان آخره حارساً لهما[٢٤٤] وكان التدخل الإلهي مرة أخرىٰ وكانت معجزات الحفظ والعصمة من الأذىٰ أمام صحبة رسول الله، تصديقا لقول الله في سورة الأنبياء (﴿ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

١٨-أم معبد الخزاعية

وانطلق الركب، ومر في مسيرة ذلك اليوم القائظ حتىٰ مر الركب بخيمتي امرأة تدعىٰ أم معبد الخزاعية، وهي امرأة جلدة، تختبئ بفناء الخيمة تطم وتسقي من مر بها، فسألها رسول الله:

هل عندك شيء؟ قالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرىٰ والشاة عازب، وكانت سنة شهباء، فنظر رسول الله ﷺ إلىٰ شاة في كسر الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال صلىٰ الله عليه وسلم: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك، فقال الرسول الكريم بأدبه المعهود صلىٰ الله عليه وسلم: تأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فكانت أمام أبو بكر معجزة من معجزات البركة والرزق وهي لازمة لجميع الأنبياء والرسل فما كانت مائدة السماء لرسول الله عيسىٰ بن مريم إلا مثلا لما يمد الله الأنبياء به فتكون علامة عليهم (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً)

مسح رسول الله ﷺ بيده علىٰ ضرع الشاة المجهدة العجفاء فرفع وجهه للسماء ثم دعا الله، فتفاجت عليه ودرت، فطاب إناء لها، فحلب فيه حتىٰ علته الرغوة، وأبو بكر ينظر بسعادة، فسقىٰ رسول الله أم معبد فشربت حتىٰ رويت، وسقىٰ أصحابه حتىٰ رووا، ثم شرب، وحلب ثانيا حتىٰ ملأ الإناء، وغادرها وارتحلوا، وأم معبد تنظر مندهشة، ما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزلاً، فأبصر إناء اللبن فقال: من أين لك

(٢٤٤)قصة سراقة مع رسول الله جمعت بتصرف من زاد المعاد – الرحيق المختوم – مختصر سيرة الرسول – حياة محمد لمحمد حسين هيكل

هذا والشاة عازب ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله إلا أنه مر بنا اليوم رجل مبارك كان حديثه كيت وكيت ومن حاله كذا وكذا.

قال: صفيه لي

فوصفته

فقال: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلىٰ ذلك سبيلا.

وانطلق الركب مرة أخرىٰ، في تهامة وفي قيظ الحر، لا يجدان ما يتقيان به شواظ الهاجرة، وظلا كذلك سبعة أيام متتالية.

١٩- أول مسجد بني في الإسلام

وصل الركب الشريف يوم الإثنين في الثامن من ربيع الأول في السنة الرابعة عشر من النبوة(٢٤٥) إلىٰ قرية قباء علىٰ بعد يزيد علىٰ ثلاثة كيلومترات جنوب يثرب وهي أرض خصبة وكان بها من الحدائق والأعناب والنخيل وأشجار تين ورمان.

كان كلثوم بن الهدم بن أمرئ القيس شيخاً كبيراً أسلم قبل وصول رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وكان شيخ قبيلة بني عمرو بن عوف وهم بطن من بطون الأوس، فاستقبل كلثوم النبي صلىٰ الله عليه وسلم، فأقام رسول الله عنده أربعة أيام (من الإثنين حتىٰ الخميس) قام خلالها رسول الله ﷺ بتأسيس وبناء أول مسجد في الإسلام وقد ذكره الله تعالىٰ كمسجد أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم، أما أبو بكر الصديق رضىٰ الله عنه فقد نزل علىٰ حبيب بن إساف بالسنح.

في هذه الفترة قدم علي كرم الله وجهه ورضي عنه إلىٰ قباء بعد أن أدىٰ عن رسول الله الودائع التي كانت عنده إلىٰ الناس، ولما وصل نزل علىٰ كلثوم بن الهدم ومعه الفواطم وأم أيمن وولدها أيمن ومجموعة من ضعفاء المؤمنين، كان علي كرم الله وجهه عنه أثناء

---

(٢٤٥)رحمة العالمين ١\١٠٢- وفي هذا اليوم أتم رسول الله ﷺ ثلاثة وخمسين عاما كاملاً وأتم علىٰ نبوته ﷺ ثلاثة عشر عامًا كاملاً لأنه ﷺ قد أكرم بالنبوة في التاسع من ربيع الأول سنة ٤١ من عام الفيل بأن كان عليه الصلاة والسلام يرىٰ في المنام رؤية تبلج كفلق الصبح، وكانت تلك أولىٰ علامات النبوة، ثم أكرمه الله جل وعلىٰ بالقرآن في رمضان من سنة ٤١ من عام الفيل بعد ستة أشهر من النبوة، والله أعلم

مسيرته في الهجرة يصطحب على الراحلة الفواطم وأم أيمن وهن من النساء، يسير الليل ويكمن بالنهار وآثر عليا رضي الله عنه ألا يسرن أو تسير إحداهن ويركب هو في أي مرحلة من مراحل الطريق، حتى تفطرت قدماه، فلما رآه النبي ﷺ بكى واعتنقه رحمة به لما ألم بقدميه من الورم، فتفل عليه الصلاة والسلام ومررهما على قدمي علي، وبرئ علي تماما، فهل في تفل نبي الله علاجا؟، ولنتذكر ما فع تفل عيسى عليه الصلاة والسلام فيشفي الأعمى وما سيفعل تفل رسول الله مع على في غزوة خيبر.

في يوم سبت جلس رجل أعمى أمام الهيكل ورآه عيسى فتقدم إلى الأعمى وتفل على الأرض وجعل من التفل والتراب طينا طلى به عيون الأعمى وقال له (اذهب واغتسل في بركة سلوام) [٢٤٦] ولقد ذكر لنا القرآن أن نبي الله عيسى قد أبصر الأعمى، فسبحان الله العلي العظيم، وما أشبه هذه بتلك. وكان جليا بذلك كما بدت التطورات أن بذور الإيمان قد أنبتت مائة ضعف عند أناس، وجفت إذ منع الماء عنها عند آخرين، وبذور سقطت على صخر القلوب فلما نبتت جفت وأخري أكلها الطير أما إرادة الله في يثرب فقد كانت مختلفة كما سنرى فهي تربة صالحة للزرع.

يقول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام:

(خرج زارع يزرع أرضه وفيما هو يزرع سقطت بعض البذور فأكلها الطير وسقطت بعض البذور على الصخر فلما نبتت جفت إذ لم تسق بماء وسقطت بعض البذور وسط الشوك فخنقتها وسقطت بعض البذور في تربة صالحة فأنبتت مائة ضعف) بعد انصراف الناس سأله حواريوه (ماذا تقصد بمثل الزرع والزراع) قال لهم: (الزرع هو كلام الله والذين على الطريق هم من يسمعون ويأتي إبليس فينزع الكلمة من قلوبهم، الذين على الصخر هم يقبلون الكلمة بفرح، ولكن تربتهم غير صالحة، وفي وقت التجربة، يرتدون.

الساقطون بين الشوك، هم من يسمعون، لكنهم يختنقون من هموم الحياة فلا يثمرون أما البذور التي تسقط على الأرض الطيبة، فهم من يسمعون الكلمة، فيحفظونها في قلوبهم الصالحة، فتثمر بالصبر)

---

(٢٤٦)انظر الجزء الأول بند ١٧ (بداية التآمر على المسيح للتخلص منه)

يقترب المعنىٰ كثيرا من حديث لرسول الله محمد ﷺ وفحواه أنه صلىٰ علي وسلم (مثلي كماء نزل من السماء علىٰ الأرض، فبقعة أنبتت زرعا أفاد الناس وبقعة كان قاعها صخرا فحجزت الماء فاستفاد منه الناس وشربوا، وسبخة ما أبقت علىٰ الماء وما أثمرت)

٢٠- أول خطبة جمعة

ركب النبي ﷺ يوم الجمعة يريد يثرب فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في المسجد الذي ببطن الوادي بمن معه من المسلمين وكانوا مئة، وهي أول جمعة صلاها بالمدينة وأول خطبة خطبها في الإسلام[٢٤٧] ركب بعد صلاة الجمعة راحلته القصواء، يريد يثرب والتي سميت المدينة.

وشعر رسول الله ﷺ أن لا طاقة له بهذا الأمر ولكنه مأمور بالهجرة ولا مناص من تنفيذ أمر الله فأنزل الله تعالىٰ برحمته الآية رقم ٨٠ من سورة الإسراء وفيها

(وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرا)

(٢٤٧) من كتاب محمد – لمحمد رضا ص ١٥٣

الفصل السابع

(وصول رسول اللّه إلى المدينة)

الفصل السابع

وصول رسول الله إلى المدينة

نشأة يثرب

العرب العماليق وجدوا في يثرب قديماً، وهم عرب ويرىٰ الطبري أن جدهم عمليق هو أول من تكلم العربية. كما أن أسفار التوراة ذكرتهم عدة مرات وسمتهم باسمهم العماليق حيناً وباسم الجبارين حيناً آخر. وذكرت أسماء بعض زعمائهم ومدنهم العربية، فقد عاصروا خروج بني إسرائيل من مصر، واصطدموا معهم في معارك عدة بمنطقة سيناء.

وقد عمر العماليق في يثرب ما شاء الله، ثم وفدت عليهم قبائل أخرىٰ ساكنتهم، فالوفرة التي وصل إليها العماليق جعلتهم يقبلون مساكنة الوافدين إليهم ليستفيدوا من العمالة الطارئة، فيخفف عنهم القادمون أعباء العمل في الأرض، ويجد أصحاب الأرض فرصة للتمتع بثرواتهم وما لبث الوافدون أن استثمروا بعض الأراضي التي لم يستثمرها العماليق في المنطقة، وتحولوا إلىٰ ملاّك وأثروا وجاروا العماليق في حياتهم، وخلال رحلة السنين الطويلة، حصل تزاوج وتمازج بين العماليق والقبائل الوافدة، وظهرت أجيال جديدة تحمل دماءً مختلطة، وما لبث العماليق المتميزون بضخامة الأجسام أن قل عددهم تدريجياً، ولكنهم لم ينقرضوا تماماً، بل بقيت منهم بقية إلىٰ ما بعد وصول اليهود إلىٰ يثرب ويذكر المؤرخ العربي ابن زبالة أن بني أنيف ـ وهم حي أقاموا مع اليهود قبل وصول الأوس والخزرج ـ كانوا منهم. وعندما وصل الإسلام إلىٰ (يثرب) لم يكن قد بقي منهم إلا أفراد قلائل تميزوا بطول القامة

اما هجرة اليهود إلىٰ يثرب فكانت علىٰ دفعات متتابعة في أزمان مختلفة ولا يعرف علىٰ وجه الدقة متىٰ كان سكنىٰ اليهود في يثرب أول الأمر، فقد ذكر السمهودي قولان في ذلك إلىٰ أن الوجود اليهودي في يثرب يعود لزمن النبي موسىٰ وفي قول آخر إلىٰ زمن نبوخذ نصر (وهو الأرجح) ثم حصلت بعد ذلك هجرة أخرىٰ إلىٰ يثرب فيقول ياقوت الحموي ((ثم إن الروم ظهروا علىٰ الشام فقتلوا من بني إسرائيل خلقا كثيرا فخرج بنو قريظة والنضير وهدل هاربين من الشام يريدون الحجاز الذي فيه بنو إسرائيل ليسكنوا معهم)) .

١-وصول الركب الشريف الي مشارف يثرب:

كان دين الله قد انتشر حثيثاً في يثرب بفضل من بايع بيعة العقبة الأولىٰ (وكانوا اثنا عشر رجلا) وازداد العدد بعد بعثة مصعب بن عمير ومن ثم في بيعة العقبة الثانية بايع (ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان) وتنامىٰ العدد أكثر وأكثر، ثم هاجر من المسلمين من هاجر من مكة، ناهينا عمن تبع من آمن من الأهل والعشيرة، فصاروا بالمئات.

ترامت الأخبار إلىٰ يثرب قبل مقدم النبي بهجرته وظلوا جميعـًا من المهاجرين والأنصار ينتظرون مقدمه بعدما سمعوا عنه ﷺ بنفوس ممتلئة شوقـًا لرؤيته، وبلغ من انتشار الإسلام بيثرب ومن بأس المسلمين فيها قبل هجرة الرسول إليها ما لم يحلم به مسلمو مكة وكانت الغالبية لم تره من قبل - وإن كانوا قد سمعوا عن أمره وعن سحر بيانه وعزمه وأخلاقه - كذلك كان أمر سادة يثرب الذين اتبعوه بعدما سمعوا عنه من أصحابه، فجعل كل هذا أهل يثرب في شغف واشتياق إلىٰ رؤيته، في هذه الفترة وقبل وصول نبي الله، كان لأحد سادتهم واسمه عمرو بن الجموح صنم من خشب في داره يدعوه مناة، ولما أسلم فتيان قومه كانوا يحملون هذا الصنم ليلا ويلقونه في إحدىٰ الحفر حيث يقضي الناس حاجتهم، فيبحث عمرو بن الجموح عن صنمه فيغسله ويرده لمكانه، حتىٰ فكر في أن يربط عليه سيفا فيدافع عن نفسه، فلما التمسه في اليوم التالي وجده في بئر مربوطا بكلب ميت وليس معه السيف، ولما غضب كلمه رجال قومه عن الإسلام فأسلم وهو يقول لصنمه (لو كان فيك خيرا لامتنعت) كان المنطق هو سيد الموقف، وكذلك كان الاحتياج.

كانت الظروف الاجتماعية والسياسية تحتم التغيير، وكانت يثرب تواقة إلىٰ قائد، فيثرب المدينة المنقسمة علىٰ نفسها والتي يعوزها القائد وتعوزها القدوة، تتوق إلىٰ أن تصبح مدينة رسول الله كما أسميت بعد وصوله إليها صلىٰ الله عليه وسلم.

ولكن، هل كان رسول الله قائدا؟، أم كان القدوة بل هو ليس بقائد، ويخطئ من يعتبره كذلك ولا يصح لنا التفكير فيه كقائد، فهو أسمىٰ وأعلىٰ من تلك النعات، كان نبيـًا رسولا من الله عز وجل، فالقائد والزعيم والسياسي والعبقري وغيرها من النعات ظلم له، وخروج عن مقتضيات الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، لم يكن رسول الله يبحث عن أي منصب دنيوي إذ كان يعف عن أي مكسب أو منصب، وحينما حاول المشركون في مكة

إغراؤه ﷺ بالملك أو المال عف عن كل ذلك وآثر الكفاح، فهاجموه وآذوه صلىٰ الله عليه وسلم، وفي المدينة أيضا، إذ لم يكن عفافه ﷺ في الملك فحسب بل شملت عفته المال والراحة والملك وفتنة النساء وكل ما يتعلق بالحياة الدنيا، حتىٰ الغضب عف عنه وفي يوم الجمعة (٩ ربيع الأول الموافق من العام الثالث عشر من النبوة ٢٧ من سبتمبر ٦٢٣ م) اقترب الركب الشريف أكثر وأكثر من المدينة ورسول الله ﷺ والحزين علىٰ مفارقة الوطن الحبيب، يتمتم آيات الله التي نزلت عليه (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانـًا نصيرا)

كان المهاجرون والأنصار قد استبطأوا رسول الله ﷺ فكانوا يغدون إلىٰ ظهر حرَة العصبة، فيتحينون قدومه عليهم من أول النهار حتىٰ تحرقهم الشمس فيرجعون إلىٰ منازلهم وهم يعجبون، فلقد نما إلىٰ علمهم يوم خروجه من مكة، ولا يدرون تفاصيل ما جرىٰ، فلما كان يوم الإثنين من شهر ربيع الأول لاثني عشرة ليلة خلت منه، جلسوا كما كانوا يجلسون، فلما أحرقتهم الشمس رجعوا إلىٰ بيوتهم، فإذا رجل من اليهود علىٰ أطم يصيح بأعلىٰ صوته: يا بني قيلة(٢٤٨) هذا صاحبكم قد جاء فسمعت الرجة، وأقبل الناس عليه يقتربون من الركب حاملين سعف النخيل(٢٤٩) ويضربون علىٰ الدفوف وصاحت النساء والصبيان (هذا رسول الله قد جاء، قد جاء) ثم صعدت النساء ذوات الخدور علىٰ أسطح المنازل وانشدن مع الولدان نشيدا مرتجلا يقول:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبـًا يا خير داع

فكان مدخل الصدق الذي رجاه من الله إذ بعد هذا الاستقبال الذي لم تعتده العرب، وهذا النشيد المرتجل من النساء والصبية تسابق الأنصار المصطفون عن يمينه وشماله

(٢٤٨)قيلة هي زوج حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقاء، وهي أم ابنيه (أوس) و (خزرج)
(٢٤٩)الملحوظ أن رسول الله عيسىٰ بن مريم أيضا كان قد استقبل في أورشليم القدس بسعف النخيل ستة قرون قبلها

يعترضونه إن مر الركب بدار أحدهم، فيقولون له (هلم يا نبي الله إلىٰ القوة والمنعة والثروة) ورسول الله يقول لهم خيراً فهولا يريد إلا الدعوة، ومنهم من كان يأخذ بخطام راحلته مصراً علىٰ الانفراد بهذا الشرف، حتىٰ أن زعيم يثرب عبد الله بن أبي بن سلول، وهو كبيرهم وأكثرهم ثراءً ومن كان أهل يثرب - قبل هجرة رسول الله -يستعدون لتنصيبه ملكًا علىٰ يثرب، وجد أن من الفطنة دعوة رسول الله إلىٰ بيته، والحقيقة أن هذا الشرف في ظاهر الأمر عنده، ربما من كان من الفطنة أيضا ومن حسن السياسة أن يستجيب رسول الله لدعوته، فعبد الله بن أبي بن سلول هو كبير القوم وبتشريفه تسهل أمور الدعوة، لكن حياد الدعوة واطلاع المولي علىٰ القلوب، والدعوة ذاتها لا ينبغي أن تترك لتقديرات السياسة والفطنة فما كان من رسول الله إلا أن اعتمد علىٰ هدي الله له وبأدبه الجم كان اعتذاره بأن طلب منهم أن يخلوا سبيل الناقة فإنها مأمورة وقد كانت كذلك بالفعل، وكان هذا الاعتذار من الرقي بحيث مهد للجمع من حول رسول الله ﷺ روحانية لم تألفها العرب.

أحب رسول الله ﷺ أن يكرم أخواله من بني النجار بأن ينزل عليهم ولكن لا تراجع فيما قاله فالناقة مأمورة، وسارت الناقة ولم تزل سائرة حتىٰ وصلت إلىٰ الموضع الذي فية المسجد النبوي اليوم فبركت، ثم نهضت ثانية وسارت قليلا، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، وكان هذا الموضع من توفيق الله، فهو في بني النجار (أخواله صلىٰ الله عليه وسلم) في أرض لغلامين يتيمين من الأنصار كانا في حجر أسعد بن زرارة، وساوم رسول الله ﷺ الغلامين بالمربد ليتخذه مسجداً وداراً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله فأبىٰ رسول الله واشتراه. وبادر أبو أيوب الأنصاري إلىٰ رحله فأدخلها بيته، فيقول رسول الله: المرء مع رحله، ثم جاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته وكانت عنده [٢٥٠] فقال رسول الله ﷺ متسائلا: أي بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يارسول الله، هذه داري، وهذا بابي فقال رسول الله: فانطلق وهيئ لنا مقيلاً، قال أبو أيوب: قوما علىٰ بركة الله[٢٥١]

٢- بناء المسجد النبوي

شرع رسول الله ﷺ في بناء المسجد النبوي في نفس المكان الذي بركت فيه ناقته القصواء، وقد اشترك كل المسلمين مهاجرين وأنصار في البناء وقد شاركهم رسول الله

(٢٥٠)رحمة العالمين ١\١٠٦، زاد المعاد ٢\٥٥

(٢٥١)زاد المعاد ٢\٥٥

بنفسه في البناء، ينقل اللبن والحجارة، يدعو بالمغفرة للمهاجرين والأنصار فيزيد نشاط الصحابة ويرجونه ألا يعمل ويستريح ولكنه ﷺ القدوة في كل شيء ويأبىٰ الراحة فأعطىٰ الدرس الأول في أخلاق النبوة، وكانت الأرض بها أشجار ونخيل، وقبور للمشركين فأمر رسول الله بالقبور فنشبت، وبالنخيل والأشجار فقطعت وصفت في قِبلة المسجد وجعل قبلة المسجد إلىٰ بيت المقدس بالشام، وجعل ثلاثة أبواب، وسقف من جريد وبنىٰ بيتي زوجتاه إلىٰ جانبي المسجد.

٣- هجرة زوجتا رسول الله وابنتاه:

انتقل رسول الله من بيت أبي أيوب الأنصاري بعد انتهاء البناء، وأسكن معه عدد كبير من فقراء المهاجرين فسموا أهل الصفة، وكان رسول الله ﷺ قد بعث وهو لا يزال في بيت أبي أيوب زيد بن الحارثة لإحضار زوجه سودة بنت زمعة، وأسامة بن زيد وأم أيمن زوج زيد وأبا رافع للقدوم بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، واستدعىٰ أبو بكر الصديق عبد الله ابنه ومعه عائشة ابنته وزوج رسول الله ابنه أبي بكر، وبدأ رسول الله في العمل علىٰ استقرار الدعوة والتفكير في همومها،

لكن الرحلة التي أتت بفاطمة وأم كلثوم لم تمر بسلام، إذ بعدما سمع الناس في قريش بقرب اكتمال هجرة آل رسول الله عملوا علىٰ الإيذاء فرأىٰ الحويرث بن نقيذ بن عبد قصي الراحلة التي تقل أم كلثوم وفاطمة فلحق بهما وطاردهما حتىٰ نخس بعيرهما فسقطتا علىٰ الأرض وقتل البعير فقاومه أبي أيوب وأكموا الرحلة سيرا علىٰ الأقدام.

٤- بناء المجتمع المدني:

١ - كان بناء المسجد النبوي خطوة أولىٰ لبناء المجتمع المدني ولم تكن الأرض في يثرب مفروشة بالورود كما بدت لنا الأحداث، بل اتسمت بالمشقة: فكان أغلب المهاجرين من الفقراء ولا مورد رزق لهم، وكان منهم من ترك ماله وراءه وما كان يملك بمكة من متاع وأدوات إنتاج تكفل له المعيشة، وضحوا بكل شيء في سبيل العقيدة، فصار قوتهم اليومي من كرم ضيافة الأنصار وكلاً عليهم بعدما كانوا في غنىٰ عن الآخرين، ولكن إلىٰ متىٰ وإلىٰ أين؟؟وبدأ رسول الله أولىٰ خطوات الحل المؤقت العاجل إلىٰ أن تتحسن الأمور، فأنزل أهل الصفة المسجد كما أسلفنا وقد ذكرهم الله تعالىٰ (للفقراء الذين

أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقون من خير فإن الله به عليم)[٢٥٢] ثم آخىٰ رسول الله بعد ذلك مباشرة ما بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً: نصفهم من المهاجرين ونصفهم الآخر من الأنصار علىٰ أن يتوارثوا بعد الموت دون ذوي الأرحام وسمي ذلك {عقد الأخوة} وكانت المؤاخاة في ظروف الحاجة ولما وسع الله علىٰ المهاجرين نسخ الله التوارث من الأنصار في قوله تعالىٰ (وأولوا الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلىٰ أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطوراً)[٢٥٣] قال رسول الله ﷺ للأنصار (إن اخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم) فقال الأنصار: أموالنا بيننا قطائع (أي تقسم بيننا وبينهم) فقال رسول الله (أو غير ذلك؟) فقال الأنصار: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: (هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم العمل، وتقاسموا الثمر) قالوا: نعم، وقد أثنىٰ الله علىٰ الأنصار في سورة الحشر فقال (والذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[٢٥٤] رأينا بعدها علىٰ سبيل المثال أبا بكر وعمر وعلىٰ بن أبي طالب وغيرهم رضي الله عنهم يعملون في الزراعة في أراضي الأنصار مُزارعة مع ملاكها، كانوا يأبون أن يعيشوا كلا علىٰ غيرهم فكانوا يجهدون أنفسهم في عمل غير معتادين عليه أشد الجهد، فيجدون في ذلك لذة وطمأنينة، أما عبد الرحمن بن عوف فكان مثلا آخر، فلما آخىٰ رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع التاجر الأنصاري، عرض عليه سعد أن يشاطره ماله فأبىٰ، وطلب إليه أن يدله علىٰ السوق، وفي السوق بدأ بأقل القليل الذي معه يبيع الزُبد والجُبن، فاستطاع بمهارته أن يصل إلىٰ الثروة في زمن قصير وأن يتزوج واحدة من نساء المدينة وصارت له قوافل تجارية، أما عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد كان لثرائه ليس منهم، إلا أنه رضي الله عنه كان معطاءً، كما آخىٰ بين المهاجرين أنفسهم، فمن يملك يتقاسم مع من لا يملك[٢٥٥] ومعنىٰ الإخاء قد كمن في

(٢٥٢)الآية٢٧٣-البقرة
(٢٥٣)الأحزاب آية٦
(٢٥٤)الحشر الآية٩
(٢٥٥)زاد المعاد ٥٦\٢

هدفه، وإن كان عقد الأخوة هدفه الظاهر في كونه حلا مؤقتـاً فهو لـم يكـن الهـدف البعيـد، فعلىٰ الرغم من التكليف الشاق المذكور سلفاً في عقد الأخوة، فالواضح هو أن الالتزام به من كل من تعاقد عليه تعاقداً غير مكتوب -رغم غرابة التوارث دون ذوي الأرحام- فقد قبله من دخل في عقد الأخوة هذا سعيدا به، وصحيح أن ذلك التوارث قد ألغي بعدها بشهور، إلا أن الالتزام الطوعي بالعقد كله لم يكن إلا دليل علىٰ سنة الطاعة التي سنها الأنصار، وسنة التكافل التي سنها رسول الله فيهم، كلبنة أولىٰ في بناء صرح مدينة فاضلة لم يكن علىٰ رأسها ملك، وكان هذا العمل من أروع الأعمال في مستهل هذا المجتمع، أسر به رسول الله قلوب الناس سواء كانوا من المهاجرين أو الأنصار أو اليهود والكفار وهو الذي لم تكن له عليهم سلطة المُلك وصولجانه، وإنما كان لرسول الله – علىٰ قلوب الفضلاء في مدينة فاضلة تتشكل ملامحها – سلطة روحية لم تألف العرب لها مثيلا، هدف أروع كذلك ألا وهو تذويب العصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا في الإسلام والإيمان وتفعيل المروءة والتقوىٰ، وتذويب الفروق بين الأثرياء والفقراء بالمؤاخاة، ناهيك عن اللون والوطن، وازدادت وحدة المسلمين توكيداً.

٢- كانت بيئة يثرب زراعية وكان بها وباءاً وفيه حمىٰ فما كاد الوليد يولد ولا يبلغه الحلم حتىٰ تصرعه الحمىٰ، ومرض أغلب المهاجرين من الضعفاء والأشداء علىٰ السواء، وكان جو المدينة رطباً في الصيف، علىٰ عكس ما اعتادوا عليه من الجفاف في مكة، شديد البرد وأمطارها دائمة في الشتاء، وقد مرض العديد من المهاجرين إما بالأنفلوانزا أو علىٰ الأرجح كانت الملاريا (وكانوا يطلقون علىٰ هذا المرض أم ملدم) لما كان يحيطها من البرك والآبار، فأصابت الحمىٰ أبا بكر وبلالا وعامر بن الفهيرة فذهبت عائشة لعيادة أبابكر فوجدته وأيضا عامر بن فهيرة وبلال مواليه، وجدتهم يهذون من شدة الحمىٰ فأخبرت رسول الله فنظر رسول الله إلىٰ السماء وقال (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا وصححها لنا) فاستجاب الله له.

لم تكن المدينة بلدةً شديدة الخصوبة بل كانت بلدة بها من الخصوبة الشيء اليسير وكانت لهطول الأمطار عليها تحتوي علىٰ نخيل وماشية ومساحتها تبلغ نصف مساحة مكة مكونة من مجموعة من القرىٰ الزراعية وكان لها بعض الزروع التي تكفي استهلاك أهلها من الطعام، وأهلها يعملون في غالبيتهم بالزراعة، ولهذا وجد رسول الله أهلها لا يكيلون

الكيل الصحيح ولهذا أنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله سورة المطففين (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا علىٰ الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) إلىٰ آخر السورة، ولما كانت لطبيعة أهل المدينة في طاعة رسول الله وما جاء به من الحق الأثر الأكبر في تمكن الإسلام، فقد أطاع أهل المدينة الأمر الإلهي من فوره فأحسنوا الكيل.

لم يكن أهل المدينة من الأرستقراطية العربية كالتي سكنت مكة، وأهل مكة من التجار الذين يقايضون ما لديهم بما سوف يكسبون، واللجاجة تأتي من المقايضة ومعها، ولهذا تراهم يشترطون الإيمان بالمعجزات التي ستعطيهم مكتسبات أكبر مما لديهم، أما أهل المدينة (يثرب) فقد كانوا في الأغلب من العمال الزراعيين فيثرب مجموعة من القرىٰ الزراعية، ومن خصال العامل الزراعي الصبر علىٰ ما يغرس من فسائل بغية جني الثمار، تندر فيهم خصال الغرور والتعالي الموجودة في مكة، وتندر كذلك فيهم روح التسلط ولا احياج لهم في تعلم القراءة والكتابة ولكن تتمتع طبيعتهم بما يتمتع به المجتمع الزراعي وطبيعة الفلاح في اللين والبساطة والصبر (في الفضلاء منهم) وعيوب التخفي خلف الثمار والنفاق واللغط (في الخبثاء منهم) كما سنرىٰ.

٣- كانت القوىٰ السياسية والقبلية والعشائرية فيها من التنافر والعداء ما لم تألفه مكة، وكانت تعج بصراعٍ قبلي ما بين الأوس والخزرج وكذلك كانت لأطماع اليهود كل الأثر في تحويل الصراع لحرب الأهلية عدة مرات، وليس علينا لإدراك شكل هذا الصراع إلا استعراض الأصول التاريخية لهم فهم من العرب العاربة الأصلاء المنحدرة أصولهم من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان (القحطانية) وأكثر القبائل منها شهرة هي قبيلتان متناحرتان هما (حمير) و (كهلان) وهي أشهر بطونها فقد هاجرت جميعها عن اليمن وانتشرت في أرجاء الجزيرة العربية قبل سيل العرم وتنقسم كهلان إلىٰ أربعة أقسام منهم الأزد وكان كبيرهم عمرو (مزيقباء) الأزدي الذي هاجر بنسله وأقاموا بيثرب ومن أحفاده الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو مزيقاء الأزدي ([٢٥٦]) ويسمىٰ (خزاعة) وأمهما قيلة زوج حارثة، ويقال لهما معا ابناء قيلة.

(٢٥٦)راجع الجزء الأول

عاشوا بيثرب ولبثوا مع اليهود أرباب المال، يحيون الأرض ويزرعونها كأجراء وهم في عسر شديد، فأصحاب المال من اليهود كانوا يقومون باستغلالهم علىٰ أشد صور الاستغلال، فثارت القبيلتان الخزاعيتان الأوس والخزرج كما يثور المزارعين علىٰ مر التاريخ علىٰ من يستغلونهم في كل العالم، واعتمدوا بعد ثورتهم علىٰ أنفسهم في تمويل زراعاتهم.

لما اعتمد الأوس والخزرج علىٰ مواردهما المالية دون اللجوء لليهود؛ عمد اليهود إلىٰ سلاح الوقيعة بين الأوس والخزرج، وأثار رجل من اليهود يقال له كعب حنق الأوس علىٰ الخزرج بقصيدة يفاخر الخزرج علىٰ الأوس، فقتله رجل يقال له سمير، فقامت الحرب بين الأوس والخزرج وكانت حرب سمير أولىٰ حروبهم في بداية القرن السادس الميلادي، وفطنت الأوس والخزرج إلىٰ مكيدة اليهود ومر قرن علىٰ تلك الحرب وجعلت القبيلتان تحاولان خلاله تجنب الاقتتال بالتحكيم والدية، وكلما هدأت الأوضاع بين الأخوة من الأوس والخزرج عمد اليهود علىٰ إثارتها من جديد، حتىٰ نجح اليهود في إثارة فتنة وكانت هذه الواقعة المعروفة بواقعة حاطب وانتصر فيها الخزرج، فترتب علىٰ تلك الواقعة حروب من أشهرها يوم الربيع ويوم البقيع، وحرب الفجار الأولىٰ[٢٥٧] وكانت الغلبة للخزرج أيضاً.

لما هدأت حرب الفجار الأولىٰ، عمد اليهود مرات ومرات إلىٰ إثارتها من جديد حتىٰ يتم إضعاف الخزرج الأكثر عددا، فيسهل بعد ذلك السيطرة علىٰ الأوس والخزرج معا وذلك بالدخول العملي في القتال فتحالفت قبيلتا قريظة والنضير اليهوديتان مع المهزوم من الأوس ليشجعوهم علىٰ مداومة القتال فقامت حرب الفجار الثانية[٢٥٨]، وتم لليهود ما أرادوه، ولكن ليس بالشكل الكامل.

في ضربة قاضية أثار اليهود يوم بعاث (عام ٦١٦ م) للإجهاز علىٰ البقية الباقية من الخزرج وحتىٰ يتشجع الخزرج تحالفت قبيلة القينقاع اليهودية معهم، وهي آخر الحروب بين الأشقاء التي نجح اليهود في إثارتها، ومن جانب آخر جددت قريظة والنضير الحلف مع

(٢٥٧)حربي الفجار الأولىٰ والثانية لا علاقة لهما بحرب الفجار التي خاضتها مكة

(٢٥٨)حربي الفجار الأولىٰ والثانية لا علاقة لهما بحرب الفجار التي خاضتها مكة

الأوس فدخلت قبائل يهودية أخرىٰ في الحلف لاقتسام غنيمة الهزيمة للعرب، والتقىٰ الجمعان في بعاث.

كان علىٰ رأس (الأوس) حضير الكتائب (والد أسعد بن حضير) وكان علىٰ رأس (الخزرج) عمرو بن النعمان البياضي، وفي توقيت حرج انسحب عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي الذي كان يرغب في استلاب قيادة الخزرج، تاركًا قومه من الخزرج ورغم ذلك مالت الحرب لصالح الخزرج في أول الأمر فاستنفر الأوس زعيمهم حضيراً وعادوا فقاتلوا، وقتل عمرو بن النعمان البياضي الزعيم الخزرجي بسهم لا يدرون من أين أتىٰ! وانهزمت الخزرج، وبدأ الأوس في تقتيلهم، وفطن واحد من الأوس للمصيبة التي قد تنتظر العرب إن فنيت الخزرج ابناء العم فصاح (يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهللوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب) فانتهت فورا الأوس عن إبادة أشقاءهم من الخزرج، ورغم ذلك استمر حرص اليهود علىٰ إيقاظ نار الفتنة.

٤- كانت أطماع اليهود في يثرب نابعة من عقيدة توهموها بوراثة الأرض (كل الأرض) تشكل عقبات كأداء أعجزت أهلها وفتت في عضضهم لقرون حتىٰ بدت أي محاولة للإصلاح أحلام ميؤوس منها، وكانت يهود تتفاخر عليهم بأنهم أهل الكتاب، ومن آن لآخر يبشرونهم بظهور نبي من نسل إسماعيل عليه السلام، يرث الأرض وينضمون إليه، وكانت مهمة التأليف بين قلوب الأوس والخزرج مهمة صعبة وشبه مستحيلة فالنزعة القبلية والثأر الذي أصبح تاريخيا جعلا الاستحالة أمراً واقعًا،

وبهذا تمكن رسول الله بسلطته الروحية لا الدنيوية أن يؤاخىٰ بين كل أضداد المجتمع في مدينته الفاضلة، فالمهاجرين كانوا قد تآخوا وهم من مختلف البطون القرشية ومختلف المشارب الاجتماعية، ثم كذلك بين الأنصار- علىٰ اختلاف البطون (الأوس والخزرج) - لكن رسول الله آخىٰ بين الأوس والخزرج وأسماهم (الأنصار) منذ بيعة العقبة الكبرىٰ وفي النهاية بين المهاجرين والأنصار، وتشكلت في المدينة المنورة أول نواة لمجتمع حديث، ذلك المجتمع الذي لا يحفل إلا بتقوىٰ الله مقياسًا للانتماء.

وبهذا تمكن رسول الله بسلطته الروحية لا الدنيوية أن يؤاخىٰ بين كل أضداد المجتمع في مدينته الفاضلة.

بهذا وقف اليهود ـ أهل الكتاب ـ وأصحاب الحق المدعىٰ بوراثة الأرض، ومروجي البشارة بظهور نبي في موقف لم يتوقعوه، وبدأوا يراقبون هذا الرجل الذي ملك القلوب

كان موقف رسول الله ﷺ منهم موقف الترفع عن الصغائر التي يقتاتون عليها في تناولهم للقضايا التي تمسه شخصياً، فلا يغضب لنفسه وإنما يغضب لله ولدعوة الحق كما سنرىٰ، أما عبد الله بن أُبَيّ بن سلول فقد أُسقط في يده، ولعبد الله بن أبي بن سلول خلفية عريضة وتاريخ طويل من النضال الغير شريف، ذلك النضال الذي تركز في طموحة الجارف للرياسة والمُلك ليس إلا، مهما كلفه الأمر من خسة وترخص، فهو عبد الله بن أُبَيّ بن سلول من بني عوف من الخزرج كان جميل الصورة ممتلئ الجسم فصيح اللسان(٢٥٩)، أصبح زعيما للخزرج بعد مقتل عمرو بن النعمان البياضي الزعيم الخزرجي، فتولىٰ عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي زعامة الخزرج ذات الأغلبية العربية، وكان ذا جاه عريض وثروة كبيرة جمعها من ميراثه، ومن تجارته، والإقراض بالربا، وكان قوادا، يشتري الجواري فيسرحهن للبغاء، فيأخذ المال الذي بغين به ويضم ابناء هن من الزنا لعبيده فيكثر منهم، وكان الكرم عنده بأن يقدم جارية من الجواري لمن ينزل عليه من الضيوف لتسريته، وذلك مبالغة في الحظوة لدىٰ الناس وجلباً لقلوب الأتباع(٢٦٠)وقد سماه رسول الله بالفاسق(٢٦١)

بعد حرب بعاث، وخلاء منصب الزعامة في الخزرج بمقتل عمرو بن النعمان البياضي الزعيم الخزرجي بسهم لا يدرون من أين أتىٰ! ذهب إليه عبد الله بن أبي بن سلول في ساحة القتال الذي كان يكمن قريباً منه وقال له شامتاً ـ كما ذكرنا للتو ـ وهو يلفظ الأنفاس (ذق وبال البغي !!) وأي عاقل لا يحق له أن يدعي أنه لا يدري من أين أتىٰ السهم بعد الشماتة في الموت، وكان هذا هو جانب من جوانب نضال عبد الله بن أبي !!!

بعد توليه زعامة الخزرج، الأكثر عددا من الأوس والأكثر ثراءَ أيضاً، كان أهل يثرب وأصحاب المكانة فيها يجمعون له الخرز ليصنعوا له تاجاً ليتوجوه ملكاً علىٰ يثرب بأوسها وخزرجها، والحقيقة تظهر لنا نضاله من أجل الوصول لهذا الشرف الرفيع فقد

(٢٥٩)أنزل الله فيه الآية ٤ من سورة المنافقون من ضمن ما أنزل فيه (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم)

(٢٦٠)تفسير سورة النور لأبي الأعلىٰ المودودي

(٢٦١)سيرة بن هشام ج ٢ ص ٢١٧ والروض الأنف ج ٥ ص ٢٢

تخلىٰ عن قبيلته في توقيت حرج وقتل عمر بن النعمان فإن مال النصر هنا للخزرج فقد شارك فيه وإن كان الأوس قد خرجت بالنصر كان له عليهم فضلاً، ولكن قد مات عمرو بن النعمان البياضي الزعيم الخزرجي بسهم لا يدرون من أين أتىٰ، وحصل بن أبي علىٰ جائزته الكبرىٰ فتولىٰ قيادة قبيلته وتهيأ لُملك يثرب كلها، أليس له الفضل علىٰ الأوس في عدم مشاركته الخزرج في قتالهم، وكانت لحظات يأس أهل يثرب هي ما حققت له مراده كاملا بنضاله المشبوه!

إلا أن لحظات يأس أهل يثرب لم تدم، وكانت بيعتا العقبة الصغرىٰ والكبرىٰ وهاجر المسلمون من مكة للمدينة وأتىٰ رسول الله لمدينته الفاضلة مهاجراً واحتفت به المدينة بأوسها وخزرجها ويهودها، والتف حول رسول الله ﷺ أغلب الأنصار، ومنهم بعض أقرب الناس إليه ومن داخل بيته وعلىٰ رأسهم ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي، ولم يعد أمام عبد الله بن أبي الأب إلا معاودة نضاله الذي اعتاد عليه، فأظهر ترحيبه برسول الله وهو يبطن أحقاده، وتابعه علىٰ ذلك خدمه وعبيده ممن هم في حاجة إلىٰ عطائه وماله، وربما درءاً لبطشه وجبروته، وتولىٰ زعامة من نوع آخر إذ صار زعيماً للمنافقين، عن جدارة وبلا منافس.

وأيضاً كان موقف رسول الله ﷺ منه موقف الترفع عن الصغائر في تناوله للقضايا التي تمسه شخصياً، فلا يغضب لنفسه وإنما يغضب لله ولدعوة الحق وأظهر من الحُلم كما سنرىٰ، وعُقد حلف غير معلن ولا مكتوب بين اليهود والمنافقين، فهو حلف بالقلوب الضاغنة،

****

كان أول من وطئت أقدامهما من المهاجرين المدينة المنورة قبل أن يصلها رسول الله كما ذكرنا هو مصعب بن عمير ثم عبد الله بن أم مكتوم ثم توالىٰ المهاجرون، وتوجت الهجرة برسول الله، وبدأ رسول الله في وضع الأسس للمجتمع الجديد، مجتمع لم تألفه العرب ولم تحلم البشرية بإمكانية تحقيقه تحقيقاً عملياً، وبالفعل وضع رسول الله أسس مجتمع الفضيلة في المدينة الفاضلة والتي حلم بها أفلاطون بعبقرتيه الفلسفية، وكمصلح اجتماعي، ولكن، هل كان رسول الله مصلحاً اجتماعيا؟، الإجابة علىٰ هذا التساؤل أيضا،

بالنفي، هل كان فيلسوفاً؟، والإجابة أيضا بالنفي، لقد كان محمد ﷺ نبياً رسولاً.

أما الصفات الدنيوية التي نفرح إن وصفنا بها فهي لنا نحن، ونحن - كما نعلم - دون رسول الله في ملكاته الإنسانية، فوصف رسول الله بها تقليل من شأن قدوة أرادها الله وظلم لنا في ميزان المقارنة.

٥- الوحدة الوطنية ومبدأ المواطنة:

قبل الوصول إلىٰ المدينة المنورة كان الإسلام قد وحد المسلمين بمكة في بوتقة الإيمان وفي المدينة سموا المهاجرين، وبعد بيعتا العقبة وحد رسول الله المسلمين من الأوس والخزرج اليثربيين أيضا في بوتقة الإيمان تحت اسم الأنصار، وبعد وصوله ﷺ للمدينة، آخىٰ رسول الله بين المهاجرين والأنصار فكان يطلق عليهما المسلمين، ورسول الله ﷺ في سعيه للمدينة الفاضلة سعىٰ إلىٰ توحيد الأمة المؤمنة بالله والكتاب، وأعني بذلك المسلمين مع أهل الكتاب والمؤمنين بالله والمتمثلين في اليهود والمسيحيين وكان اليهود هم الذين يعيشون في يثرب من أهل الكتاب، فعهد الوحدة الوطنية ومبدأ المواطنة في المدينة الفاضلة يجب أن ينص علىٰ اليهود في معاهدة مكتوبة، واليهود في يثرب وما حولها كانوا كالتالي:

- منهم يهود بنو قُينُقاع في داخل المدينة
- وعلىٰ مقربة من مركز المدينة يقيم بنو قُريظة في فدك علىٰ حدود المدينة
- ويهود بنو النضير علىٰ مقربة من المدينة
- ويهود خيبر في شمالها وبها أقوىٰ الحصون والتسليح وأشد الرجال في الحروب

وقد بادر اليهود إلىٰ حسن استقبال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، فهم لم يروا فيه رسولاً من الله بقدر ما - ولأسباب عنصرية كعادتهم - وجدوا فيه وسيلة لتحقيق حلمهم، فإن هم استمالوه وسيطروا عليه قادوه إلىٰ ما يريدون - بما اعتقدوه في أنفسهم علىٰ الانفراد بالعلم - فيؤثرون عليه فأعادوا ما نجحوا فيه مع أبو نواس الحميري صاحب الأخدود، وربما لأمكنهم التحالف معه من توحيد العرب لتكوين كيانا قويا يقف في وجه النصرانية الناشطة في الشمال (الشام) والجنوب (اليمن) وحنقوا عليه ﷺ بعدها إذ لم يصلوا معه لهدف. أما رسول الله فقد كان همه هو أن يصل بيثرب، موطنه الجديد، إلىٰ مجتمع منظم

فاضل للعالمين، يحقق وحدة متآلفة لم تكن معروفة في الجزيرة العربية، تجذب قلوب العرب والعجم إلىٰ الإيمان بالدين الخاتم إن هم أمهلوا أنفسهم لفهم هذا الدين الذي أنزله الله عليه، ولما نجح رسول الله (إذ مع مرور الوقت آمن بعض اليهود ومنهم من كان علىٰ أعلىٰ درجات العلم باليهودية) فازداد حنق اليهود علىٰ محمد.

ولنعد إلىٰ توالي الأحداث، فقد كان حسن استقبال اليهود لرسول الله ما اطمأن به ﷺ إلىٰ إمكانية تحقيق وحدة يثرب، ووضع نظامها السياسي بالاتفاق مع كبراء المدينة ومنهم اليهود بل هم علىٰ رأسهم، فرد تحيتهم بمثلها، وعمد إلىٰ توثيق صلاته بهم، فتحدث إلىٰ رؤسائهم وكبرائهم، وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبارهم أهل الكتاب والموحدون، فكان ﷺ قد لاحظ بعد وصوله للمدينة بأشهر أن اليهود بها صائمون، فاستعلم عليه الصلاة والسلام عن علة هذا الصوم فأخبروه أن في مثل هذا اليوم العاشر من المحرم نجا الله موسىٰ من الفرعون فقال عليه الصلاة والسلام

(لئن حل علينا الحول لأصومن تاسوعاء وعاشوراء من شهر المحرم فأنا أولىٰ بموسىٰ منهم) أسعد ذلك اليهود كثيراً وكانوا يرون بعض الشبه في أداء الصلاة من المسلمين وبما يؤدونه من صلاة، كما كانت قبلة المسلمين إلىٰ بيت المقدس كقبلتهم، ومحمد كما كانوا يعلمونه، هوسليل إسماعيل فهو بن عمهم إذاً والدلائل لديهم تشير إلىٰ قدرتهم علىٰ التسيد علىٰ العرب من بعد محمد ومن خلاله، فما كانت الأيام إلا لتزيد المودة بين المسلمين وبين اليهود، كانوا قد سمعوا بمحمد منذ ما لا يقل عن عشر سنوات، كما أنهم لما خالطوه ﷺ لاحظوا تواضعه وجميل صفاته وعطفه، وحسن وفائه، وفيض بره بالفقير والبائس والمحروم، وتم لرسول الله ما كان يصبو إليه من مودة مع أهل الكتاب ووصل الأمر إلىٰ تقرير العهد بينهما في أول دستور عرفته البشرية.

٦- قدوة العالمين ودستور التعايش مع أهل الكتاب:

والدستور هو وثيقة سياسية اجتماعية يتفق عليها أهل البلاد لتنظيم الحقوق والواجبات وهو يماثل العقد الاجتماعي الذي يتفق عليه الأغيار في الوطن الواحد وبنوده ملزمة لمن يدخل فيه، فالمدينة كان يقطنها أهلها من المسلمين والوافدين عليها منهم، كما كان يقطنها المشركين واليهود، وكان من الطبيعي أن يوثق عقدا اجتماعيا ملزما لجميع الأطراف فالقرآن يلزم المسلمين ولا يلزم غيرهم من اليهود (أو غيرهم من الديانات

السماوية الأخرىٰ) الذين ينظمون حياتهم وفق معتقداتهم، ولا مناص من دستور لا عنصري وملزم لجميع الأطراف صاحبة التأثير في هذا المجتمع إن كان هذا المجتمع يرنو إلىٰ السلام الاجتماعي، ولم يكن هنالك دستوراً أو عهداً بينه وبين المشركين وإنما معاهدات فإن كان عهده مع اليهود (كطائفة من أصحاب الكتاب الذين لا يمكن إكراههم في الدين) فلم يضم المشركين لدستور التعايش الذين لا مفر لهم من التوقف عن عبادة الأصنام وهو ما يؤمر به عادة كل رسول فمآل المشركين في نهاية المطاف هو الإيمان بالكتاب سواء كان توراةً أو إنجيلا أو قرآنا، فلا إكراه في الدين ولكن لا سماح للشرك. وجاء نص هذه المعاهدة في شكل الدستور كالآتي:

هذا كتاب من محمد النبي(٢٦٢) بين المؤمنين(٢٦٣) والمسلمين (٢٦٤) من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

أنهم أمة واحدة من دون الناس(٢٦٥)

المهاجرون من قريش علىٰ ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين(٢٦٦)

وبنو عوف علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولىٰ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٢٦٧)

(ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار)

وأن المؤمنين لا يتركون مفرحـًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل(٢٦٨)

ولا يحالف مؤمن مولىٰ مؤمن دونه(٢٦٩)

---

(٢٦٢)سيرة بن هشام ج ٢ ص ٢١٧ والروض الأنف ج ٥ ص ٢٢

(٢٦٣)بداية البند الأول في المعاهدة يشمل إعترافا من المتعاهدين بنبوة محمد

(٢٦٤)المؤمنين هم من آمن بالكتاب واليوم الآخر – وتكملة البند تفتح المجال لكل من المسلمين وأهل الكتاب كافة، ففكرة المدينة الفاضلة هي لتنظيم حركة الحياة مع الفضلاء ولكنها لا تستقيم بالمشركين

(٢٦٥)تأكيد مبدأ الوحدة الوطنية

(٢٦٦)مبدأ التكافل بين القرشيين كأول شرط لتجانس الأغيار، فحتىٰ القرشيون كانوا من مختلف البطون والانتماءات العرقية والاجتماعية

(٢٦٧)مبدأ التكافل بين الأنصار بنفس شروط التجانس بين القريشيون

(٢٦٨)مبدأ التكافل بين كل المؤمنين جميعهم

(٢٦٩)مبدأ حماية التحالف الأصلي فلا تشوبه اختلاف الحلفاء في أمر الموالي والتابعين لتوسيع دائرة التحالف

وأن المؤمنين المتقين علىٰ من بغىٰ منهم أو ابتغىٰ دسيعة ظلم أو إثم أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم(٢٧٠)

ولا يقتل مؤمن في كافر، ولا ينصر كافراً علىٰ مؤمن(٢٧١)

وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم (٢٧٢)

وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض دون الناس (٢٧٣)

وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم(٢٧٤)

وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا علىٰ سواء وعدل بينهم (٢٧٥)

وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً(٢٧٦)

وأن المؤمنين يبيئ بعضهم عن بعض مما نال دماءهم في سبيل الله (٢٧٧)

وأن المؤمنين المتقين علىٰ أحسن هدي وأقومه (٢٧٨)

وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه علىٰ مؤمن (٢٧٩)

وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضىٰ ولي المقتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا القيام عليه(٢٨٠)

---

(٢٧٠)التعاون علىٰ الضرب علىٰ أيدي من يظلم مؤمنا من بينهم وضرورة محاربة الفاسدين ولو كان ابن أحدهم

(٢٧١)مبدأ تحالف المؤمنين ضد الكفار وتحريم نصرة الكافر علىٰ المؤمن لتأكيد الوحدة الوطنية

(٢٧٢)مبدأ العدالة وذمة الله بغض النظر عن مكانة المظلوم

(٢٧٣)تأكيد مبدأ الوحدة الوطنية بالولاية علىٰ بعضهم دون الناس للحفاظ علىٰ وحدة المؤمنين

(٢٧٤)إتاحة باقي اليهود للانضمام للمعاهدة لتوسيع تحالف الفضلاء من المؤمنين

(٢٧٥)الحرص علىٰ وحدة الصف بين المؤمنين لإحكام التعاهد فلا تشوب مؤامرات الاختلاف.

(٢٧٦)الحرص علىٰ تواصل الدفاع عن المدينة الفاضلة

(٢٧٧)مبدأ الدفاع المشترك فالمؤمنين (بشرط البر) أولياء بعضهم البعض فيما ينال دماءهم (لهم حق وواجب الدفاع عن بعضهم البعض والولاية علىٰ دماءهم)

(٢٧٨)مبدأ سيادة الفضيلة والتأكيد علىٰ ضرورة أن يتحلىٰ المؤمنون (مسلمون وكتابيون) بالأخلاق القويمة والهداية وهو الشرط الواجب للإيمان ولتفعيل هذا الدستور كما يفهم من السياق كله للصحيفة (الذي اسميناه اليوم بالدستور)

(٢٧٩)تفاصيل مبادئ التحالف إذ ليس من حق المشركين إجارة قريش في النفس والمال ولا يحولوا بينه وبين مؤمنين

(٢٨٠)تنظيم الحياة لحل ما قد يشوبها من مخالفات جنائية فمن قتل مؤمنا بقصد فواجب علىٰ المؤمنين القيام عليه للقصاص منه حتىٰ يرضىٰ ولي المقتول، ولتأكيد مبادئ العدالة.

وأنه لا يحل لمؤمن، أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً، ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل(٢٨١)

وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلىٰ الله وإلىٰ محمد(٢٨٢)

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين (٢٨٣)

وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين (٢٨٤)

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته (٢٨٥)

وأن ليهود (ثم عدد بطون اليهود في يثرب) مثل ما ليهود بني عوف وأن موالي ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم. (٢٨٦)

وأنه لا يخرج منهم أحدا إلا بإذن مح(٢٨٧)

وأنه لا يتحجر علىٰ ثأر جرح (٢٨٨)

وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله علىٰ أبر هذا (٢٨٩)

وأن علىٰ اليهود نفقتهم وعلىٰ المسلمين نفقتهم(٢٩٠)

وإن بينهم النصر علىٰ من حارب هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر

---

(٢٨١)من المبادئ السالفة الذكر لا يحل لمؤمن أن ينصر مشركا فلعنة الله عليه وغضبه يوم القيامة ويفقد أهليته

(٢٨٢)الاتفاق علىٰ تحكيم المعاهدة وحكم الله رسوله (وفيه الاقرار بكون حكم الله هو حكم رسوله وكذلك الاقرار به علىٰ رأس هذا المجتمع)

(٢٨٣)والنفقة المشتركة بينهما في حالة الحرب

(٢٨٤)توسيع الحلف ليشمل كل يهود بغض النظر عن تواجدهم داخل المدينة

(٢٨٥)إقرارحرية العقيدة والعبادة

(٢٨٦)توسيع دائرة المعاهدة لكي تشمل كل يهود المدينة المنورة

(٢٨٧)الاقرار برسول الله علىٰ رأس المجتمع

(٢٨٨)آلية حل منازعات الثأر

(٢٨٩)بيان حكم الله علىٰ مخالفة شروط المعاهدة

(٢٩٠)فصل نفقات كل طائفة حرصا علىٰ حقوق اليهود

دون الاثم [291]

وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم [292]

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة [293]

وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم[294]

وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها [295]

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث اشتجار يُخاف فسادُه فإن مرده إلىٰ الله وإلىٰ محمد رسول الله [296]

وأن الله علىٰ أتقىٰ ما في هذه الصحيفة وأبره [297]

وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر علىٰ من دهم يثرب، وإذا دعوا إلىٰ صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلىٰ مثل ذلك فإن لهم علىٰ المؤمنين إلا من حارب في الدين [298]

علىٰ كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأن يهود الأوس – مواليهم وأنفسهم– علىٰ مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة[299]

وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا علىٰ نفسه [300]

وأن الله علىٰ أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو

(291)التعاهد علىٰ المناصرة والنصح والتشاور بين المؤمنين علىٰ أسس البر دون الإثم

(292)تحديد مسؤولية من يأثم دون ظلم من يدخل مع الظالم في حلف

(293)الإقرار بتحريم الحروب الأهلية في المدينة

(294)الحفاظ علىٰ حق الجار

(295)تنظيم إجارة الحرمات إلا بإذن أهل الحرمة

(296)رد الحكم لرسول الله وبتحكيمه علىٰ ما قد ينشأ من اختلاف في تفسير المعاهدة

(297)إشهاد الله علىٰ المعاهدة علىٰ أساس البر والتقوىٰ

(298)تنظيم العلاقة مع قريش بحيث يمنع إجارتها أو إجارة من ينصر قريش علىٰ أهل المعاهدة، ووضع أسس الدفاع عن يثرب في حال مداهمتها وتنظيم أي اتفاق بالصلح معها

(299)تحديد المسؤوليات وتوسيع الحلف ليشمل كل يهود بغض النظر عن تواجدهم داخل المدينة وتحديد مسؤوليات الأطراف المشاركة في المعاهدة علىٰ أسس البر دون الإثم لأهل هذه الصحيفة

(300)الإقرار بمبادئ البر دون الإثم، وتحديد مسؤوليات المخالفين

آثم [٣٠١]

وأن من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقىٰ [٣٠٢]

وقف إبراهيم ووقف موسىٰ ووقف عيسىٰ عليهم الصلاة والسلام عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس عن طريق مجادلة الكفار وعن طريق المعجزات التي منحها الله لهم، ثم يتركون بعد ذلك أمورالدعوة لمجموعة مختارة من المؤمنين مهمة نشر الدعوة حتىٰ تصل للساسة وذوي السلطان والنفوذ فتنتشر الدعوة بالقدرات القانونية والسياسية وربما العسكرية في أغلب الأحوال وكان غرض نشر الدعوة لدين الله هو نشر الإيمان ومن ثم نشر العدالة الإلهية بين عباده سبحانه وتعالىٰ، ولقد نجح إبراهيم عليه الصلاة والسلام في وضع لبنة الإيمان في قلوب أحفاده الإسرائيليين إلىٰ الحد الذي مكن موسىٰ عليه الصلاة والسلام تحقيق خلاص نسل يعقوب من عهد العبودية ومن بعده تولىٰ القائد العسكري يوشع بن نون نشر دين الله إلىٰ قدر محدود بالحرب وبمختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة وقت ملوك إسرائيل وأنبياء الله داوود ومن بعده سليمان عليهما السلام، ثم أرسل الله عيسىٰ عليه الصلاة والسلام فجاء تلاميذه من بعده، ثم التجأ قنسطنطين (في القرن الرابع الميلادي) إلىٰ المسيحية للفوز في الحروب الأهلية التي كادت أن تعصف بالدولة الرومانية ولكي يثبت حكمه، وكذلك كان أمر سائر الأديان [٣٠٣]

أما محمد رسول الله ﷺ فقد كان مثلا للكمال الإنساني وكان مفهوم الضمير الإنساني هو الحاكم عنده.

كانت يثرب كما ذكرنا علىٰ حافة هاوية، وقد سمع العرب الساكنين فيها من أهل يثرب -من اليهود- عن قرب ظهور نبي من آل إسماعيل فالتجأوا إليه لما تبين لهم أنه الحق وقد خبر اليهود صدقه لما خالطوه صلىٰ الله عليه وسلم، فلاحظوا

(٣٠١)اشهاد الله علىٰ أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ومساواة كل من دخل في هذه المعاهدة

(٣٠٢)ضمان أمن الداخلين والقاعدين (المغادري والمقيمين بيثرب) كأطراف في هذه الصحيفة إلا من خالف المعاهدة وضمان نصرة الله لمن بر واتقىٰ

(٣٠٣)عد إلىٰ الجزء الأول من هذا الكتاب

سمو أخلاقه وتواضعه، وجميل صفاته وعطفه، وحسن وفائه، وفيض بره بالفقير والبائس والمحروم كما ذكرنا سلفاً، فوثقوا فيه وهكذا اجتمع أمر أهل يثرب من أنصار مسلمين وأهل كتاب من يهود علىٰ أهلية محمد ﷺ في تنظيم حياتهم ولما كان مفهوم الضمير الإنساني

هو الحاكم لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ولما كان محمد هو القاسم المشترك بين الأغيار من مسلمين ومؤمنين (من أهل الكتاب) فقد كانت المدينة الفاضلة علىٰ أهبة أن تصل بالإنسانية إلىٰ الكمال وتعاهد رسول الله بعهد بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

ولما عاهد رسول الله اليهود (المؤمنين بالله) فالله جلت قدرته هو الضامن لهذا العهد حسب النص القرآني من سورة النحل بالآية رقم ٩١ (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون)

وللحفاظ علىٰ العهد شروط ضمنها الله عز وجل في الآيات التالية لتلك الآية حيث يقول جل وعلا في الآية ٩٢ من نفس السورة (ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربىٰ من أمة، إنما يبلوكم الله به وليتبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون)

- فمن قصد الرسول ﷺ في الوثيقة بالمؤمنين؟

في سورة المؤمنون بالآيات من ٥١-٥٤ قال تعالىٰ

(يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم * وان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا امرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون * فذرهم في غمرتهم حتىٰ حين)

ففيها يخاطب الله جميع الرسل يأمرهم بالطيبات طعاما والصالحات عملا . فهو سبحانه يعلم بما يعملون . ثم ينبئهم المولىٰ عز وجل بان الجمع الذي امن بهم (أمة واحدة ولهم رب واحد) ولكن الله عز وجل ينذرنا في الكتاب المبين بأننا سنقطع الأمر الالهي الذي أتانا زبرا ونفرح بما قطعناه من الأمر . وفي غمرة سيحاسبنا الله عن افعالنا بتفريق أمة الإيمان .فهذا يهودي . وذاك مسيحي . وأنت مسلم امة واحدة، بل كل ملة قد قطعت ما

أتاها زبرا تكفر بعضها بعضا وصار الذين هادوا مذاهب والمسيحيين. أيضا ونحن كذلك. في حين ان كل المؤمنين بالله امة واحدة ويقول الله تعالىٰ في الآية رقم ١٣٦ من سورة النساء

(يا أيها الذين آَمَنوا، آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل علىٰ رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً)

فيخاطب الله عز وجل الذين) آمنوا) وهم اليهود والنصارىٰ ويأمرهم بأن يؤمنوا بما أنزل الله علىٰ رسوله محمد فالمؤمن إذن هو كل من آمن بالله وباليوم الآخر وبالملائكة والنبيين، فهو حسب نص القرآن من آمن بالله ورسوله، ورسوله يعني رسوله محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وكل رسل الله الذين أتوا برسالات منزلة من عند الله وقت تبليغ الرسالة للذي آمن بها، فإن كان المنزل عليه وقت رسول الله موسىٰ فعلىٰ المؤمن الإيمان بتلك الرسالة، وإن نزلت عليه الرسالة في عهد عيسىٰ فعليه الإيمان به وبالإنجيل، وإن نزلت الرسالة في عهد محمد فعليه الإيمان بهما (دون تحريف) وبالقرآن، إلا أن الالتزام في شروط الإيمان لا يمكن ولا يصح أن ينحصر في الرسالة التي عاصرها، وإنما يشترط علىٰ اليهودي الإيمان بالتوراة وما أتىٰ به من سبق موسىٰ، وينسحب هذا الإلزام بمن آمن بالمسيح فالشرط الوجوبي هو إيمان المسيحي بالإنجيل والتوراة الذي يتضمن بالضرورة ما كان قبل التوراة أيضاً، وعليه ففي تلك المرحلة التي أتىٰ فيها رسول الله محمد ﷺ فالرسول المنوه عنه هو محمد، والكتاب هو القرآن، أما ما نزّل الله من كتب قبل محمد فالمؤمن ملزوم بها أيضا، سواء كان هذا الكتاب هو التوراة أو مزامير داوود أو الإنجيل الصحيحة منها والغير محرفة، فسبيلنا هو تحكيم القرآن في الحكم علىٰ ما هو محرف من تلك الكتب، وأيضا الإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر، وإن كان هذا هو تعريف الذين آمنوا، فما هي التكليفات العامة التي عليهم وفيها يقول الله تعالىٰ في الآيتين ٢٧٧ وقبلها ٦٢ من سورة البقرة وكلتاهما تحددان من هم الذين آمنوا:

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

ثم في سورة المائدة بالآية ٦٩:

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارىٰ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحـًا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

في سورة النحل بالآية ٩٧:

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)

إلا أن معيار الإيمان لم يُترك لنا لتحديده، وإنما هو من أمر الله يحكم فيه بما يشاء وكما يشاء سبحانه وتعالىٰ، والبشر يحبون الفخر، وكثير من الشعوب تحب الاستئثار بالنعم، ولقد ذكرنا مسبقا عن تحريف اليهود لقضية وراثة النبوة فحصروها في ابناء إسحق دونا عن إسماعيل، ثم في ابناء يعقوب دونا عن الآخرين ثم ابناء يوسف ثم ابناء داوود، ثم قصروا الجنة علىٰ اليهود دون المسيحيين، وكأنهم في طفولتهم البشرية يتصرفون تصرف الطفل الكبير في الأسرة ويدعي أنه الوحيد الذي يستحق الرعاية والإرث.

وفي الآية ٢٤ من سورة آل عمران:

(ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون)

فينبري المسيحيون ويقولون مثلما قال اليهود وفي الآية ١١١ & ١١٢ من سورة البقرة

(وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارىٰ، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين*بلىٰ من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

وربما انبرىٰ وقتها المسلمون فقالوا نفس المقولة، فهي مقولة تتردد اليوم علىٰ ألسنة البعض منا!

وهنا يحسم الله تعالىٰ الأمر للجمع المؤمن ففي الآيات ١٢٣ -١٢٦ من سورة النساء

(ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد من دون الله

وليـًا ولا نصيراً*ومن يعمل من الصالحات من ذكـر أو أنثىٰ وهـو مـؤمن فأولئـك يـدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا * ومـن أحسـن دينـا ممـن أسـلم وجهـه لله وهـو محسـن واتبـع ملـة إبراهيم حنيفـًا، واتخـذ الله إبـراهيم خلـيلا *ولله مـا في السـماوات ومـا في الأرض وكـان الله بكل شيء محيطا)

وبناء عليه فأول ما نصت عليه بنود المعاهدة هو الإقرار بنبـوة محمـد (صـلىٰ الله عليـه وسلم)

هذا كتاب من محمد النبي.

ثـم توالـت بعـدها البنـود في الصـحيفة لبيـان وتنظـيم ولايتـه بمـا عُـرف عنـه مـن سـمو أخلاقي عليه الصلاة والسلام لجماعـة المـؤمنين لضـمان العدالـة بمعناهـا الجـوهري، فقـد نصت الصحيفة

(وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيئ فإن مرده إلىٰ الله وإلىٰ محمد) وكذلك النص

(وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث اشتجار يُخاف فسادُه فإن مرده إلـىٰ الله وإلىٰ محمد رسول الله)

أما ما ينظم الضمير والعدالة فقد كان هو مفهوم الواجب والواجب هو الالتزام بالنظام العام ويطلق عليه الانضباط الإلزامي للمصلحة العامة فكان

(وأنه لا يخرج منهم أحدا إلا بإذن محمد)

بعد ذلك تمحورت بنود الصحيفة علىٰ مبـدأ العدالـة وتقريـر حريـة الاعتقـاد ومكـارم الأخـلاق وتعاهُـد الأطـراف علـىٰ حريـة العقيـدة وعلـىٰ النصـرة والمسـاواة في المعاملـة في الحقوق والواجبات، كما نصت المعاهدة علىٰ ألا يحق لطـرف مـا الإخـلال بالعهـد، ومـن يفعل لا يظلم إلا نفسه، وأن بينهم النصر علىٰ من حارب أهـل الصـحيفة وأن بيـنهم النصـح والنصيحة والبر دون الإثم وأن لا يؤثم امرؤ بحليفه ونصر المظلوم والنفقة المشتركة بينهما في الحرب.

وبتلك الوثيقة جمع رسول الله اليهود (كنموذج من نماذج أهل الكتاب) مع المسلمين في بوتقة الإيمان، فكانت الوحدة الوطنية ومبدأ المواطنة – التي ينادي بها المحـدثون اليـوم – علىٰ أعلىٰ صورها برضا واتفاق الأطراف، ويلاحظ علىٰ مر التاريخ أن الإسلام في فترات

الازدهار كان لا يلتزم مع أهل البلاد المفتوحة بالتزام أقوىٰ من هذا، ولما رأىٰ أهل الكتاب عدل الإسلام اعتنقوه وما توقفت الدولة الإسلامية إلا حينما أهملت هذا التوجه، وكان إغفال سنة رسول الله في التسامح والعدل هو السبب في توقف المد الإيماني في العالم بسبب أخطاء المسلمين.

٧- أحداث السنة الأولى من الهجرة:

استقرت أحوال المدينة المنورة علىٰ تلك الأسس فكانت تلك الوثيقة تقر حرية الرأي، والعقيدة وحرمة الوطن، ومكارم الأخلاق وتحريم الغدر والجريمة، منذ ما يزيد عن الألف وأربعمائة عام، وعجزت البشرية قبلها وبعدها عن القيام بمثل ما قام به رسول الله، ولئن لم يشترك في توقيع هذه الوثيقة يهود بنو قريظة وبنو القينقاع، إلا أنهم ما لبثوا أن وقعوا بعدها مع رسول الله صحفاً مثلها، وساد الاستقرار لأهل المدينة، ودخل في دين الله عددا وفيرا من أهلها سواء من العرب أو من بني إسرائيل ونزلت الرخصة بقصر الصلاة الرباعية إلىٰ ركعتين، وأيضا لاذ عديد من المسلمين الآتين من مكة وغيرها للمدينة في السفر بقوله تعالىٰ

(وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا، إن الكافرين كانوا لكم عدو مبين) (١)

وكذلك تمت موافقة رسول الله ﷺ علىٰ اقتراح بإعلام المسلمين بدخول وقت الصلاة وقرب إقامتها بالآذان بناء علىٰ رؤية لعبد الله بن زيد الأنصاري، فقال رسول الله ﷺ (إنها رؤية حق إن شاء الله) وكلف بلالا بأن يؤذن بالنص الذي جاء في رؤية عبد الله وكان إختيار بلالا لندىٰ صوته، ولما سمع عمر بن الخطاب الأذان هرول لرسول الله فقال لرسول الله:

يا نبي الله، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذىٰ رأىٰ.

فقال رسول الله ﷺ (لله الحمد)

لما توفي كلثوم بن الهدم وأسعد بن زرارة، فقالت اليهود والمنافقون: لو أن محمدا نبيًا ما مات صاحبه (وكأن لم يمت أصحاب موسىٰ أو هارون وموسىٰ عليهما السلام) ذلك لأننا إن عدنا لسيرة المسيح عليه الصلاة والسلام (الذين كفروا بدعوته) نجد أن

المسيح وقد هرعت إليه مرثا ومريم المجدلية أختا اليعازر تقولان له (لوكنت هاهنا لما مات أخي) وكان قد مات منذ أربعة أيام فقال لهما في هدوء (سيقوم أخوك وصرخ صرخة عظيمة (هلم أخرج) وإذ باليعازر يخرج من القبر صحيحا بكفنه وسط ذهول المعزين، والمسيح يُحيىٰ الموتىٰ ولو بعد أيام ولكنه لا يحييهم بأمره وإنما بأمر الله فهو في حاجة إلىٰ أن يظهر للناس ما منحه الله من قدرات خارقة حتىٰ يؤمن به الناس، وبما كانت السنوات المحدودة التي قضاها في مسيس الحاجة كي لا يكون مثل البشر في قدراتهم، وقدوة العالمين - محمد ﷺ - إن أحيا الموتىٰ، ما كان قدوة للعالمين.

ولما سمع رسول الله ذلك قال

(إني لا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئا)

وفي هذا يتحدث رسول الله بما لا ولم ولن يفهموه، إذ لا يمنح الله تعالىٰ الأنبياء نفس المعجزات في كل رسالة، فالرسالات البشرية تتطور بتطور المطلوب منها، أما اليهود فلا تنعدم لجاجتهم عبر الزمن.

وفي هذه السنة أيضا ولدت أسماء بنت أبي بكر أول مولود للمهاجرين وهو عبد الله بن الزبير بن العوام، ففرح أبوبكر بحفيده وفرح رسول الله ﷺ والمسلمون وتفاءلوا خيراً.

٨- دخول رسول الله على عائشة رضي الله عنها لإتمام الزواج:

استقرت الأمور ولم ينس رسول الله ابنة الصديق عائشة رضي الله عنها التي كان قد التزم ﷺ بالزواج منها، وكان المطعم بن عدي قد فسخ خطبتها لابنه عقابا لأبي بكر علىٰ إسلامه، وكانت قد تعدت الحادية عشر من عمرها آن ذاك (في الأواخر من شهر رجب بالسنة العاشرة من النبوة) ولا أمل لأبي بكر في زواجها تحت هذه الظروف، ولما كان رسول الله قد خطب عائشة وهي في الحادية عشر من عمرها في مكة، وإن لم يبن بها ﷺ لصغر سنها، فقد بقيت عند أبيها -حتىٰ بعد الهجرة ليثرب- ولما استتب الأمر في المدينة المنورة، في أوائل شوال من السنة الأولىٰ للهجرة أي بعد سبعة أشهر ونيف من الهجرة،

كانت عائشة رضي الله عنها قد تجاوزت الرابعة عشر من عمرها [(٣٠٤)] وهو السن المناسب لزواج البنات في هذا الزمان، كانت عائشة رضي الله عنها فتاة صغيرة حلوة القسمات محببة العشرة، ذات ولع باللعب والمرح، فوجد فيها رسول الله ﷺ أنسًا وطرافة، كما وجدت عائشة فيه ﷺ رقة وشفقة، فما كان يأبىٰ عليها اللعب واللهو بألاعيبها وبالدمىٰ الصغيرة، فتسليه ببراءتها وتخفف عنه عبء المسؤولية الملقاة علىٰ عاتقه صلىٰ الله عليه وسلم، فأسكنها بمسكنها إلىٰ جانب سودة رضي الله عنها وأرضاها في جوار المسجد.

٩- إسلام (عبد الله) الحصين بن سلام:

الحصين (عبد الله كما سماه الرسول) بن سلام بن الحارث، وكنيته أبو يوسف، وكان حليفًا لبني الخزرج وهو من بني القينقاع، وكان حبرا من أحبار اليهود وعالم من علمائهم الأفاضل، كان كباقي الإسرائيليين ينتظر نبيا رسولا من ابناء قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهم السلام وكان يعلم أن أوانه قد اقترب، وسمع عن محمد الذي بمكة، إذ كانت تصل أخباره ﷺ تباعًا، فيتوكف صفته وزمانه كغيره من أحبار اليهود ومما سمعه عنه ﷺ استبشر عبد الله به فتظهر له الحقيقة وتظهر لنا، فقد عرف رسول الله، يقول عز من قائل ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[(٣٠٥)]

فالحقيقة التي ظهرت له توافقت مع ما قاله لهم دانيال عليه السلام بعد غزو بختنصر لبلادهم إذ قال:

(إن الله يقول لي: إن بني إسرائيل أغضبوني، وتمردوا علي، وعبدوا آلهة من دوني وصاروا من العلم إلىٰ الجهل، ومن بعد الصدق إلىٰ الكذب، فسلطت عليهم بختنصر، فقتل رجالهم وسبىٰ ذرياتهم، وهدم بيت مقدسهم وحرق كتبهم وكذلك فعل من جاء بعده بهم، وأنا غير راض عنهم، ولا مقيلهم من عثراتهم، فلا يزالون مغلوبين وعليهم الذلة والمسكنة حتىٰ أبعث فيهم نبيا من بني إسماعيل الذي بشرت به هاجر، وأوحي إليه وأعلمه

(٣٠٤) تعدت فاطمة بنت محمد الثامنة عشر من عمرها
انظر البخاري، ٦٢ كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي وأصحابه إلىٰ المدينة رقم ٣٩١١ سيرة ابن هشام ج٢ ص١٣٨-١٣٩

(٣٠٥)البقرة ١٤٦

الأسماء وأزينه بالتقوىٰ، أجعل البر شعاره، والتقوىٰ ضميره، والصدق قوله والوفاء طبيعته، والقصد سيرته، والرشد سنته، أخصه بكتاب مصدق لما بين يديه، وناسخ لبعض ما فيه، أسري به إلي من سماء إلىٰ سماء حتىٰ يعلق فأدنيه، وأسلم عليه وأوحي إليه، ثم أرده إلىٰ عبادي بالسرور والغبطة، حافظا لما استودع، صادعا بما أمر، يدعو إلىٰ توحيدي باللين من القول، والموعظة الحسنة، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، رؤوف بمن والاه، رحيم بمن آمن به، خشن علىٰ من عاداه فيدعوا قومه إلىٰ توحيدي وعبادتي، ويخبرهم بما رأىٰ من آياتي فيكذبونه ويؤذونه)

و هي كلمات تصف باختصار تاريخ اليهود الذي يعرفه جيدا، وما قد سمعه عن رسول الله خاصة فيما يتعلق بما سمعه عن إسرائه ومعراجه، ثم أخلاق رسول الله الي يراها ماثلة أمامه، وما أراده الله من نبيه محمد صلىٰ الله عليه وسلم، وكذلك ما قد خبروه عن أصله والنسل الذي أتىٰ منه ومن التعامل معه ﷺ يؤكد ذلك بلا أدنىٰ شك، ولكن كانت المكابرة والعناد واللجاجة التي اعتادوا عليها مع جميع أنبياءهم الذين بعثهم الله فيهم ولهم، من موسىٰ حتىٰ عيسىٰ عليهما الصلاة والسلام.

أما الحقيقة التي ظهرت لنا وله بعدما سمع عن النبي فقد كانت مما علم بعدها من قراءته للتوراة والأسفار وتلاوته لها حق التلاوة، فآمن به صلىٰ الله عليه وسلم، وعلمنا بعده من قول الله تعالىٰ من الآيات البينات من سورة البقرة:

(الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته، أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون *يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم علىٰ العالمين * واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) (٣٠٦)

ولما وصل رسول الله للمدينة أعلن حصين إسلامه له وأخفاه عن اليهود وعاد لبيته وأقنعهم بالإسلام فأسلموا، ولكنه قال للرسول ﷺ حينما التقاه (يا رسول الله إن يهود قوم بهت، وإني لأحب أن تدخلني في بعض بيوتك فتغيبني عنهم ثم تسألهم عني حتىٰ يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني) ولما دخل عليه يهود سألهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم:

(٣٠٦)من سورة البقرة من ١٢١-١٢٣ *راجع الجزء الثاني من سيرة بن هشام

أي رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ولما فرغوا خرج عليهم الحصين (عبد الله) بن سلام فقال: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم لتعلمون إنه رسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقه وأعرفه*، وأنزل الله:

(وشهد شاهد من بني إسرائيل علىٰ مثله فآمن واستكبرتم) (٣٠٧) وأنزل الله أيضاً:

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون ابناء هم، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) (٣٠٨) قالوا: كذبت، ثم وقعوا به وأساؤوا إليه فقال عبد الله لرسول الله: ألم أخبرك يا نبي الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور، فأظهر إسلامه بعدها علانية وحسن إسلامه وبشره رسول الله بالجنة وأنزل الله تعالىٰ

(ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) (٣٠٩)

وكان عدد من اليهود قد أخفوا إسلامهم عن قومهم حتىٰ كانت بدر.

١٠- خطبة فاطمة بنت محمد من علي بن أبي طالب:

لم تشعر فاطمة والتي قد تعدت التاسعة عشر من عمرها بأن زواج أبيها من أم المؤمنين سودة قد غير من مكانتها في قلب رسول الله، ولكن ما أن تزوج رسول الله من أم المؤمنين عائشة حتىٰ شعرت بأن العروس الجديدة والتي تصغرها بخمس سنوات، قد أحدثت تغييرا كبيرا في حياة الرسول البيتية، فملأت عائشة فراغ رسول الله، وخففت عنه الأعباء، وسرت عنه كثيراً ما يلقاه من هموم، وكأن رسول الله قد شعر بما تشعر به ابنته، وما كان يحتجزها إلىٰ جواره إلا لرغبته ﷺ في التأكد من استقرار الأمور كي تواجه مسؤولياتها كزوجة دون اضطراب في أحوال زواجها، وكان رسول الله يشعر برغبة علي كرم الله وجهه في ابنة عمه، ولم لا وقد ربيا معاً في بيت النبوة وولدت وعلىٰ مقيم في بيت الرسول وكان في السادسة من العمر، فشجعه رسول الله وتمت الخطبة في أواخر رجب أو في النصف الثاني من شعبان من العام الأول من الهجرة.

(٣٠٧)الأحقاف:١٠

(٣٠٨)البقرة ١٤٦

(٣٠٩)الرعد:١٠

خاتمة الجزء الثاني

تفاءلت كثيراً أثناء كتابة مقدمة هذا الجزء، وربما ساعدني من انتقدتهم في محنتي باتهام نفسي بالتقصير في تهيئة نفسي بفترة من التفكير لكيفية الوصول لما أريد التعبير عنه لهم، فاستعرضت في المقدمة أسباب عزوف القارئ عن القراءة بوجه عام وعن قراءة ما أكتب بكل ما أمكنه من أمانة، فما كان ممن قرأ تلك المقدمة إلا أن تصالح مع القراءة، ومع كاتب غير محترف، يجاهد في سبيل هدف لن يجن منه إلا وجه الله وذلك أكبر ما يمكن لبشر جنيه إن كانوا يعلمون

تحدث هذا الجزء عن الفرق بين منحة الإيمان ومحنته، فالإيمان منحة يمنحها الله لعباد مختارين، ولا يقدرها حق قدرها سوى من ترك نفسه فأطلق عنانها في الاستمتاع بتلك المنحة الإلهية،

وقضية الإيمان قضية صعبة، بل هي بالغة الصعوبة، ولئن منحت، فلن يسعنا إلا التحليق في سماواتها، لا نعبأ بما قد يجلبه علينا الإيمان من محن ومشقة، ويظل المؤمن مؤمناً مهما تكالبت عليه النوازل بغية إثنائه عن حلاوة الإيمان.

وتحدث هذا الجزء عن نبوة الرسول، ونبوة رسول الله محمد ﷺ لا تحتاج إلى إثبات في مرحلة النضوج الإيماني، ولم نر أحدا من أتباع أنبياء الله موسى أو المسيح صلى الله عليهما وسلم يحاول إثبات نبوته بما أسميناه نحن علامات النبوة ولي أن أكرر ما جاء في مقدمة الجزء الثاني من إن سيرة رسول الله ﷺ مجردة، ودون الحشوات والإضافات لجديرة بتحريك القلوب المغلقة والمتحجرة وإقناع العقول الغائبة والمغيبة، تحفز الضمائر وتخلق الهداية، عند أولئك الغائبة عنهم، أو تجدد الهداية المنهكة عند أولئك الموجودة فيهم، فالبحث هنا عن علامات النبوة هو تهافت لا يليق برسول الله، وهو جهد فيما لا أدعي الجهاد في شأنه.

وتحدث الجزء الأول متناولا قضية الإيمان في هذا العصر، إذ بعدما استعرض الجزء الأول تحريف اليهود لدين الله وغضب الله عليهم، وتحريف بولس للمسيحية وكيف أضل أتباع المسيح، ثم نوهت في مقدمة هذا الجزء، الجرأة على الحديث بالتحريف تارة والإضافات تارات، والادعاء بإلصاق المعجزات المفتراة على رسول الله وعلى الأولياء

وتأليه واحد من الصحابة ونسله، والرياء والجدل والمظهرية والتكسب من الدين من أجل المال أو السلطة أوكلاهما معا والتأثر بثقافات الغرب المنتصر، بالإضافة إلىٰ الغلو في الدين للتكسب منه والعنصرية الإيمانية والعنف بالقتل باسم الدين وفوق كل ذلك الجمود الفكري والروحي.

ويتحدث الكتاب عن قدوة عملية أرادها الله جلت حكمته للبشرية، واتخاذنا رسول الله قدوة لنا هو ما لم يكتمل بعد ولن يكتمل إلا بتدبر سيرة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وعبادة الله حق عبادته، وممارسة الحياة بهدي نبي الله والعمل علىٰ إعلاء كلمة الله.

السؤال هو، هل تصلح القراءة دون تأمل، وهل تصلح العبادة دون تدبر، وهل تصلح الحياة دون إيمان بهدف، وهل تنجز الأعمال دون وسيلة، وأي الوسائل أفضل وأقدر من وسيلة الاقتداء برسول الله،

****

ولعل أهم ما يمكن أن تتناوله تلك الخاتمة هو القرآن المكي، والقرآن المكي -الذي أقصده- هو سور أو آيات القرآن التي نزلت قبل الهجرة وإن كانت بغير مكة، وقد كان نزول القرآن حدثًا جللاً، ولما كانت الدعوة إلىٰ الله تحتاج إلىٰ نهج خاص في أسلوبه فلا تفرض كل تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الإيمانية والأخلاقية الصالحة، فقد نزل القرآن ابتداءً بأهداف عامة يهدف إلىٰ هداية الإنسانية إلىٰ المحبة الواضحة، ويرشدها برفق إلىٰ الطريق المستقيم، فيقيم أسس الحياة الفاضلة وبه من المميزات الموضوعية، بالتركيز في مجمل الآيات علىٰ مخاطبة العقول والألباب فيما يحمله وجدان البشر من طهارة القلب، فابتدأ القرآن المكي بالدعوة إلىٰ القراءة كان لفهم:

- وحدانية الله ووجوب عبادته بنبذ الأصنام، وإثبات الرسالة، وإقرار البعث ومبادئ الثواب والعقاب، وذكر القيامة وهولها، والتحذير من النار وعذابها، والوعد بالجنة ونعيمها باختراق حواجز النفس البشرية.
- وضع أسس الحياة الفاضلة والحض علىٰ مكارم الأخلاق ومبادئ التشريع العامة ونقد حياة الجاهلية باختراق حواجز فطرة الإنسان.

- الـرد علـىٰ جـدل المشـركين بـالبراهين العقليـة وأيـات الكـون بـاختـراق حـواجز المجهول من العلم.
- ذكـر الحقـائق التاريخيـة لقصـص الأنبيـاء، والأمـم السـابقة وتصـحيح المفـاهيم الإيمانية والتاريخية باختراق حواجز الزمن الماضي.
- طمأنة الرسول والمؤمنين بالتأكيـد علـىٰ انتصـار الـدعوة وكشـف مصـير الشـرك باختراق حواجز الزمن القادم.

أما مميزات الاسلوب القرآني فكانت في قصر الفواصل وقوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، وكثرة القسم، ومخاطبة الناس كافة بـ (يا أيها الناس) للعموم.

فتكونت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقـدر، وامتحنت في عقيدتها بأذىٰ المشركين فصبرت وهـاجرت مـؤثرة رضـا الله علـىٰ متـع الحيـاة ورضي القوم، ومـا توقفـت الابـتلاءات منـذ وطئـت أقـدامهم يثـرب حتـىٰ وفـاة رسـول الله، وكانﷺ قد هداهم نهج الخروج من البلاء فيتبعوه ولكن مـا أن بـدأ تـاريخ المسـلمين حتـىٰ استسلموا للفتن والفتن لن تتوقف

(أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)

مدحت رضا ماهر

فهرس التواريخ والأحداث

- الله جل وعلا يأمر خليله إبراهيم برفع قواعد الكعبة بمكة في بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد مع ابنه إسماعيل (١٦٠٠ ق م)
- الصراع الأول بين العرب حول الكعبة والسيادة علىٰ مكة وسيطرة قبيلة جرهم (٦٤٠ ق م)
- دخول المسيحية إلىٰ الحبشة ٣٣٠ م بتبشير مصري
- الصراع الثاني واستيلاء خزاعة علىٰ حكم مكة في أواسط القرن الثاني للميلاد واستمرت ولاية خزاعة علىٰ مكة أربعمائة سنة من ٤٠ م حتىٰ ٤٤٠ م
- الصراع الثالث علىٰ مكة والكعبة وتولىٰ قصي أمر الكعبة ومكة بلا منازع عام ٤٤٠ حتىٰ ٤٧٢ ميلادية وعاد أمرها لأبناء إسماعيل وتركزت في قريش بعدها (بعد غياب استمر اثنان وعشرون قرنا)
- الصراع الرابع بين ابناء عبد مناف بن قصي (قصي وعبد الدار) حول مناصب الكعبة والسيادة علىٰ مكة وتولي قصي (٤٧٢ ـ ٤٨٤ م)
- الصراع الخامس بين ابناء أمية بن عبد شمس بن مناف وعبد المطلب حول مناصب الكعبة والسيادة علىٰ مكة وتولي عبد المطلب (٤٨٤ م)
- مولد رسول الله يوم الإثنين في الثاني عشر من ربيع الأول قبل ٤٠ سنة من الهجرة الموافق لشهر أغسطس من عام ٥٧٠ ميلادية
- وفاة آمنة بنت وهب أم رسول الله ٥٧٥ م
- وفاة عبد المطلب جد رسول الله ٥٧٨ م
- أول رحلة تجارة لرسول الله للشام ولقاء بحيرا الرهب بالرقيم ٥٨٢ م
- زواج رسول الله من خديجة بنت خويلد ٥٩٥م
- السيل العرم يهدم الكعبة (٦٠٥ م) وإعادة البناء
- نزول الوحي علىٰ رسول الله بغار حراء ٦١٠ م

- اكتساح جيوش كسرىٰ عام ٦١٤ م أورشليم فنهبت وقتلت ٩٠الف مسيحي، وأحرقوا الكنائس والضريح المقدس وأخذوا الصليب المقدس إلىٰ بلاد الفرس ودخلت جيوش كسرىٰ مصر سنة ٦١٧ م وقتلت ٢٢٦ ألف قبطيا
- الهجرة الأولىٰ للحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة من المبعث (سنة ٦١٥ ميلادية)
- الاعتداء علىٰ رسول الله من أبي لهب وإسلام حمزة بن عبد الطلب عم رسول الله وأخوه من الرضاعة في ذي الحجة بالعام السادس من النبوة أكتوبر عام ٦١٦ م
- إسلام عمر بن الخطاب أكتوبر ٦١٦ م ذي الحجة بالعام السادس من النبوة وبعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة
- كتابة وثيقة المقاطعة والحصار المفروض من قريش عىٰ المسلمين ليلة هلال المحرم سنة سبع للبعثة ٦١٦م
- الهجرة الثانية للحبشة في شهر المحرم من السنة السادسة من النبوة ٦١٦ م
- وفد قريش للنجاشي ملك الحبشة في العام السابع للنبوة (٦١٧ م)
- إنهاء المقاطعة ونقد الوثيقة بمقاطعة المسلمين في شهر المحرم من السنة العاشرة للنبوة بعد ثلاث سنوات كاملة ٦٢٠ م
- وفاة أبا طالب في أول شهر رجب من السنة العاشرة للنبوة بعد الخروج من الشعب بسبعة أشهر تقريبـًا ووفاة خديجة بعد أسبوع ٦٢٠ م
- زواج رسول الله من سودة بنت زمعة بعد خديجة في المنتصف من شهر شعبان بالسنة العاشرة من النبوة ٦٢٠ م
- خطبة رسول الله لعائشة بنت أبي بكر الصديق في الأواخر من شهر شوال بالسنة العاشرة من النبوة ٦٢٠ م
- الإسراء والمعراج سنة ٦٢٠ م في السنة العاشرة للنبوة
- بيعة العقبة الأولىٰ (الصغرىٰ) و (بيعة النساء) في أوائل السنة الحادية عشرمن النبوة (أواخر يوليه سنة ٦٢١ ميلادية)

- بيعة العقبة الثانية (الكبرىٰ) في موسم الحج في ذي القعدة من السنة الثالثة عشر من النبوة (أواخر يونية سنة ٦٢٣م)
- بداية هجرة المسلمين والتآمر لقتل رسول الله في شهر صفر في السنة الرابعة عشر من النبوة الموافق الثاني عشر من سبتمبر عام ٦٢٣ م
- في يوم الجمعة (٩ ربيع الأول الموافق ٢٧ من سبتمبر ٦٢٣ م) وصول الركب الشريف ليثرب
- زواج رسول الله من عائشة في أوائل شوال في السنة الإولىٰ من الهجرة إبريل ٦٢٤ ميلادية
- زواج علي بن أبي طالب من فاطمة في منتصف شوال في السنة الأولىٰ من الهجرة أوائل مايو ٦٢٤ ميلادية

المراجع العربية والإسلامية والأجنبية

- القرآن الكريم
- التوراة
- التلمود
- الأناجيل الأربعة
- إنجيل برنابا
- الله (كتاب في نشأة العقيدة الإلهية) ـ لعباس محمود العقاد
- قصة العقائد لسليمان مظهر
- إبراهيم أبو الأنبياء لعباس محمود العقاد
- سلسلة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي
- إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة لإبكار السقاف
- (تاريخ اليهود) الجزء الأول والثاني للكاتب أحمد عثمان
- التلمود شريعة بنىٰ إسرائيل - أحمد صبري
- الصهيونية في المجال الدولي للدكتور عبد المعز نصر
- تاريخ الشعب العبري لريناتش
- قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار
- الإسلام والنصرانية للشيخ محمد عبده
- حياة المسيح لعباس محمود العقاد
- المسيح عيسىٰ بن مريم لعبد الحميد جودة السحار
- سلسلة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي
- قصة الحضارة ـ لول ديورانت
- A SHORT HISTORY OF THE WORLD

- AlfredE.Grarvie:Encyclopaedia of Relegions and Ethics volume 5
- Outline of History Volume 3
- محاضرات تاريخ الأمم ـ للخضري
- سقوط روما وانحطاطها ـ إدوارد جيبون
- الأصنام لابن الكلبي
- كتب الحديث سنن النسائي – وأبي داوود ـ وابن ماجة ـ شرح صحيح مسلم لأبو زكريا النووي ـ صحيح البخاري ـ صحيح مسلم ـ الأحاديث الصحيحة المجلد الأول والثاني لناصر الدين الألباني ـ موطأ الإمام مالك، جامع الترمذي
- تفاسير الطبري، وابن كثير، الجلالين فتح القدير، الدر المنثور، زاد المسير، السمط الثمين
- أسباب النزول لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النياسبوري وبهامشه الناسخ والمنسوخ
- لباب النقول في أسباب النزول للإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس عن رواية أبي بكر بن علىٰ الأدفوي النحوي
- زاد المعاد في هدىٰ خير العباد لشمس الدين المشقي (ابن القيم الجوزي)
- سيرة بن هشام لأبي محمد عبد الملك بن هشام
- المغازي للواقدي
- فجر الإسلام لأحمد أمين
- موسوعة آل النبي
- أعلام النساء
- معدن الأعمال
- مشكاة المصابيح

- تاريخ الطبري
- الأمانة والسياسة
- في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين
- رياض الصالحين للإمام أبي زكريا يحيىٰ بن شرف النووي الدمشقي
- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجار (الجزء الأول والثاني)
- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان
- عبقرية محمد لعباس محمود العقاد
- عبقرية الصديق لعباس محمود العقاد
- عبقرية عمر لعباس محمود العقاد
- عثمان بن عفان لعباس محمود العقاد
- عبقرية الإمام لعباس محمود العقاد
- فاطمة الزهراء والفاطميون لعباس محمود العقاد
- معاوية بن أبي سفيان لعباس محمود العقاد
- المرأة في القرآن لعباس محمود العقاد
- رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا (المجلد من الأول للثالث) للدكتور عبد الرحمن عميرة
- الروض الأنف لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي
- معالم في الطريق ـ لسيد قطب
- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ لسيد قطب
- تفهيم القرآن لأبي الأعلىٰ المودودي
- جامع الترمذي لأبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ الترمذي
- فتح الباري، فقه السيرة للغزالي، سنن أبو داوود، طبقات بن سعد

- الشفاء بتعريف حقوق المصطفىٰ ـ للقاضي عياض
- إحياء علوم الدين للغزالي
- طبقات بن سعد لمحمد بن سعد بن منيح الزهري (طبعة مكتبة الأسرة)
- حياة محمد – لمحمد حسين هيكل باشا
- الرحيق المختوم للشيخ صفي الرحمن المباركفوري
- محمد ﷺ لمحمد رضا
- هذا الحبيب محمد يا محب ـ لأبي بكر الجزائري
- . الرسول في بيته لعبد الوهاب حمودة
- الحكم وقضية تكفير المسلم لسالم علي البهنساوي
- ولاة مصر لمحمد يوسف الكندي
- علىٰ هامش السيرة للدكتور طه حسين
- الوعد الحق للدكتور طه حسين
- مختصر سيرة الرسول ـ لمحمد بن عبد الوهاب التميمي
- كتاب مصر وحضارات العالم القديم
- قلب جزيرة العرب
- السمهودىٰ / وفاء الوفاء
- تفهيم القرآن
- بشارة المصطفىٰ
- تفسير سورة النور لأبي الأعلىٰ المودودي
- رسول أكرم ي سياسي زند كي ـ لدكتور حميد الله (النسخة العربية)
- تفهيم القرآن
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب
- تلقيح فهوم أهل الأثر

- تاج العروس للتميمي
- نهاية الإرب للنويري
- تاريخ الإسلام للنجيب آبادي
- مناقب الأنصار
- مجلدات الموسوعة المصرية (تاريخ مصر القديم وآثارها)
- صفة جزيرة العرب للهمداني طبعة ليدن لسنة ١٨٨٣
- كناب الإعلام ببيت الله الحرام طبعة ليبسيك لسنة ١٨٥٧